إحياء التراث

للدكتور إبراهيم مدكور

— ٣ —

غفلنا عن تراثنا زمنا طويلا ، وقد تنبه إليه من قبلنا نفر من كبار المستشرقين في أخريات القرن الماضي ، وأخرجوا منه مراجع لا تزال عمدة في بابها . وبدأنا في هوادة نضطلع بهذا العبء منذ أوائل هذا القرن ، وأخذ يتكون لدينا جيل من المحققين والناشرين . ولم نعن كثيرا بتتبع الأصول الخطية وجمعها من مظانها ، واقتنعنا في الغالب بنشر ما يقع في أيدينا ، واكتفينا بمخطوط أو اثنين ، وكان في وسعنا أن نضم إليه مخطوطات أخرى ، ولم نلتزم في اختصار منهج التحقيق العلمي [illegible]

ومع هذا أسهمنا في إحياء تراثنا ، وظهر لنا إنتاج أخذ ينمو على الزمن ، واضطلع به أفراد وجماعات [illegible] المراكز الثقافية [illegible] نشره دون إضافة أو تعديل ، وربما شوهوه وأساءوا إليه ، وطغت النزعة التجارية ورغبة الكسب اليسير هنا ، كما تطغى في ميادين أخرى .

وفي ربع القرن الأخير ازدهرت حركة التحقيق والنشر ازدهارا ملحوظا ، وتنافس فيها المتنافسون من حكومات وهيئات وأفراد ، وظهرت في العالم العربي وزارات للتراث ، ومجالس قومية لإحيائه . وبدت ظاهرة أخرى يسبق أن دعونا إليها وشجعنا عليها ، وهي أن يضم تحقيق النصوص إلى مجال البحوث الجامعية ، وربما أجازه بذلك ، وفيه ما فيه من عناء ومشقة وتحرير وتمحيص . ونقبل رسائل الماجستير والدكتوراه التي تعالج نصوصا قديمة ، وقد اتجه الشباب الجامعي أخيرا نحو ذلك وأسهم فيه إسهاما بينا . وربما [illegible] أن عددا غير قليل [illegible] من هذا العبء ، وأن توجه إليه أنظار دور النشر الكبرى .

ولم تحظ هذه الحركة النشيطة فى الجامعات وخارجها بتخطيط واضح . ولا بتنسيق شامل ، بل تركت لهوى الأفراد والجماعات . ولانكاد نلحظ شيئا من هذا التخطيط إلا فى مثلين اثنين وقف عندهما مجمعان لغويان . هما مجمع دمشق الذى عنى خاصة بالنصوص التاريخية التى تتصل بسوريا وبلاد الشام ، ومجمع القاهرة الذى وقف عند النصوص اللغوية . ووقعنا تبعاً لهذا فى شيء من الازدواج والتكرار ، فينشر نص واحد أكثر من مرة فى بلدين أو بلاد عربية ، وتهمل نصوص أخرى لها وزنها وقيمتها . وما أحوجنا أن تتوزع هذه الجهود بيننا ، وأن يرسم للتحقيق والنشر خطة شاملة تقوم على أولويات واضحة ، وفى وسع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن ترعى ذلك وتتعهده . وليس فى هذا مايعدو على حرية المحققين والناشرين ، بل هو محاولة لتوزيع الأعمال بينهم وتفاد للجهود المكررة والضائعة .

وتراثنا واسع عريض ، متعدد الألوان ، متنوع الدراسات ، فيه أدب ولغة ، وقصص وتاريخ ، وفقه وتشريع ، وتفسير وحديث وجغرافيا ورحلات ، وعلم وفلسفة . ولم تنل هذه الدراسات حظاً متعادلاً من التحقيق والنشر ؛ ففيها ما عظم الإقبال عليه ، وفيها ما أهمل إهمالا يكاد يكون تاما . ويرجع ذلك فى الغالب إلى أن بعض الهيئات العلمية لم تحاول أن تضطلع بنصيبها ، وما أجدرها أن تفعل . فتاريخ العلوم الطبيعية والرياضية مثلا ونصوصها قد استلفتت نظر المستشرقين منذ عهد مبكر . ولم تنل منا بعد ماتستحق من عناية . ونحن فى حاجة ماسة لتتبعها والكشف عنها ؛ لاسيا وقد قلت عناية المستشرقين بها أخيرا ، ورب الدار أولى برعايتها .

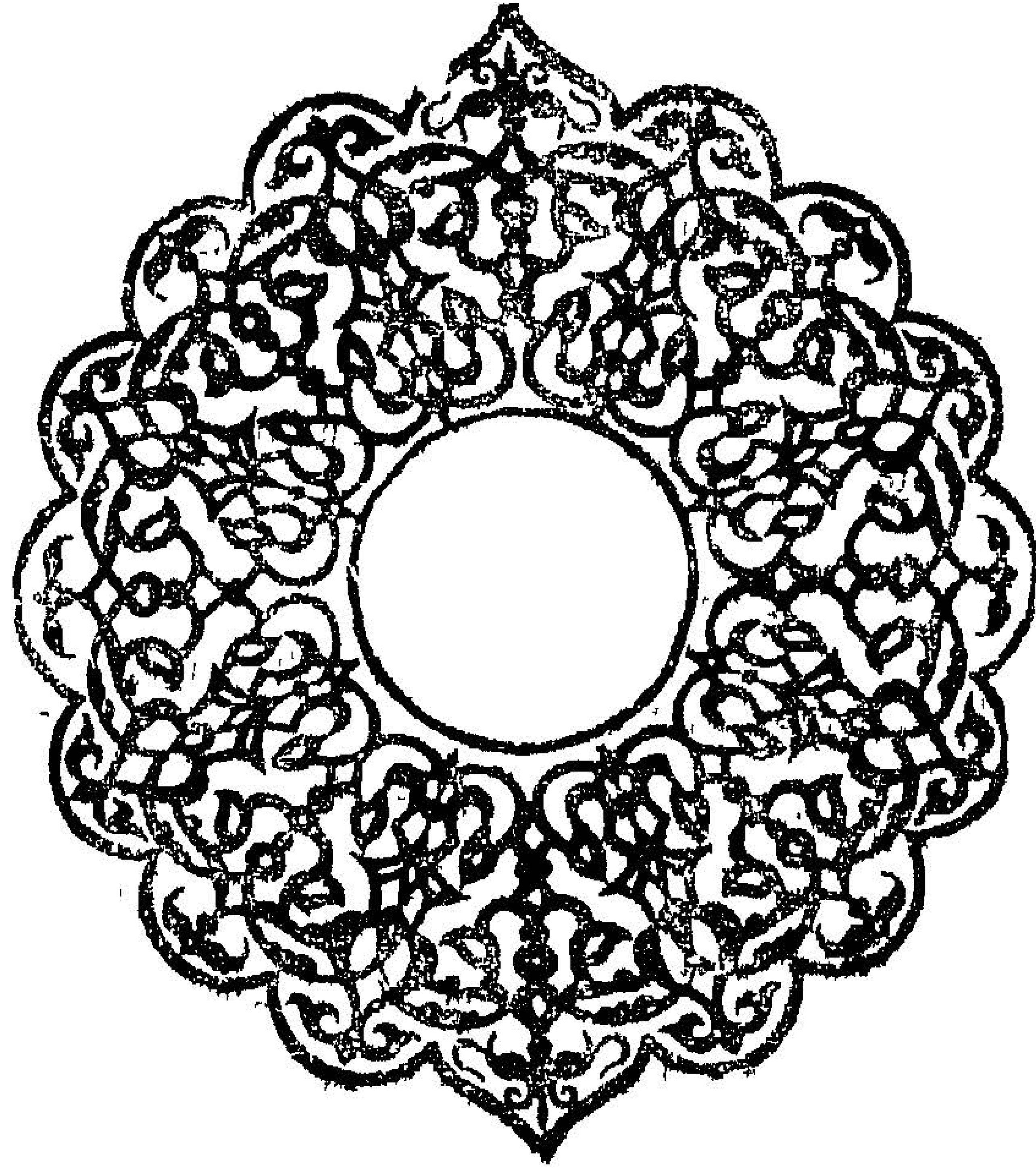
والسبيل الحق لإحياء تراثنا ، ونشره نشرا علميا محققا أن تضطلع به الهيئات المتخصصة ، وتتقاسم أعباءه فيما بينها ؛ فيقوم الأدباء واللغويون على نشر النصوص الأدبية واللغوية ، ويرعى الفقهاء والمحدثون أصول الشريعة الإسلامية ومراجعها ، وتضطلع الجمعيات والاتحادات العلمية والفلسفية بالمخطوطات العلمية والفلسفية . ولهذا التخصص أشباه ونظائر فى اللغات العالمية الكبرى ، وقد آتى ثمارا طيبة . وبلغ درجة واضحة من التحديد والدقة ، فوقفت كل هيئة نفسها على عصر بذاته ، أو على مدرسة بعينها . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها فى الفرنسية « مجموعة بودية » التى عنيت خاصة بالنصوص الفلسفية اليونانية ؛ وفى الإنجليزية « مجموعة لويب » الكلاسيكية التى أخرجت عددا غير قليل من مؤلفات أرسطو الطبيعية . واستطاعت مكتبتنا العربية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية أن تخرج فى العشرين سنة الأخيرة قدراً لابأس به من النصوص الفلسفية .

ومن حق إحياء التراث أن ينوه به ، وأن تعطي عنه فكرة صحيحة للباحثين والدارسين في العالم بأسره ، وأن ينقل منه ما ينقل إلى اللغات الحية. وإذا كنا نحرص على أن نأخذ عن هذه اللغات ، فإن من واجبنا أن نعطيها ، وربما تم هذا العطاء على أيدى بعض أبناء هذه اللغات أنفسهم ، ولكن هذا لا يعفينا من أداء هذا الواجب على وجهه. وقد اضطلع به نفر من باحثينا ومبعوثينا في النصف الأول من هذا القرن ، ثم انصرفنا عنه أخيرا ، وضعفت بيننا وسائل البذل والعطاء ، وقل من يجيدون النقل والترجمة :

ولم يبق شك اليوم في أن الثقافة العربية غذت قديما الثقافة اللاتينية والعبرية بغذاء وفير. وامتد غذاؤها إلى عصر النهضة الأوربية والتاريخ الحديث ، ونريد لها أن تستعيد مجدها وأن تسهم مع الثقافات الأخرى في ميدان الفكر والحضارة الإنسانية

إبراهيم مدكور

رئيس المجمع



حول الدراسات النحوية

للأستاذ علي النجدي ناصف

نشطت الدراسات النحوية فى هذه الأيام، وتعددت أنواعها، وجعل أصحابها من طلاب الدراسات الجامعية العليا يقيمون عليها كثيرا من رسائلهم التى يتقدمون بها للحصول على الماجستير أو الدكتوراه فى النحو

وتدور هذه الرسائل فى جملة الأمر على القول فى قضايا النحو التى لها اتصال بموضوعات الرسائل، ينقدونها، ويعرضون آراءهم فيها ومآخذهم عليها ولا يفوتهم — ولو استطرادا — أن يعرجوا على النحاة أنفسهم، ليلقوا عليهم تبعة ما أنكروا منها، وينعوا عليهم الأصول التى أقاموها عليها، والتزموا الأخذ بها. وإن كانت فى رأيهم — لتخالف الذوق العربى، وليس بينها وبين صميم اللغة فى طبيعتها نسب قريب.

ولكل من كتاب إحياء النحو للأستاذ إبراهيم مصطفى، رحمه الله، وكتاب الرد على النحاة، الذى حققه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، لأبى العباس أحمد بن مضاء، رحمه الله — لكل من الكتابين فضل فى توجيه الدراسة النحوية الجامعية إلى هذه الوجهة، والتشجيع على المضى فيها.

ففى الكتاب الأول نقد لنظرية العامل ودراسة لعلامات الإعراب، انتهى فيها إلى أن الفتحة لا تعدمها، إلى أساليب أغفل النحاة القول فيها كما يقول. وفى الآخر نقد أيضا لنظرية العامل وإنكار للتأويل، ولكثير من وجوه التقدير.

نعم لهذين الكتابين فضل مذكور فى شيوع الدراسة النحوية، وتوسيع نطاقها على أساس من نقد النحو ومذاهب النحاة. وما هو بالفضل الهين ولا باليسير لأنه دعوة إلى التحرر فى الدراسة والنقد وبعث لنهضة نحوية تضع النحو فى الميزان، وتقول للناس ماله وما عليه. ومن حق الباحثين فى هذا الجيل أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويسهموا فى دعم الدراسات اللغوية، كل على مقدار ما أوتى من موهبة، ورزق من كفاية.

فليس تراثنا من النحو أو غيره . بمنجاة من النقد ، ولا علماؤه المبرزون فيه بمعصومين من الوهم أو الغفلة ، إن كانوا معصومين من سوء الفهم وانحراف المنهج. وليس نقد هذا التراث وقفا على عصر دون عصر، ولا هو مباح لباحثين من أهله، ومحرم على آخرين، ولكنه حق ثابت لكل صالح له وقادر عليه . فليمض شبابنا في طريقهم مزودين بدعواتنا لهم بالسداد والتوفيق ، وبالنصح الخالص والإرشاد القويم :

وأريد في هذه الكلمة — وقد قرأت كثيرا من رسائلهم في الدراسات النحوية — أن أعزز نشاطهم، وأسهم في النصح لهم بما أرجو أن يبصرهم وجه الحق ، ويهديهم سواء السبيل . وليس من همي هنا أن أتناول إحياء النحو ولا الرد على النحاة بنقد أو تعقيب ، فما لهذا أكتب ، ولا هو مني على بال ، ولكن الذي أريده أن أشكر لهما المنهج الذي التزما اتباعه في النقد وشرح ما يذهبان إليه من آراء.

لقد كانا في نقدهما موضوعيين ، لا يقولان في غير حقائق النحو التي بدا لهما أن يقولا فيها . وكان أسلوبهما في التفسير والنقد هادئا عفا، لا أثر فيه لحدة ولا ثورة ولا انطلاق، صنيع العلماء الراشدين ، والناقدين المنصفين . وكنت أود لو اتبع باحثونا الجامعيون سبيلهم في النقد وعرض الرأي ، كما تأثروا بهم في محاولة الدراسة النحوية على قاعدتين من العصرية والحرية .

نعم ، كنت أود ذلك وأرتجيه ، لكن الذي رأيته ، وأسفت له من بعض الرسائل التي قرأتها واشتركت في مناقشتها — لا يأخذ من ذلك بقليل ولا كثير ، وإنما هو السخط على النحاة ، وإرسال القلم فيهم حرا طليقا ، يصب عليهم غضبه ، ولا يتحرج من تناولهم بالذم والانتقاص ، في غير هوادة ولا رفق ، فهم في رأيهم قد جنوا على اللغة . وأفسدوا النحو بما أدخلوا عليه من فلسفه ، وما تكلفوا لمسائله من علل ، وما التمسوا له من شواهد لا حظ لها من فنية الشعر ، لا في معناها ولا في لفظها ، ثم لم تمنعهم الأمانة العلمية أن يتعمدوا فيها التحريف والافتعال ، نزولا على حكم العصبية المذهبية ، ومطاوعة لنزوة الغلبة والانتصار من كل سبيل .

ومن أعجب العجب أن هذا الاندفاع المتهور — لا يفرق أحيانا بين نحوي ونحوي ، ولا بين عصر وعصر ، في بعض ما يصدر من أحكام ، وما يقذف به هنا وهناك من زراية واستهزاء .

ولو أن هذه الفئة من الباحثين — تروت في النظر والدرس ، وحملت نفسها على المراجعة الواعية ، والبحث المتعمق الرزين لخففت من غلوائها ، ولأمنت من تعاليها ، ولبدت لها آراء غير آرائها ، خلافا لها أو تعديلا منها .

فالفلسفة التي دخلت النحو ، وتفشت في بنيته وأحكامه — كانت وما تزال مطلباً

عزيزاً من مطالب المعرفة العلمية ، وقد عنى بها خلفاء المسلمين ، وخاصة حين استبحرت الدولة ، ودعت دواعى التطور والحضارة إلى الأخذ بأسبابها ، واجتلاب أصولها من الأمم التى سبقت إليها ، ومكنت لها فأعلت من قدرها ، وأثلت مجدها بين أمم التاريخ .

فكان من ذلك أن طبعت العقلية العربية بطابعها ، وأن تأثرت بها الحياة الفكرية فى جميع جوانبها تأثراً شاملا ، فما من علم أو فن إلا هو آخذ منها ، وهى عاملة عملها فيه . فكيف يراد النحو وحده على البراءة منها ويحرم عليه أن يصطبغ بصبغتها ، وينهج نهجها فى عرض قضاياه ، وميدان مسائله ، ومناقشة مشكلاته ، والاحتجاج للرأى فيه . أما إنه لو جاءنا خلوا من الفلسفة لكان شاذا من الشواذ ، متمردا على طبيعة الأشياء ، وقوانين البيئة وعملها فى كل ما ينشأ فيها ويحيا فى ظلالها .

وأما التماس العلل لأحكامه ، فأمر يقتضيه تطلع العقل البشرى إلى علم المجهول ، واستبطان الأسرار . ولا نكران أنها من صنع النحاة ، وأن العربى كان يتكلم على سجيته ، دون أن يعرف لوجوه الإعراب سببا ، ولا يتبين لإعلال المعتل وتصحيح الصحيح وجها ، إنما هو الحس اللغوى ، أو القانون الإلهى الذى أودعه الله إياه ، هو الذى يجنبه الخطأ ويهديه إلى الصواب ، فإذا كلامه على نمط سوى لا خلاف فيه ولا تخليط .

وليس العربى فى الجهل بإعراب لغته وتصريف مفرداتها وحيداً بين خلق الله فى هذه الحياة ، فهناك النبات مثلا ، يخضع فى نشرته ونموه ، وفى صحته ومرضه ، وفى كل شأن من شئون حياته لقوانين إلهية مقررة ، لا يدرى من أمرها شيئاً ، ولم يمنع جهله ذاك عالم الزراعة أن يبحث فى أموره ، ويمارس التجارب ليكشف الأسرار الكامنة فيه .

والإنسان فى نفسه ، والكون فى علوه وسفله ـ كلاهما تحكمه قوانين يخضع لها ، ولا يعلم الناس منها إلا يسيرا . والله ـ سبحانه ـ يدعوهم إلى النظر فيها ، واستطلاع حقائقها والاتعاظ بها ، وإن كثيرا منهم ليعكفون عليها ويجهدون فى طلبها . وها هم أولاء يطلعون على الناس بجديد منها كل يوم .

وفى العربية ضروب من المسائل والأحكام لها فى توجيه الإعراب ، وتصريف المفردات ظواهر وآثار تبدو لمن لا يعلم سرها غريبة مستغلقة ، فتنازعه نفسه فى شوق وإلحاح أن يستجليها ، ويطلع طلعها ، حتى إذا هدى إلى حقيقتها ، وأدرك مأربه منها ـ أخلد بالرضا والراحة والاطمئنان .

من ذلك مثلا حذف واو الجماعة من نحو (ولا يصدُّنَّك) للتخلص من التقاء الساكنين ثم الإبقاء عليها فى نحو (أتحاجُّونِّى فى الله) مع التقائها هنا ساكنة مع النون بعدها . ولا ريب أنه سيستشعر السكينة فى نفسه حين يعلم أن الساكن الثانى فى (يصدُّنَّك) هو نون

التوكيد ، وهى كلمة مستقلة ، وأن الساكن الثانى فى (تحاجونى) هو نون الرفع المدغمة فى نون الوقاية ، وهى جزء أو كالجزء من بنيته الفعل ، فالتقاء الساكنين هنا جائز ، لأنه على بابه ، كالذى فى (ولا الضالّين) مثلا[1]

ومثل آخر هو حذف همزة الوصل بعد همزة الاستفهام من الفعل فى نحو (أصطفى) ، ثم إبقاؤها مع أل فى مثل (الله) ويقتضى القياس أن تحذف من أل أيضا لكن خوف اللبس من الحذف هو الذى استوجب الإبقاء عليها ، لأنها إذا حذفت منها فى نحو : البستان مثمر ؟ - لم يتبين المراد بالعبارة ، إذ تحتمل أن تكون إخباراً وأن تكون استفهاما[2] .

بل إنى لاعتقد أن ناشئا من التلاميذ ستعلوكه الحيرة ، ويسائل نفسه إن لم يسأل معلمه إذا قال له : تقول ازدحم النادى ، وذهبت إلى النادى بسكون الياء ، وتقول : دخلت النادى بنصبها فليس بمفهوم لديه فيما أتصور أن يرى كلمة النادى هى هى ، وأن الياء فيها هى الياء ، ثم تسكن فى حالين وتحرك فى الثالثة . حتى إذا تبين فرق النطق بالياء مضمومة ومكسورة ، ونطقها مفتوحة ذهبت عنه الحيرة ، ولم تبق به حاجة إلى المساءلة .

إن الدعوة إلى تجريد النحو من علله ، ثم دفعه إلى الناس صناديق مغلقة ، أوقضايا مسلمة - تعد دعوة إلى تعطيل العقل أن ينظر فى أسرار اللغة ، وهو مدعوإلى النظر فى كل شئ ، ومامن شيء ألزم للمرء وألصق به من لغته ، فهى أداته فى التفاهم والخطاب .

وللخليل بن أحمد كلمة حكيمة شرح فيها موقفه من اللغة فى تبيين عللها ، وإن لم يكن أصحابها يعلمون عنها شيئا ، فقد سأله سائل : أعن العرب أخذت هذه العلل ، أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال :

«إن العرب نطقت على سجيتها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام فى عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها ، وعللتُ أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أحسنت العلة فهو الذى التمست ، وإن تكن هناك علة غير ماذكرت فالذى ذكرت يحتمل أن يكون علة ومثلى فى ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء عجيبة النظام والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو البراهين الواضحة ، والحجج الملائمة .

فكلماوقف هذا الرجل الداخل على شيء منها قال : إنما فعل هذا لعلة كذا وكذا . وجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلاأن ماذكره هذا الرجل

---

(١) حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل : ٢ : ٨٤ ، و ٨٥

(٢) الكشاف : ٢ : ٢٢٦

الداخل محتمل أن يكون علة كذلك فإن سنحت لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته للمعلول فليأت بها »(١) .

أما نقد الشواهد والنيل من قيمتها الفنية ، والطعن فى سلامتها من الوضع والافتعال — فأمور لا تخلو من التجنى والتخليط . فهناك فرق بين اختيار الشواهد اللغوية واختيار النماذج الأدبية . فالك يدور الاختيار فيها على جانبها اللغوى ومدى صلاحيتها لتأييد القضية التى يجاء بها لتأييدها ، وكفى . أما هذه فيدور الاختيار فيها على براعة النظم ، وروعة الفن ، وجمال التصوير ؛ فلكل من النوعين خصائصه المميزة ، ودواعيه المقتضية عند الاختيار .

وليس ببعيد أن يجد الافتعال أو التغيير فى العبارة سبيلا إلى بعض الشواهد بسبب تنافس الأقران ، أو عصبية المذهب أو الرأى ، غير أن التسليم بهذا كله على إطلاقه أمر لا تطمئن إليه النفس ، لتعذر إثبات صحته ، وقيام القول فيه على مجرد التظنن والارتياب ، أو على أخبار يغلب عليها فى رأيى أن تكون صادرة عن متنازع خاصة لا صلة لها بالحقيقة العلمية الخالصة .

ومهما يكن من أمر فإن الشواهد المعيبة أو المنكرة لا تعد شيئا مذكورا إلى جانب الشواهد القويمة فى فيضها الزاخر العباب . ومن الظلم أن تؤخذ هذه الكثرة البالغة بعيب القلة المعدودة منها وأن يحكم على الشواهد كلها — كما يفعل بعضهم حكما واحدا ، أنها غير صالحة ، والاستشهاد بها عمل مردود .

إن خير ما ينبغى الأخذ به فى نقد النحو أن ينظر الباحث إلى الجوانب التى يبدو له أن فيها مجالا للنقد والدعوة إلى التغيير والإصلاح كما ينظر إلى الظواهر التى يحق أن تدرس ، لا إلى المعايب التى يحق أن تعاب ، لتقوم الدراسة على أساس من البراءة والتجرد ، تقول الحق خالصا من كل شائبة ، وتدع الحكم آخر الأمر للنهاية التى ينتهى إليها العرض النزيه ، والتمحيص الدقيق أما النظر إليها على أنها مثالب تعاب فيصدر حكما عليها سابقاً لأوانه المقدور ، فلا تعدو الدارسة حينئذ أن تكون تلمسا لأسباب الحكم ، وتسويغا للطعن ، ولا تخلو مع ذلك من التكلف والانتحال .

وعلل النحو من أكثر الموضوعات التى يكثر فيها القول ، وتشتد بسببها حملة التشنيع والغض من النحاة . فإذا بدا لباحث من طلاب الدرجات العلمية الجامعية أن يدرسها دراسة نقدية مستقلة أو ملحقة — فالرأى عندى أن يبدأ بالنظر فى كفاية النحاة لصنع النحو والتأليف فيه ، وليسأل : أهم أهل لذلك وأصحاب أصالة فيه ، أم هم أدعياء متخلفون ، ودخلاء متكلفون ؟ إنه إن يفعل ذلك فسيرى منهم حشدا عظيما من حفظة اللغة وأئمتها المتخصصين فيها . يتتابع أعيانه بين يديه على مر الأجيال ، ومع

(١) الاقتراح : ٥٧ ، ٥٨ .

كل منهم شهادة إعظام وإكبار ، وثبتت من المؤلفات المتنوعة ، يسجلها له التاريخ تراثا نفيسا ، وذكرا باقيا على الأيام :

وحسبه أن يكون إمامهم الأول وشيخهم الأكبر هو الخليل بن أحمد ، وأن يكون تلميذه الفذ هو سيبويه حامل رسالته ، وناشر علمه فى كتابه العظيم ، مرجع النحو الوثيق وينبوعه الفياض . ثم ينقلب الباحث بعد هذا فيسأل : إذا كان هذا هو مبلغ النحاة من العلم والتقدم فيه — فماذا حملهم على التماس علل النحو ، وإنهم ليعلمون أن العرب لم تكن تعرفها ولا خطرت لها ببال ؟ أهو التزيد والفضول ، أم الحكمة والسداد ؟

سيكون الجواب الذى لا جواب غيره فى شرعة الإنصاف ، ومراجعة الواقع على نور من حقائق التاريخ ، بل الحكمة والسداد . فما كان لمثلهم أن يغيب ذلك عنهم ولكن لم يغب عنهم أيضا طبيعة الإنسان ، وأنه خلق طلعة لا يسكت عن مجهول حتى يعرفه . والنحو بعد قوانين وأحكام لا يعلمها . وهو لا بد سائل عن كثير من وجوهها وعالل تشابهها فكان أن ساق النحاة إليه علل الأحكام وشواهدها . وكأنهم رأوا الحق أن هذا أشبه بكرامة الإنسان ، وأدل على الإقرار بحقه فى البحث والمساءلة عن المجهول فى حقيقته والأسباب المقتضية له . وأين من هذا عرض قوانين النحو وأحكامه قضايا مفروضة ، وأوامر صادعة ، لا تقبل مناقشة ولا جدلا لأن العرب هكذا قالتها ، ولا يملك أحد أن يرى فى شيء منها رأيا ، ولا أن يفترض فرضا ؟

أظن أن الباحث إذ يبلغ به التفكير إلى هذه الغاية لا يسعه إلا أن يقر أن النحاة فى التزام البحث عن علل النحو قد أحسنوا صنعا وأدوا واجبا ، وأنهم لو أعرضوا عنها أو لم يهتدوا إليها — لم يعدموا فى أوجح الظن إنكار منكر أو ملام لائم .

ثم يتحول الباحث من هنا إلى علل النحو المتكلفة ، فإذا هو إزاء أشكال منها كثيرة ، جهد أصحابها فى انتحالها ما وسعهم الجهد ، ثم جاءوا منها بعد ذلك بما ليس له قيمة تذكر ، ولا نفع يؤثر . وسيرى أنها إنما ظهرت فى عصور متأخرة ، وصحب تأخرها فى الزمن ضعف فى الحياة الثقافية لم يقتصر على النحو ، بل تسرب إلى غيره من أصناف العلوم وإلى كل جانب من جوانب الحياة العامة ، وما كان لهذا العهد أن ينجب نتاجا قيما لا تشوبه شوائب الحشو والفضول .

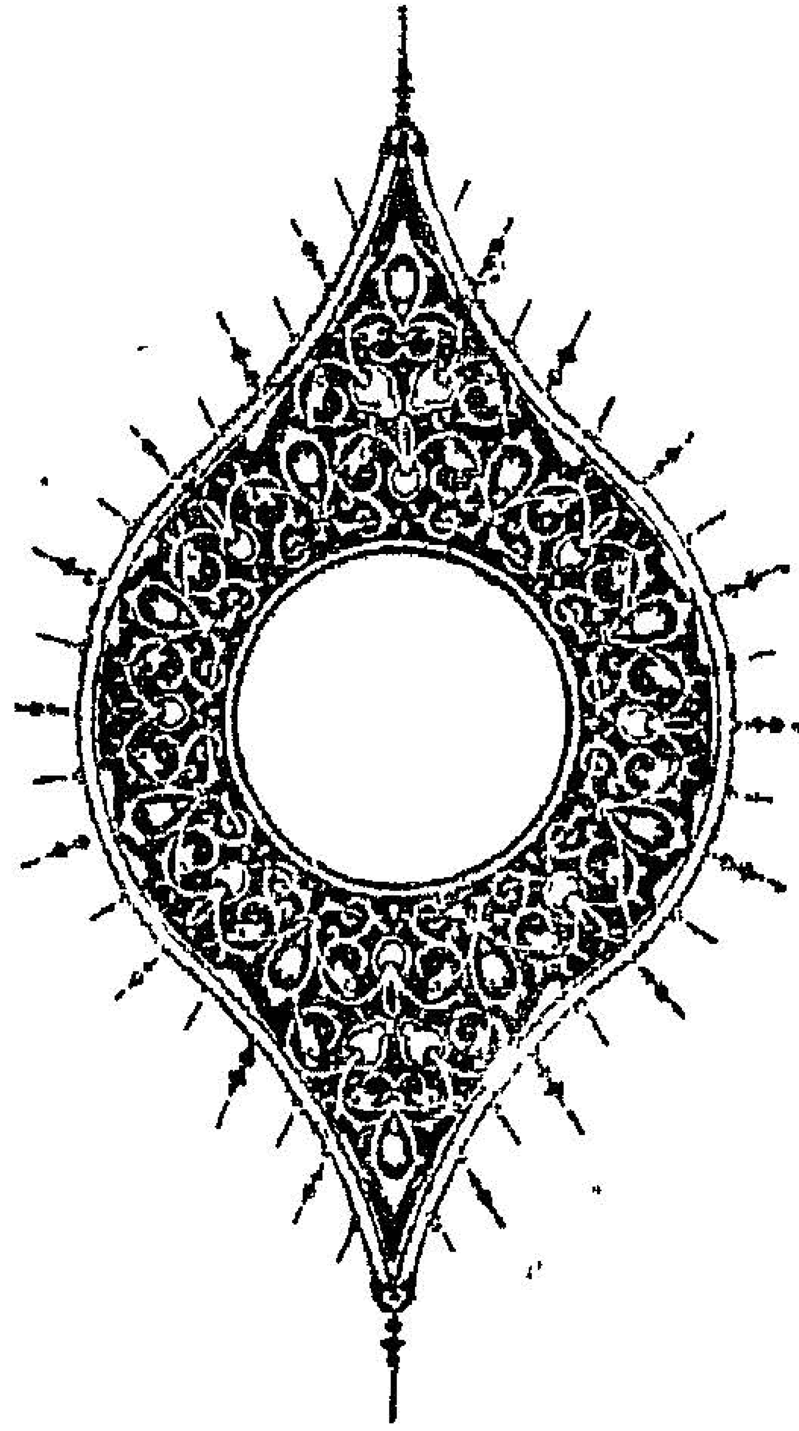
وربما شفع لهم أن النحو قد جاءهم صرحا شامخا ، وخلقا متكاملا ، لا يرون فيه نقصا فيتموه ، ولا صدعا فيرأبوه ، فشغلوا أنفسهم منه بهذا اللون من التفكير المترف يبدئون فيه ويعيدون ، وجعلوا همهم فى التأليف فيه أن ينقلوا من كتب السلف ، ويرووا آراءهم فيها . وكثير من الكتب التى اعتمدوا عليها فى هذا الصنيع قد عدا عليه الزمن ، أو حال

دونه النأي والاغتراب . ولذا كان كثير من النصوص التي نقلت نفيسا فيما .

أظن أن الباحث بعد هذا التطواف سينتهي إلى حكم عادل يرتضيه ويرضى عنه: أن علل النحو عمل مشروع أصلا ومبدأ ، وأن النحويين في توالي طبقاتهم واختلاف عصورهم كانوا أبناء زمانهم ، طبعهم بطابعه وحملهم على طرائقه ، فكانوا صورة صادقة له ، وآية بينة على فعل الأيام والأحداث بالناس ، لا في أنفسهم وكفى ، ولكن في آثارهم أيضا . وإذا كان ثمة ماينكر من العلل النحوية فهو تشقيقها والإسراف فيها ، كما ينكر من كل عمل نافع مشروع حين لاتتهيأ له أصالة الطبع وأسباب الاعتدال والقصد .

علي النجدي ناصف

عضو المجمع



الزَّبِيدىّ .. والزُّبَيْدِىّ

للدكتور احمد الحوفى

كثيرا ما يلتبس علينا النطق الصحيح باسم واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء ، فلا ندرى أصوابه بفتح الزاى المشددة وكسر الباء أم بضم الزاى المشددة وفتح الباء .

فرأيت أن أذكر بعض العلماء الذين تُنطق أسماؤهم وبعدها ياء النسب ، بفتح الزاى وكسر الباء ، وأعرف بأربعة منهم ، ثم أذكر بعض العلماء الذين يجىء نسبهم بضم الزاى المشددة وفتح الباء ، وأعرف باثنين منهم .

أولا . الزَّبِيديُّون

زَبِيد على وزن أمير بلد باليمن أنشأه محمد بن زياد المتوفى سنة ٢٤٥هـ مولى المهدى فى زمن هارون الرشيد.[١] أو هى مدينة أُنشئت أيام الخليفة المأمون.[٢] وقد نسب إلى هذه المدينة عدد كبير من العلماء

١ - منهم أبو عبدالله محمد بن يحيى القرشى اليمنى الزَّبِيدى

[٤٦٠ - ٥٥٥ هـ - ١٠٦٧ - ١١٦٠ م]

له نحو مئة مصنف ، منها (فى النحو) و (القوافى) و (الرد على ابن الخشاب[٣])

٢ - أبو عبدالله عبداللطيف بن أبى بكر ابن أحمد اليمانى الزبيدى [٧٤٧ - ٨٠٢هـ ١٣٧٤ - ١٤٠٠] سكن زبيد ومات بها .

---

(١) تاج العروس مادة زبد .

(٢) معجم البلدان لياقوت ٣ / ١٣١

(٣) الأعلام للزركلى ٨ / ٧

ومن مؤلفاته (شرح ملحة الإعراب) و (مقدمة فى علم النحو) و (نظم مقدمة ابن بابشاذ) وهى أرجوزة فى ألف بيت .[1]

٣ - أحمدبن أحمد بن زين الدين عبد اللطيف الشَّرْجى[2] شهاب الدين المعروف بالزَّبيدى ، محدث البلاد اليمنية فى عصره ، اشتهر وتوفى فى زبيد [٨١٢-٨٩٣ هـ-١٤١٠-١٤٨٨ م] من مؤلفاته (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح) وهو مختصر صحيح البخارى[3] مطبوع ، وله شرح اسمه (فتح المبدى بشرح مختصر الزَّبيدى للشيخ عبدالله الشرقاوى) .

ومنها (الفوائد) مطبوع ، (نزهة الأحباب) .

وأرجح أن صاحب فتح المبدى كان يظن أن اسم مؤلف التجريد الصريح الزُّبيدى بضم الزاى لا بفتحها ، فسمى كتابه فتح المبدى لتنسجم السجعة أكثر من انسجامها لو أن الزاى مفتوحة .

ومن العجيب أننا نقرأ فى أول كتاب فتح المبدى الذى ألفه الشيخ الشرقاوى أن بهامش هذا الشرح كتاب التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزَّبيدِى ، ثم نجد هذا الكلام نفسه فى الصفحة الثامنة من الجزء الأول بالهامش وبالحاشية .[4] وقد تنبه إلى هذا الأستاذ الزركلى .

٤ - مرتَضى الزَّبيدى [١١٤٥-١٢٠٥هـ- ١٧٣٢-١٧٩٠ م] أبوالفيض محمد بن محمد الحسيى الزَّبيدى العلامة باللغة والحديث والرجال والأنساب .

من مؤلفاته (تاج العروس فى شرح القاموس) مطبوع فى عشرة مجلدات ، (مختصر العين) فى اللغة مخطوط ، و (ألفية السند) فى الحديث تشتمل

---

(١) الأعلام ٤ / ١٨١
(٢) نسبة إلى شرجة موضع بنواحى مكة أصله منه .
(٣) فهرس الفهارس والأثبات ٢ / ٣٩٩ عبد الحى
(٤) فتح المبدى ١ / ٨
(٥) الأعلام ١ / ٨٧

على ألف وخمس مئة بيت ، وشرحها[1] الخ .

٥ - ومنهم[2] :

موسى بن عيسى شيخ الطبراني .

٦ - محمد بن يحيي بن مهران شيخ مسلم .

٧ - محمد بن يحى بن على بن المسلم الزّبيدى الزاهد نزيل بغداد .

٨ - إسماعيل بن محمد بن يحيي السابق وهم محدثون .

٩ - عمر بن محمد بن يحيي السابق .

١٠ - مبارك بن محمد بن يحيي السابق . وهم محدثون

١١ - الحسن بن المبارك الزّبيدى

١٢ - الحسين بن المبارك الزبيدى

١٣ - يحيي المبارك الزبيدى .

١٤ - عبدالعزيز بن يحيي السابق

١٥ - أحمد بن يحيي السابق

١٦ - محمد بن يحيي السابق

١٧ - إسماعيل بن محمد بن يحيي المبارك .

١٨ - إبراهيم بن أحمد بن محمد ابن يحيي المبارك ، حدثوا كلهم .

١٩ - أحمد بن عبدالرحمن بن إسماعيل الزبيدى .

٢٠ - إسماعيل بن عبدالرحمن بن إسماعيل الزّبيدى .

٢١ - إسماعيل بن الحسن بن المبارك الزّبيدى

٢٢ - أبو بكر المضرب الزبيدى انتشر عنه مذهب الإمام الشافعي باليمن على رأس المئة الرابعة .

٢٣ - الحسن بن محمد بن أبي عقامة الزبيدى قاضى اليمن زمن الصليحى

٢٤ - أبو الفتوح بن عبدالله بن أبي عقامة أوحد عصره ، نقل عنه صاحب البيان ، وآل بيته هم أجل بيت في زبيد ، وهو ابن أخى الحسن السابق .

٢٥ - عبدالله بن عيسى بن أيمن الهرمى ، من جلة فقهاء زبيد .

---

(١) الأعلام ٧ / ٢٩٧

(٢) تاج العروس مادة زبد

٢٦ ــ على بن القاسم بن العليف الحكمى الزبيدى صاحب مشكلات المهذب ، يقال إنه خَرَّج من تلامذته ستين مدرسا ، توفى سنة ٦٤٠ هـ .

٢٧ ــ محمد بن أبى بكر الحطاب الزَّبيدى تلميذ السابق .

٢٨ ــ أبو الخير بن منصور بن أبى الخير ابن الشماخ الزبيدى السعدى ، توفى سنة ٦٨٠ هـ .

٢٩ ــ أحمد بن أبى الخير السابق ، سمع عليه الملك المؤيَّد داود سنن أبى داود ، توفى سنة ٧٢٩ هـ .

٣٠ ــ ومنهم [1] أبو فرة موسى بن طارق الزبيدى ، قاضيها .

٣١ ــ أبو حُمَّة محمد بن يوسف بن محمد ابن أَسْوار الزبيدى ، كنيته أبو يوسف ، وأبو حمة كاللقب له .

٣٢ ــ موسى بن طارق الزبيدى .

٣٣ ــ موسى بن عيسى الزبيدى .

٣٤ ــ محمد بن سعيد بن حجاج الزبيدى .

ثانيا : الزُّبَيْديون

أما زُبَيْد على وزن نُهَيْر فهو تصغير زُبْد أو زَبَد ، أو كأنه تصغير لهما ، واسم قبيلة وموضع ومحلة [2] .

ومن المشهورين بنسبتهم إلى زُبَيْد عمرو بن معد يكرب بن عبد الله ، ينتهى نسبه إلى زُبيد الأصغر ، وكنيته أبو ثور ، قدم فى وفد زبيد سنة تسع وأسلم ، وشهد الفتوح ، ثم قتل بالقادسية أو نهاوند .

١ ــ ومنهم محمد بن الوليد بن عامر الزُّبَيْدى ٧٩ ــ ١٤٩ هـ (٦٩٨ ــ ٧٦٦ م) أبو الهذيل ، قاض من الأعلام فى رواية الحديث ، ثقة ، من أهل حمص ، أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث .

٢ ــ أبو بكر الزُّبَيْدى محمد بن الحسن بن عبد الله بن مَذْحِج الزُّبَيْدى الأندلسى الإشبيلى ٣١٦ ــ ٣٧٩ هـ (٩٢٨ ــ ٩٨٩ م)

---

(١) معجم البلدان ٣ / ١٣٢

(٢) معجم البلدان ٣ / ١٣٢ وتاج العروس مادة زبد .

شاعر ، أصل سلفه من حمص بالشام ، وهو مؤدّب هشام بن الحكم المستنصر بالله ، ولى قضاء اشبيلية فاستقر بها .

من مؤلفاته (الواضح) فى النحو مخطوط ، (وطبقات النحويين واللغويين) مطبوع ، (ولحن العامة) مخطوط ، و (مختصر العين) فى اللغة مخطوط[1] .

٣ـ ومنهم محمد بن الحسين الأندلسى صاحب القالى ، وابناه ، وهم لغويون .

ومنهم محمد بن عبدالله بن مذحج الزُّبيدى الإشبيلى اللغوى نزيل قرطبة[2] .

وبعد ، فهذه لمحة إلى طائفة من العلماء ينتسب بعضهم إلى زَبيد بفتح الزاى ، وينتسب آخرون إلى زُبيد بضم الزاى ، وما أكثر علمائنا وأدبائنا الذين تتشابه أسماؤهم وألقابهم وكناهم ، وتختلط أنسابهم .

واقد أحسن الآمدى [٣٧٠ هـ] إذ ألف كتابا عنوانه (المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم) واعتنى بتصحيحه وتهذيبه الأستاذ المستشرق الدكتور فرينس كرنكو ، ونشرته مكتبة المقدسى بالقاهرة ، ففيه نفع كبير الدارسين ، وحفاظ على حقائق الشخصيات المدروسة .

وفى هذا وأمثاله دلالة على كلف سلفنا العظيم بالاستيعاب والتحقيق والتدقيق

أحمد الحوفى
عضو المجمع

---

(١) الأعلام ٦ / ٣١٢

(٢) تاج العروس مادة زبد ومعجم البلدان ٣ / ١٣٢

تحقيق لسان العرب

- ١٠ -

للأستاذ عبد السلام هارون

١٠٠١ - (عثم) ٢٧٧ س ١٣ وبيروت ٣٨٤ والمخطوطة ، قوله :

فقد يُقطعُ السيف اليمانى وجفنُه
شباريقَ أعشار عُثِمْنَ على كسر

وفيه أخطاء ثلاثة :

الأول : « يُقطعَ » ، صوابها « يَقطَع » بالبناء للفاعل .

والثانى : « شباريق » بالنصب ، صوابها « شباريقُ » بالرفع ، وهو خبر للجفْن ووصفٌ له بأنه مقطَّع ممزَّق ، يقال ثوبٌ شبارِقٌ وشَبارقُ وشَباريقُ : مقطَّع ممزَّق .

والثالث : « أعشارٍ » ، الصواب فيها « أعشارٌ » ، وهو المقطع ، كأنه قطع على عشر قطع ، كما فى مقاييس اللغة ٤ : ٣٢٦ عند إنشاد البيت .

١٠٠٢ - (عجم) ٢٨٠ س ٧ وبيروت ٣٨٧ والمخطوطة : « وقال أبو الحسن : ويقرأ : أأعجمى ، بهمزتين » . والذى فى التهذيب ١ : ٣٩٠ : « وقال أبو إسحاق » . وهى كنية إبراهيم ابن السرى الزجاج ، صاحب معانى القرآن .

١٠٠٣ - (عجم)٢٨٤ س ١٢ وبيروت ٣٩١ : « قال أبو داود السنحى » بالنون والحاء المهملة ، وفى المخطوطة : « السبخى » بالباء والخاء المعجمة ، وصوابهما جميعا « السِّنجى » بالنون بعدها جيم ، نسبة إلى سنج ، وهى قرية عظيمة من قرى مرو الشاهجان ، كما فى معجم البلدان . قال ياقوت : ينسب إليها جماعة من أهل العلم ، منهم : أبو داود سليمان بن معبد

ابن كوسجان السنجى . كثير الحديث ، وله تاريخ . يروى عن عبد الرزاق بن همام ويزيد بن هارون ، والأصمعى ، وغيرهم . وروى عنه مسلم بن الحجاج ، وأبو داود السجستانى . وكان عالما شاعراً أديبا ، مات سنة ٢٥٧

١٠٠٤ – (عجم) ٢٨٤ س ١٤ وبيروت ٣٩١ والمخطوطة ، وأنشد ابن الأعرابى لجبيهاء الأسلمى :

فلو أنّها طافت بُطنبٍ معجّم
نفَى الرِّقَّ عنه جذبُه فهو كالح

واقتصر فى التهذيب ١ : ٣٩٤ على قوله « الجسهاء » ولم ينسبه . والصواب إن شاء الله : جبيهاء الأشجعى ، لا الأسلمى كما فى المفضليات ١٦٧ . وليس فى نسبه « أسلم » بل هو « أشجع » . وجبيهاء لقب له . واسمه يزيد بن حميمة بن عبيد بن عقيلة بن قيس بن رويبة بن سحيم بن عبيد بن هلال بن زبيد بن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر كما فى ترجمته فى الأغانى ١٦ : ١٤١ وشرح المفضليات ١٦٧

وفى البيت كذلك خطآن :

الأول : قوله « بُطنْب » صوابها « بظِنْبٍ » بالظاء المعجمة المكسورة ، كما فى المفضليات ١٦٨ وتهذيب اللغة ١ : ٣٩٤ و ١٤ : ٣٩٠ واللسان (ظنب) عند إنشاد هذا البيت من قبل . والظنب : أصل الشجرة .

والثانى : قوله « جذبه » بالذال المعجمة ، والصواب « جدبه » بالدال المهملة كما فى المراجع السابقة . والرق ، بالكسر : مارقّ من الأغصان والورق .

وجاء أيضاً فى اللسان شرحاً لهذا البيت فى السطر ١٦ : « والطِّنْب : أصل العرفج إذا انسلخ من ورقه » . وفى المخطوطة : « والطُّنْب » بسكون النون بعد الطاء المهملة .

وصوابهما « والظِّنْب » كما ذكرت آنفا .

١٠٠٥ – (عرم) ٢٩١ س ٦ وبيروت ٣٩٧ قول بشر بن أبي خازم :

إنَّ الغُرية مانعٌ أرماحنا
ماكان من سحَمٍ بها وصفَار

وكذا وردت « أرماحَنا » فى المخطوطة بالنصب ، مع كتابة حاءٍ صغيرة تحت الحاءِ إشارة إلى الإهمال . وصواب ضبطها « أرماحُنا » بالرفع فاعل لمانع ، كما فى مادة (سحم ١٧٣) ، مع نسبة البيت إلى النابغة ، وبالرفع كذلك ضبطت فى ديوان النابغة ص ١٢٩ .

ونسبة البيت إلى النابغة هى الصحيحة كما فى الديوان ومعجم البلدان فى رسم (العريمة) وتحقيقات ابن برى فى اللسان (عرم) ، قال : هو للنابغة الذبيانى ،وليس لبشر كما ذكر الجوهرى.

١٠٠٦ – (عكم) ٣٠٠ س ١٠وبيروت ٤١٦ قول أبي كبير الهذلى :

أزُهير هل عن شَيبةٍ من مَعْكِمِ
أم لا خلود لبازل متكرم

« وزهَير » : ترخيم زهيرة ،وهى بنت أبي كبير الهذلى ذكرها فى مطالع جميع قصائده التى رويت له ، منها هذا المطلع :

أزهير هل عن شيبة من معدل
أم لاسبيل إلى الشباب الأول

وقوله

أزهير هل عن شيبة من مقصر
أم لاسبيل إلى الشباب المدبر

وقوله :

أزهير هل عن شيبة من مصرف
أم لا خلود لباذل متكلف

بالإضافة إلى ذكرها فى أثناء شعره كقوله :

أزهير إن يصبح أبوك مقصِّرا
طفلاً ينوءُ إذا مشى للكاكل

وفى اللسان : « وزهيرة ابنته » فيصح ضبط الراءِ فيها بالضم والفتح على اللغتين .

وكلمة « لبازل » خطأ ، صوابها « لباذل » بالذال المعجمة ، كما فى المخطوطة وديوان الهذليين ٢ : ١١١ وشرح السكرى ١٠٩٠ ومقاييس اللغة (عكم) .

والباذل : الذى يبذل ماله ، يعطيه للناس ويجود به ، فكأنه يبتذله ولا يصونه .

يقول : ليس للباذل خلود كما ليس للبخيل خلود .

١٠٠٧ – (علم) ص٣١٥ س ٢٠ وبيروت ٤٢١ قوله : « والعُلام : الباشِق » وضبط « الباشق » بكسر الشين ضبط عشوائى مساوقة للمألوف من الأوزان وإنما هو « الباشق » بفتح الشين لاغير ، كما فى اللسان والقاموس (بشق) . قال صاحب اللسان : « اسم طائر ، أعجمى معرب » .وقال صاحب القاموس : « وكهاجر : طائر ، معرب باشه » وكذلك فى معجم استنبجاس ١٤٧ مادة (باشا) وذكر أنه نوع من الصقور كما يطلق على الصقر .

١٠٠٨ – (علكم) ٣١٧ س ١٩ وبيروت ٤٢٣ والمخطوطة ، قول لبيد :

بكرتْ بها جُرشيّةٌ مقطورةٌ
تُروِى المحاجر بازلٌ علكومُ

والصواب « بكرت به » كما فى ديوان لبيد ١٢٢ واللسان نفسه (حجر ،قطر) والضمير فى « به » عائد إلى « غرْب » فى بيت قبله ، وهو :

فصرفت قصرًا ، والشئون كأنها
غَربٌ تحثُّ به القَلوصُ هزيمُ

قصرًا ، أى عشيًّا . أى صرفت ناقتى فى هذا الوقت وعدلتُها . والشئون : مجارى الدمع . والغرب : الدلو العظيم . تحثُّ به : تسرع . هزيم : متشقِّق . يقول بكرت تلك القلوص بذلك الغرب تنتزعه من البئر لاستخراج الماء . وفى اللسان (حجر ٢٤١) نقلاً عن ابن برى : « والهاء فى « به » تعود على غرب تقدم ذكرها » .

١٠٠٩ – (عمم) ٣٢٠ س ٤ وبيروت ٤٢٥ والمخطوطة كذلك ، قول العجاج :

* وفيهم إذ عُمِّم المعمَّمُ *

وصوابه « المعتَمُّ » كما فى ديوان العجاج ٤٢٤ والمقاييس ٤ : ١٧ .

والشطر من أرجوزة هى من مشطور السريع لامن مشطور الرجز ، وأولها :

بل لو شهدتَ الناس إذ تُكمُّوا
بقدرٍ حُمَّ لهم وحُمُّوا

يذكر فيها قتل مسعود بن عمرو العتكى .

١٠١٠ - (غذم) ٣٣٠ س ١٦ وبيروت ٤٣٥ فى تفسير قول شُقْران مولى سلامان :

ثقال الجفانِ والحلوم رحاهمُ
رحى الماءِ يكتالون كيلا غذمذما

فسّر كلمة « غذمذما » بقوله : « يعنى جزافاً » . بالزاى . والجزاف : بيعك الشىء واشتراؤُكه بلاوزن ولا كيل . وهذا لا يستقيم مع ذكر كلمة « كيلا » فى البيت ، فكيف يتسق الكيل مع عدم الكيل . فالصواب « جرافاً » بالراء المهملة كما هو فى المخطوطة ومقاييس اللغة ٤ : ٢٥٨ . وفى المقاييس فى تفسير الغذمذم : « قال الخليل : وهو الجراف » . والجراف بالض والكسر : ضرب من الكيل .

١٠١١ - (غشم) ٣٣٤ س ٨ وبيروت ٤٣٨ قول الشاعر :

قتلنا ناجيًا بقتيل عمرٍو
وجرَّ الطالب التِّرةَ الغَشُومُ

وموضع البيت فى المخطوطة مقطوع لايظهر منه شىء . ولليس للبيت على هذا الوجه معنى ظاهر . والذى فى المحتسب لابن جنى ٢ : ٨٠ وشرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ص ٣٦ :

* وخَير الطالبى التِّرةَ الغشومُ *

أتى به شاهدا على حذف نون الجمع فى اسم الفاعل الناصب لما بعده . كما فى قوله تعالى : « والمقيمى الصلاة » فى قراءة الحسن وابن أبى إسحاق ، كما رويت هذه القراءة عن أبى عمرو .

١٠١٢ - (غمم) ٣٣٩ س ٢٣ وبيروت ٤٤٣ والمخطوطة كذلك ، قول أوس يذكر ابنَه شُرَيحاً :

علَى حِينَ أن جدَّ الذَّكاءُ . وأدركَتْ
قَريحةُ حِسْىٍ من شُرَيح مُغَمِّم

يفخر بأن أحدًا من الشعراء لن يستطيع مجاراتَه فى الشعر بعد ما انتهت سنُّه واستحكم ، وبعد ما قال ابنه شريح الشعر عزيزًا لا ينقطع . والحسى المغمِّم بكسر الميم المشددة : الغامر المغطِّى . شبه شعر ابنه شريح بالماء الغامر لا ينقطع . فالصواب ضبط « مغمم » بكسر الميم المشددة ، كما هو ضبط اللسان . وفى القاموس : « وبحر مغمم كمحدث : كثير الماء » .

١٠١٣ - (فطم) ٣٥٢ س ٣ وبيروت ٤٥٤ والمخطوطة قول كعب بن زهير فى فى صفة ذئب :

وإن أغار فلم يحْلُو بطائلةٍ

فى ليلة من حميرٍ ساوَرَ الفُطُما

والصواب « فلم يَحْلَ » كما فى ديوان كعب ٢٢٦ . يقال ما حلِيَ منه بشيء ، أى لم يُصِب ولم يظفر . وقد أنشده ابن منظور فى (جمر) برواية « ولم يظفر ».

وفى البيت خطأ آخر ، وهو « فى ليلة من حمير » ، وماللحمير والليالى ؟ !

إنما هى : « فى ليلة ابن جَمِيرٍ » . وابن جَمِير . هلال الليلةِ التى يستسرُّ فيها القمر ولا يظهر . وهما ليلتان يقال لهما ابنا جمير ، يختفى فيهما القمر . يقول : إذا لم يصب هذا الذئب فى تلك الليلة شاة ضخمة واثَبَ هذه الفطُم من الشاء .

١٠١٤ – (نغم) ٣٥٤ س ١٧ وبيروت ٤٥٦ والمخطوطة كذلك ، قول هدبة بن خشرم :

والله لا يشفى الفؤَاد الهائما

تماحُكُ اللَّبَّاتِ والمآ كما

ووردت « تماحك » فى المخطوطة مهملة الضبط . وكلاهما خطأ ، صوابه : « تمساحُكَ » كما فى الأغانى ٢١ : ١٧١ والخزانة ٤ : ٨٥ والشعر والشعراء ٦٧٢ . والتَّمساح ، بالفتح : تفعال من المسح ، وهو إمرار اليَد على الشيء . والرواية فى نوادرالمخطوطات ٢ : ٢٥٦ : «تماسُكك » .

١٠١٥ – (فوم) ٣٥٨ س ٢ وبيروت ٤٦٠ والمخطوطة أيضاً : « وأزد الشراة يسمُّون السُّنبل فُوما » . والصواب : « أزد السَّراة » بالسين المهملة المفتوحة ، وهى جبال مطلة على تهامة

ويقال أزد شَنُوءة ، وأزد عُمان ، وأزد السَّراة ، تسميةً بمواضعهم وبلادهم التى يحتلُّونها . وأزد شَنوءَةَ أصح الأَزد أصلا وفرعاً . انظر اللسان (أزد ، شنأ) . وفى معجم البلدان : شنوءة : مخلاف باليمن تنسب إليه قبائل من الأزد ، وفيهم يقول النجاشى الشاعر :

وكنتُ كذى رِجْلين رجل صحيحة

ورجل بها ريبٌ من الحدثان

فأَمَّا التى صحَّت فأزد شنوءة

وأما التى شلَّت فأزدُ عُمان

١٠١٦ – (قتم) ٣٥٩ س ٨ وبيروت ٤٦١ وكذلك المخطوطة ، قوله :

« كما انقضَّ باز أقتم اللون كاسرُ »

والبيت معروف للمرزوق من قصيدة موصولة الروى بالهاء كما يقول العروضيون وهى فى ديوانه ٢٥٥ مطلعها :

ألا من لِشَوقٍ أنت بالليل ذاكره
وإنسانُ عينى ما يغمِّض عاثره

فصواب الرواية «كاسِرُه» كما فى الديوان وتهذيب اللغة ٩ : ٦٦ . وصدره فى الديوان ٢٦١ :

* هما دلَّتانى من ثمانينَ قامةً *

١٠١٧ ـ (قدم) ٣٦٧ س ١٧ وبيروت ٤٦٨ والمخطوطة أيضاً ، قول الراجز :

إنْ نَطق القومُ فأنت صُيَّاب
أو سكتَ القومُ فأنتَ قبْقَاب

والصُّيَّاب : الخيار والخالص من كل شيء . وهو إنما يهجو الرجل فأنَّى له المدح . وصواب الرواية : « فأنت خيَّاب » ، كما فى اللسان (خيب) ومجالس ثعلب ٦٦٢ . ورواية المجالس للشطر مقروناً بشطر آخر :

اسكت ولا تنطق فأنت خيّاب
كلُّك ذو عيب وأنت عيَّابْ

وفى اللسان (خيب) : « يجوز أن يكون فَعَّالًا من الخيبة ، ويجوز أن يعنى به أنه مثل هذا القدَّاح الذى لا يُورى ». وهو أحد تفسيرى الخياب ، يقال للقَّداح وهو حجر القدح ، إذا لم يُورِ أى لم يخرج ناراً . ويقال لهذا الحجر أيضاً قدّاحة بالتأنيث .

١٠١٨ ـ (قدم) ٣٦٨ س ٢ وبيروت ٤٦٩ : « وامتشطت المرأة المُقدِّمة بكسر الدال لا غير ، وهو ضرب من الامتشاط » فلو كان تشديد الدال مقصوداً لنص عليه . والوجه «المقْدِمة» بسكون القاف وكسر الدال فقط ، كما فى المخطوطة والتهذيب ٩ : ٤٧ .

١٠١٩ ـ (قسم) ٣٨٠ س ٢٣ وبيروت ٤٨٠ قوله :

تُقسِّم ما فيها فإن هى قسَّمَتْ
فَذاكَ وإنْ أكْرتْ فعَنْ أهْلها تُكْرِى

وكذا وردت « تقسّم » فى التهذيب ١٠ : ٣٤٣ والأضداد لابن الأنبارى ٨٢ وفى المخطوطة «يقسم» وتصحُّ إن قرئت بالبناء للمفعول ، وكذا وردت روايته بالياء فى اللسان (كرا ٨٦) . والذى فى شرح المرزوقى للحماسة ١٦٥١ « نقسِّم » بالنون ، كما فى إصلاح المنطق ٢٤٣

والأضداد لابن السكيت ١٨٢ .

وأراه الوجه فى الرواية . وفى ديوان الأعشين ٢٩٩ نسبتُه إلى الأسود ابن يعفر ، وهو أعشى نهشل .

والبيت فى صفة قدر الطعام .قَسَّمَتْ عمّت فى القَسْم وأجزأت. وأكرتْ : نقَصتَ والضمير للقدر .

١٠٢٠ـ٣٨٧ س١٩ وبيروت ٤٨٦ والمخطوطة ، قول الراجز :

باتَتْ تعشّى الليل بالقصيم
لَبابة من هَمِقٍ عَيْشُوم

وصوابها « لبابة » كما فى اللسان نفسه (لبى) . وقد سبق التنبيه على ذلك فى التحقيق رقم ٧٤٨

١٠٢١ ـ (قطم) ٣٩٠ س ٢٣ وبيروت ٤٢٩ والمخطوطة أيضاً ، قول أبى وجْزة :

وخائف لحِمٍ شاكًا براشَتُه
كأنه قاطم وَقفَين من عاج

وصواب « لحِمًا » بالنصب ، كما فى التهذيب ٩ : ١٤ والمعانى الكبير ٢٨٥ . وفى أساس البلاغة بلفظ «أوخائف لحماً» واللحم : الشديد الشهوة للحم ، صفة للصقور والبزاة ونحوها .

وأما « براشَتُه » فصوابُها « براثِنه » كما فى التهذيب ، والمعانى الكبير ، والأساس. وبذلك صححت فى طبعة بيروت.

والبراثن : جمع برثن ، وهو المخلب .

والبيت فى صفة البازى كما ذكر ابن قتيبة . والوقف : السِّوار . شبّه حدبتىْ منقاره بالوقفين من العاج فى لونِهما وتقوُّسهما .

١٠٢٢ ـ (قلم) ٣٩٢ س ١٧ وبيروت ٤٩١ والمخطوطة :

لمّا أتيتم فلم تَنْجُوا بمَظلِمة
قِيسَ القُلامةِ مما جزَّه القلمُ

ويروى أيضاً « الجلَم » كما فى اللسان والتهذيب (جلم) ، فليست القلم خطأً كما يُظَنّ ، قال الأزهرى : « وكلٌّ يروى » ، أى بالقاف وبالجيم .

وضبطت « أتيتم » فى التهذيب ١١ : ١٠١ « أُتِيتُم » بالبناء للمفعول ، وأراه الوجه .

١٠٢٣ ـ (قلزم) ٣٩٣ س ٢٣ وبيروت ٤٩٢ والمخطوطة ، قول الشاعر :

ولا ذى قلازم عند الحِياض ا
إذا ما الشريبُ أراد الشَّريبا

وصوابه « أراب الثُّريبا » كما فى البيان للجاحظ ١ : ٥٧ ، أى حدث بينهما ما يستوجب الريبة .

والقلارم . كما ذكر الجاحظ فى البيان هى كثرة الصياح . ولم يعرف صاحب المحكم هذا التفسير .

١٠٢٤ – (فوم) ٤٠٠ س ١٩ وبيروت ٤٩٨ والمخطوطة كذلك . فى تفسير قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا اللهُ ثم استقامُوا » ، وهى الآية ٣٠ من سورة فصلت و ١٣ من الأحقاف . جاء : « وقال الأَسود بن مالك : ثم استقاموا ولم يشركوا به شيئاً . وقال قتادة استقاموا على طاعة الله » .

وهذا النص مقتبس من التهذيب ٩ : ٣٥٨ وصوابه « الأَسود بن هلال . والأَسود بن هلال هذا له إدراك . ذكره ابن حجر فى الإصابة ٤٥٦ . وكان الأَسود جاهليا ، وأدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، وله ذكر فى تاريخ البخارى . وقال ابن سعد : مات زمن الحجاج . وذكره ابن حجر أيضا فى تهذيب التهذيب ١ : ٣٤٢ وقال : روى عن معاذ بن جبل ، وعُمر ، وابن مسعود ، والمغيرة ، وأبى هريرة . وروى عنه أشعث بن أبى الشعثاء ، وأبو حصين ، وأبو إسحاق السبيعى ، وإبراهيم النخعى وغيرهم .

١٠٢٥ – (فوم) ٤٠٠ س ٢١ وبيروت ٤٩٨ والمخطوطة أيضا : قول كعب بن زهير :

فهُمْ صرفُوكم حين جرتم عنِ الهُدى
بأَسيافِهِم حتَّى استقَمْتُمْ علىالقِيَمْ

أى الاستقامة . وصوابه « حين جرتم » بالجيم ، أى عدلتم عنه ، كما فى ديوان كعب بن زهير ٦٧ وكما هو فى تهذيب اللغة ٩ : ٣٥٨

وورد على هذا الصواب فى مادة (قوم) من اللسان ص ٤٠٦

ولايقال جاز عن الهدى . وإنما يقال جار الرجل عن الطريق . كما يقال عدل عن القصد . وانظر اللسان وأساس البلاغة (جور) .

١٠٢٦ – (قوم) ٤٠١ س ٢٤ وبيروت ٤٩٩ قول لبيد :

أَفَتلكَ أَم وحشيَّةٌ مَسبوعةٌ
خذِلت وهادية الصِّوار قِوامُها

ولم تضبط كلمة « خذلت » فى المخطوطة ، ووجه ضبطها « خَذَلَتْ » بالبناء للفاعل لا المفعول ، كما هو ضبط الديوان ٣٠٧ والمعلقات بشروحها لابن الأنبارى وابن النحاس والزوزنى والتبريزى.

قال ابن الأنبارى : خذلت : تأخرت عن القطيع ، ومثله خدَرت . يريد خذلت أصحابَها من الوحش وأقامت على ولدها تَرعى قرُبه .

وقال ابن النحاس : خَذلت : تخلَّفت عن صواحبها .

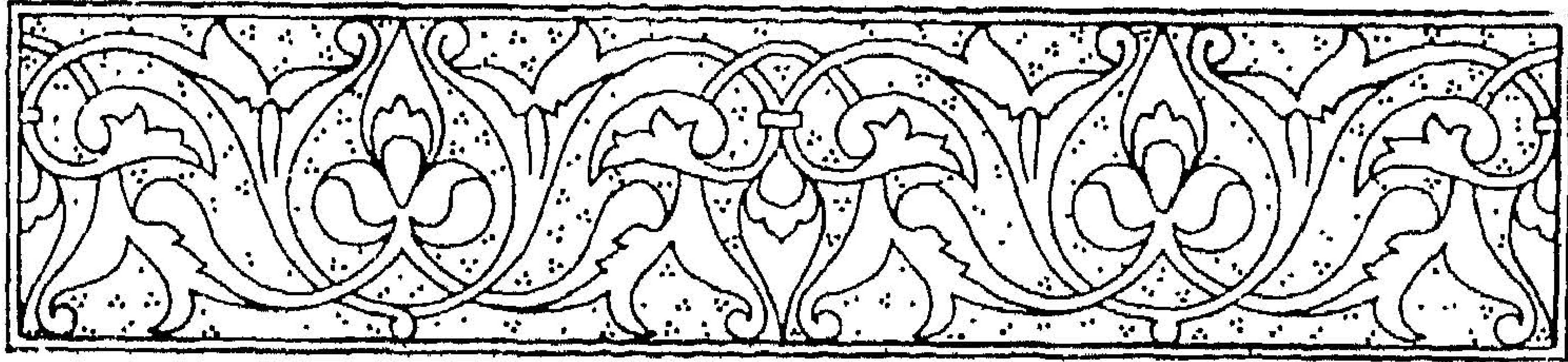
وقال الزوزنى : خذلت ولدها وذهبت ترعى مع صواحبها .

وقال التبريزى : تأخّرت عن القطيع وأقامت على ولدها .

وفى اللسان : خذلت الظبية والبقرة وغيرهما من الدواب ، وهى خاذل وخذول تخلفت عن صواحبها وانفردت . وفى التهذيب : الخاذل والخذول من الظباء والبقر : التى تخذل صواحباتها وتنفرد مع ولدها .

فضبط الكلمة بالبناء للمفعول من صنيع ناشرى اللسان لا من خطإ ابن منظور .

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع



طُرَفٌ
من الأدب واللغة
للدكتور احمد عمار
— ٤ —

أحبُّ العربَ لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنَّة فى الجنَّة عربى .

(حديث شريف)

* * *

أنا دعوةُ أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى .

(حديث شريف)

* * *

تَعَلَّمُوا اللغة فإنها من دِينكم .

(عمر بن الخطاب)

* * *

دخل على الخليل بن أحمد بعضُ إخوانه ، وهو على نُمْرُقةٍ صغيرة ، فرحَّب به ، وأجلسه معه عليها ، فقال : إنها لاتتسع لنا . فقال له الخليل : ما تضايق سمُّ الخياط لمُحبَّيْن . ولا اتَّسعت الدنيا لمتباغضَيْن .

وقال الشاعر فى ذلك :

صَيِّرْ فؤادك للمحبوب منزلة
سمُّ الخياط مجالٌ للحبيبيْن
ولا تسامِحْ بغيضًا فى معاشرة
فقلَّما تَسَعُ الدنيا بغيضيْن

* * *

حرِّقْ سِوى قلبى ودَعْه .. فإننى
أخشى عليك .. وأنت فى سوْدائِهِ

(التهامى)

* * *

أذْكَيْت فى قلبى بنأْيك لوعةً
حتى خَشِيتُ على محلِّكَ فيه

(ابن حزم)

إنْ يأْخذ اللهُ من عينى نورَهما
فنِى لسانى وسمعى منهما نور
قلبٌ ذكىٌّ وعقل غير ذى خطل
وفى فمى صارم كالسيف مأْثورُ
(أبو العيناء)

* * *

نارُ الرَّويَّةِ نار جِد منضجة
وللبديهة نارٌ ذاتُ تلويح
وقد يُفَضِّلْها قومٌ لسرعتها
لكنها سرعةٌ تمضِى مع الريح
(ابن الرومى)

* * *

وكُنْ فى الطريق عفيف الخطا
شريف السماع ، كريم النَّظَرْ
وكن رجلًا إن أتوا بعده.
يقولون : مرَّ .. وهذا الأَثَرْ
(شوقى)

* * *

ما جاء من المصادر على وزن « مَفْعُول » :
المَيْسُور ، والمَعْسُور ، والمَعْقُول ،
والمَجلود ، والمَحلوف .

(حلفتُ محلوفة ، أى أقسمت قسما ،
وحلفتُ محلوفًا ، أى حلفًا) .
(اللسان)

* * *

مالَه هارب ولا قارب :
أى ماله بعير يصدر عن الماء ، ولا بعير يقْرُب الماء .
أو ليس له أحد يهرب منه ، ولا أحد يقرب منه ، أى ليس هو بشىءٍ .
(اللسان)

* * *

مرَّ عمر بن الخطاب بقوم يرمون السهام فلم يُصيبوا المرمى فقَرَّعهم ، فقالوا : نحن قوم متعلِّمين . فقال : والله لخطؤكم فى لسانكم أشد علىَّ من خطئكم فى رميكم ! !

* * *

ذكر المغيرة بن شعبة عمرَ بنَ الخطاب فقال : كان والله أفضل من أن يخدَع ، وأعقل من أن يُخْدَع .

* * *

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا
من نفسه وحدها فى جحفل لجب
(أبو تمام يمدح المعتصم)

* * *

لكلِّ شئ إذا ما تَمَّ نُقْصانْ
فلا يُغَرُّ بطيب العيشِ إنسان
هى الأُمورُ كما شاهدتها دُولٌ
مَنْ سَرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقى على أحد
ولا يدُومُ على حال لها شانُ

(أبو الطيب الرُّنْدى صاحب المرثية الأَندلسية الشهيرة)

* * *

إِبذلْ لصديقك دمَك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحنُّنك ولعدوِّك عدلك وإنصافك ، واضْنُنْ بدينك وعرضك على كل أَحد .

(عبد الله بن المقفع)

* * *

مَنْ أَثْنَى على نفسه فقد أَظْهَرَ حُمْقَه .

* * *

المتمسك بالغرور كالمقتبس من ضوء البرق الخاطف .

* * *

إذا سُئِل غيرك فلا تجب ، فإِن ذلك استخفاف بالسائل والمسؤول .

* * *

أَبَى لِى إغضاءُ الجفون على القَذَى
يقينىَ أَلَّا عُسْرَ إِلَّا سيُفْرَج
أَلَا ربما ضاق الفضاءُ باهله
وأَمكن من بين الأَسِنَّةِ مخرج
(محمد بن وُهيب)

* * *

كان عبد الله بن عمر يقول لبعض أَبنائه حين يُولِمون الأَغنياء
« تدْعُون الشِّباع ، وتَدعون الجياع » !!

* *

قال بعض الأُدباء
كنتُ بمجلس بعض الأُمراء فى بغداد ، وبين يديه طبق به لوز ، فدخل عليه أَحد الظرفاء ، فقال : أَيها الأَمير ، ما هذا ؟ فرمى إليه بواحدة . فقال : ثانى اثنين ، فرمى إليه بثانية ، فقال : فعزَّزْنا بثالث

فأعطاه ثالثة ، فقال : فخذْ أَربعة من الطير ، فألقى إليه رابعة ، فقال : خمسة سادسهم كلبهم . فدفع إليه خامسة . فقال : فى ستة أيام ، فجعلها ستة ، فقال : سبع سماوات طباقا ، فصيَّرها سبعًا . فقال : ثمانية أزواج، فرمى إليه الثامنة . فقال : وكان فى المدينة تسعة رهط ، فرمى إليه بالتاسعة ، فقال : تلك عشرة كاملة ، فأكملها بعاشرة ، فقال : أحد عشر كوكبا ، فأعطاه الحادية عشرة . فقال : إن عِدَّةَ الشهور اثنا عشر شهرًا ، فأكمل له الثنَى عشرة . فقال : إن يكن منكم عشرون صابرون ، فدفع إليه العشرين. فقال : يغلبوا مئتين ، فأمر برفع الطبق إليه ،وقال : كُلْ ، قاتلك الله ولا أشبع بطنَك !! . فقال الرجل : والله لو لم نفعل ذلك لقرأتُ لك : وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون .

* * *

الكون العام :

يرى جمهرة النحاة أن حذف الكون العام واجب ، ويرى ابن جنّى وابن مالك أن حذفه هو الأَغلب . ويرى مجمع اللغة العربية بالقاهرة إجازة ظهور الكون العام دفعًا للبس ، وإيضاحًا للمعنى . ومن أمثلة ظهورالكون العام قوله تعالى : « فلما رآه مستقرًّا عنده » .

وقول الشاعر :

لك العِزُّ إنْ مولاك عزَّ ، وإن يَهُنْ
فأَنت لَدَى بُحْبُوحةِ الهُونِ كائنُ

* * *

التفّاطير (والنفاطير) والشعاشيب ، والتعاجيب ، وتباشير الصبح . جُموعٌ لا واحد لها .

والتفاطير : أول نبات الوسْمِىّ ؛ وهو أول مطر الربيع .

وبثْرٌ يخرج فى وجه الغلام والفتاة .

يقال : تفاطير النبات ، وتفاطير الشباب ، وتعاشيب الأَرض ، وتعاجيب الدهر ، وتباشير الصبح .

* * *

هُوَّ وهِىَّ :

همدان يُشَدِّدون الواو والياء ،

قال الشاعر :

وإنَّ لسانى شُهْدةٌ يُشْتَفَى بها

وهُوَّ على من صبَّهُ اللهُ علقمُ

وقال آخر :

والنفسُ ما أُمِـرتْ بالعنف آبية

وهِيَّ إن أُمِـرتْ باللطف تأْتَمِرُ

وروى الكسائى عن بنى أسد وتميم وقيس :

« هُوْ فَعَل ذلك » بإسكان الواو .

* * *

إذا عنِيتُ لشأْو قلتُ إنِّىَ قـد

أدركته .. أدركتْنى حرفةُ الأدب

(أبو تمام)

* * *

أغربُ الغُرباءِ منْ صار غريبًا فى وطنه !!

(أبو حيان التوحيدى)

* * *

« أنتم إلى أمير فَعَّال أحوجُ منكم إلى أمير قَوَّال » .

قالها عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقد أُرْتِجَ عليه لما أراد الخطابة بعد مبايعته بالخلافة .

أمَّا ثابت بن قطنة فقد ولَّاه المهلَّب بن أبى صُفرة (والى خُراسان) بعض كور خراسان ، فصعد المنبر يوم الجمعة ، ورام الكلام فتعذَّر عليه وحصر ، فنزل وهو يقول :

فإنْ لم أكن فيكم خطيبًا فإنَّنى

بسيفى إذا جَدَّ الوَغَى لَخطِيبُ

فقيل له : لو قلتَ هذا البيتَ على المنبر لكنتَ أخطبَ الناس !!

* * *

يارب عفوك .. إننى فى معشر

لا أبتغى منهم سواك ملاذا

هذا يُنافق ذا ، وذا يغتاب ذا

ويسبُّ هذا ذا ، ويشتم ذا ذا

(محمد الفروخى)

* * *

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفُها ربِّى نَسْفا » .

كل ما جاء فى القرآن الكريم — « ويسألونك » أو « يسألونك » جاء

بعده « قلْ » بغير فاء ، إلا فى هذه الآية لأنها كانت أسئلة تقدّمت ، سألوا عنها النبي – صلى الله عليه وسلم – فجاء الجواب بغير فاءٍ .

ولكن هذا السؤال عن الجبال لم يسألوه عنه بعد ، والمعنى هنا : إن سألوك عن الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط

(تفسير القرطبي)

* * *

يقال : « مرْحى » لمن أصاب ، و « برْحى » لمن أخطأ

* *

مَنْ ترك قول : « لا أدْرى » أصيبَتْ مقاتله .

(الإمام مالك)

* * *

اسْتَحِ من الله أن تسأل ما تُحب وأنت تأْتى ما يكره .

* * *

كان لأبي الأسود الدُّؤلى دارٌ بالبصرة ، وكان له جار لا يكفُّ عن أذاه ، فلم يجد أبو الأسود علاجا خيرا من أن يبيع داره ويستبدل بها دارًا أُخرى ، فقيل له : أبعتَ دارك يا أبا الأسود ؟ فقال : بل بعت جارى !

فأرسلها مثَلا

* * *

« ما استغنى مستبدٌّ برأْيه ، وما هلك أحد من مشورة » .

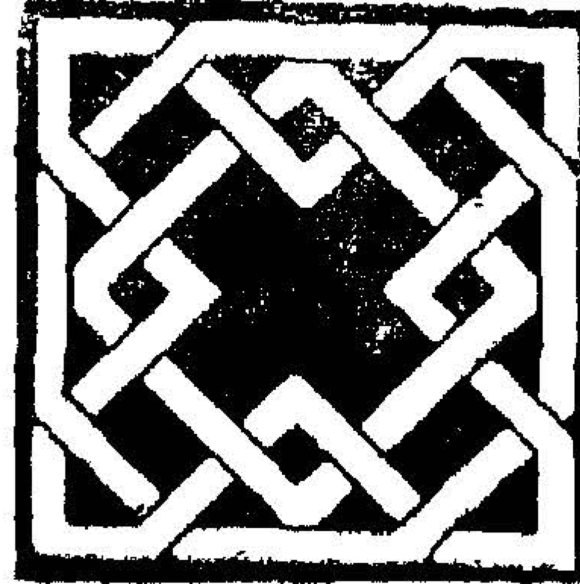
(حديث شريف)

« ما تشاورَ قومٌ قَطُّ إلَّا هُدُوا لأَرشد أمرهم » .

(حديث شريف)

أحمد عمار

نائب رئيس المجمع



نحو تيسير النحو :

قول فى خبر كان

للأستاذ محمد شوقى أمين

١ — يعقد النحاة فى تنظيمهم للأحكام بابا يسمونه « كان وأخواتها » ، أو « الأفعال الناقصة » ، أو « الأفعال الناسخة » ؛ ويعنون بالنسخ فيها أنها تحدث تغييراً فى الجملة التى تدخل عليها ، فترفع الاسم وتنصب الخبر ، كما يعنون بنقصها أن كل فعل منها يدل على معنى ناقص لا يتم إلا بمنصوب — فليس شأنها كشأن الأفعال التامة التى يكمل معناها بالفاعل المرفوع بها . فالأمر كما يقول « الزمخشرى » فى « المفصل » : « ما لم يأخذ المنصوب مع المرفوع لم يكن كلاماً » .

٢ — ويسوق النحاة هذه الأفعال الناسخة أو الناقصة ، فى باب « **كان وأخواتها** » فيبلغون بها **ثلاثة عشر** ، ويجعلونها أنواعاً ثلاثة : النوع **الأول** : الأفعال المطلقة . وهى كان — أمسى — أصبح — أضحى — ظل — بات — صار — ليس . والنوع **الثانى : الأفعال التالية لنفى أو شبهه ، وهى : زال — برح — فتىء — انفك**

والنوع الثالث : ما هو صلة لما الوقتية وهو الفعل : دام .

ويذكر النحاة أن « كان » تجىء ناقصة ، لا تدل على حدث ، بل تفيد الزمان مجرداً ، فتدخل على المبتدأ والخبر لإفادة زمان الخبر ، أى اتصاف الاسم بالخبر فى الماضى . وأنها تجىء تامة أيضاً بمعنى وقع ، ووُجد .

وكذلك يذكرون أن « صار » معناها : الانتقال والتحول ، وقد تكون بمعنى جاء : وتتعدى بحرف الجر . فيقال : صار زيد إلى عمرو .

أما أصبح وأمسى وأضحى ، فلها معان ثلاثة : إفادة زمانها فى الخبر ، وأن تكون تامة لا تحتاج إلى منصوب ، وأن تكون بمعنى صار .

وأما ظل وبات فلهما معنيان : اقتران مضمون الجملة بالوقتين ، وأن يكون كل منهما بمعنى صار .

وأما التي في أولها حرف النفي : مازال وفتئ وبرح وانفك، فتفيد استمرار الفعل. ومعناها الإثبات ، كما يتبين من قولك مثلا : مازال نائماً ، فمعناه عدم زوال الشخص عن النوم .

وتفيد « مادام » ترقيت الفعل ، لأن ما هنا مصدرية ، ومعنى : « مادمت عليه قائما » أى مدة قيامك عليه .

وتفيد « ليس » نفي مضمون الجملة في الحال ، فلا تقول : ليس زيد مسافراً غداً ، وإن أجازه بعضهم .

٣ — ومع أن النحاة أكثرهم يعبرون عن المرفوع بعد كان وأخواتها بأنه اسمها فإنهم لا يفوتهم معنى الفاعلية في هذا الاسم . وقد عبر عن ذلك « ابن هشام »، أوضح تعبير في قوله في « شرح الشذور » : « إنهن يدخلن على المبتدأ والخبر ، فيرفعن المبتدأ ويسمى اسمهن حقيقة ، وفاعلهن مجازاً ، وينصبن الخبر ويسمى خبرهن حقيقة ومفعولهن مجازاً » . ولم يكن « ابن هشام » بدعاً في هذا ، فقد سبقه إلى الإشارة إلى معنى الفاعلية نحاة أثبات ، نذكر منهم « سيبويه » وتناقل بعده هـذه المقولة من تناقلوها من أصحاب الشروح والحواشي في المصنفات النحوية . ولكن التعبير بالفاعلية وإن برز في مفاهيم النحاة لم يبرز فيما استقرت عليه القواعد ، وأصبح التعبير بالاسمية والخبرية هو السائد .

٤ — ولكن من النحاة من لاحظ أن هناك أفعالا أخرى لها مثل المعنى الذي في « صار » ، فلم تجدوا بداً من القول بإلحاقها بها . وبذلك نمت أسرة « صار » ، حتى صار لها هي الأخرى أخوات . وكأنما أصبح الباب بابين : باب كان وأخواتها . وباب صار وأخواتها !

يسرد « الأشمونى » في شرح الخلاصة أن هناك عشرة أفعال بمعنى صار ، وهي :

آض — رجع — عاد — استحال — قعد — حار — ارتد — تحول — غدا — راح .

وفي حاشية « الخضرى » نظم هذه الأفعال في بيتين ، هما :

بمعنى صار في الأفعال عشر
تحول آض عاد ارجع لتغنم
وراح غدا استحال ارتد فاقعد
وحار ،فهاكها والله أعلم

ولم يقنع بعض النحاة بهذا العدد العشرى ، ورأوا أن أسرة « صار » أنمى عدداً مما أحصاه « الخضرى » وغيره ، نقلا عن متقدمى النحاة ، فأضافوا ستة إلى العشرة ، وقد نظمها « المختار بن بون » في قوله :

كصار آض راح قعدا
تحول استحال وارتدغدا
وعاد آل ثم حاء رجعاً
ونى ورام مثل زال وقعا

بل إن من النحاة من ذكر استعمال « كان » — وهي أم الباب — بمعنى « صار » وأثبتوا مثالها في أفصح الكلام .

ونحن نستطيع أن نلتقط أختا جديدة لصار ، وهى بمعنى غدا ، ورديفة لها . تلك هى الفعل « بكر » ومنه قول الشاعر :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

ولو أننا فرغنا للبحث لجئنا بمرادفات كثيرة من أفعال جاءت بمعنى « صار » ، واستعملت استعمالها فى دلالتها دون تفرقة ، وبهذا تصبح « صار » صاحبة الغلبة والسلطان ، ويحق لها أن تكون فى هذا الباب صاحبة العنوان !

٥ – ولابد لنا من وقفة قصيرة عند مؤلف معاصر هو الأستاذ الدكتور « محمد عيد » فى كتابه « النحو المصفى » ، إذ يقول : « وردت أفعال أخرى غير الأفعال السابقة التى هى أصل الباب بمعنى الفعل صار أيضاً ، عن طريق التضمين ، وهى كما أوردها الأشمونى عشرة أفعال . وهذه الأفعال الأخيرة ليست موضوعة أصلا لتكون من النواسخ ، وإنما تصير ناسخة إذا ورد استعمالها بمعنى الفعل صار ، أى أنها حين تتضمن معنى هذا الفعل ينسخ فيها حكم المبتدأ والخبر ، فيرفع الأول وينصب الثانى » . والمؤلف قبل ذلك يقرر ما يأتى : « أن الأفعال الخمسة : (كان – أمسى – أصبح – أضحى – ظل) تستعمل فى اللغة بمعنى صار ، أى أنها تفيد التحول والانتقال – وهذا الاستعمال يطلق عليه فى اللغة اسم « التضمين » ، ومعناه أن يتحول فعل له معنى خاص إلى معنى فعل آخر ، وحينئذ يأخذ حكمه . ومن ذلك قول القرآن : « وفتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً ... »

ومفاد هذا وذاك أن تلك الأفعال كلها تستعمل فيما وضعت له أصلا ، وفى معنى التحول والانتقال تضمينا ، وأنها فى حال تضمنها معنى « صار » تعتبر ناسخة ترفع الاسم وتنصب الخبر ، مع أن « صار » نفسها التى هى أم الباب فى معنى التحول والانتقال تستعمل غير ناسخة كذلك ، فيما يقرره النحاة ، ويستشهدون له بقوله تعالى : « إلى الله تصير الأمور » .

والحق أن التضمين يعطى دلالة جديدة للفعل ، أو اتساعاً فى الدلالة ، ولكن هذه الدلالة الجديدة أو التوسع فيها لا تدعو إلى توهم تركيب نحوى خاص متكلف كانت هذه الدلالة وما إليها هى السبب فى إنشائه أو توهم وجوده ، مادام المعنى يستقيم بغير حاجة إلى هذا التوهم المتكلف ، ومادامت الحركة الإعرابية فى مساق الجملة باقية على حالها فى الاسمين ، فالأول مرفوع على أنه مبتدأ أو على أنه فاعل ، والآخر منصوب على أنه خبر أو على أنه حال !

٦ – هل غفل النحاة عن أن هناك تكلفاً واضحاً فى تصور أن مثل « أصبح محمد عالماً » جملة أصلها « محمد عالم » دخلت

عاملها « أصبح » لتفيد اتصاف الاسم بالخبر في زمن مضى . وأن مثل هذا التصور يصدق على جمل مكونة من فعل وفاعل وحال ، أو على جمل كثيرة ليست أفعالها من النواسخ المعدودة ، فإذا قلنا . أكل محمد واقفاً وحضر محمد راكباً، فالمعنى اتصاف محمد بالوقوف في زمن أكله ، واتصافه بالركوب في وقت حضوره ، ونحن في مثل هاتين الجملتين نجرى الإعراب على غير ما نجريه في الجمل التي ترد فيها كان وأخواتها . » .

من النحاة من لم يغفلوا عن ذلك كله ، وقد سجلوا رأيهم ، ولكنه لم يأخذ من الشهرة والذيوع القدر الكافي ، ولم ينل حظه من قبول جمهرة النحاة ، وذلك لأسباب تحتاج إلى بحث ودرس واستخلاص .

يحدثنا « الأنباري » و« العكبري » وغيرهما بمسائل الخلاف بين نحاة البصرة والكوفة ، فيسوقون من المسائل هذه المسألة . إذ يقول البصريون إن المنصوب في باب كان خبرها ، ويقول الكوفيون إنه حال .

وقد نبه إلى هذا المذهب الكوفي بعض المؤلفين في النحو من المعاصرين ، وفي مقدمتهم « محمد الطنطاوي » صاحب كتاب « نشأة النحو » ، ومن الباحثين المعاصرين من ارتضاه ونادى بتطبيقه ، ونذكر من بينهم الدكتور « محمد كامل حسين » ؛ في رسالة « النحو المعقول » ، إذ يقول :

« عند وجود الفعل في الجملة يكون هو الخبر المتعلق بالمتحدث عنه ، وعلى ذلك لا يكون هناك ما يدعو إلى إفراد باب لكان وأخواتها — واسم كان يرفع لأنه متحدث عنه ، أما خبرها فمنصوب لأنه تكملة ، ولا يكون هناك فرق إعرابي بين جاء محمد راكباً ، وكان محمد راكباً » :

٧ — وبين الباحثين المعاصرين من تصدى لذلك الرأي ، وهو الدكتور « عبد الرحمن أيوب » ، في محاضراته : « العربية ولهجاتها » فهو يعترف بأن هناك تشابهاً بين « ضرب محمد علياً » - و « كان محمد قائماً » من حيث الشكل ولكنه يقرر أن هناك فروقاً . وهو يتساءل « عما إذا كان ثمة مبرر لاعتبار المثال : كان محمد قائماً يختلف من وجهة النظر التركيبية عن المثال : ضرب محمد علياً ، فكل من المثالين مركب من كلمة لها كل المميزات الشكلية التي للفعل ، وبعدها كلمتان لهما كل مميزات الأسماء ، إحداهما مرفوعة والأخرى منصوبة . ولكن هناك فروقاً ، منها إمكان التجرد من الصيغة الفعلية (كان) في الأول مع بقاء كلام كامل ، دون إمكان ذلك بالنسبة للثاني . ومنها ضرورة التطابق في العدد والجنس بين الكلمتين التاليتين لكان ، ولا يتحتم ذلك بين الكلمتين التاليتين لضرب ... »

وليس بالمتعذر أن نناقش الدكتور « عبد الرحمن أيوب » في جملة ما أوضح من الفروق بين أفعال كان وأخواتها وغيرها من الأفعال الأخرى في الاستعمال . فإن في أمثلته نوعاً من التحكم ، وقوله إن الكلمتين التاليتين لكان تمتلان كلا ما تامادون سائر الأفعال غير النواسخ ،مردود عليه بأنك تقول مثلا : سافر محمد معتمرا ، وخرج محمد راكباً ، فهنا أيضاً يمكن التجرد من الصيغة الفعلية مع بقاء كلام كامل . وأماقوله بضرورة التطابق في العدد والجنس بين الكلمتين التاليتين لكان وأخواتهادون الكلمتين التاليتين لغيرهن من الأفعال ، فمردود عليه بأن التطابق غير محتوم ،فأنت تقول : أصبح الرجال يدا واحدة ، كما تقول : خرج الرجال يداً واحدة !

٨ ــ على أن « كان » نفسها ليس معناها إلا « وُجد » و « وقع » ، أي حدث ؛ واستعمال هذه الأفعال التي هي في معنى « كان » لا يتطلب ما يطلق عليه النحاة الاسم والخبر ، وإنما يعرب ما يلي تلك الأفعال بحسب ما يذكر . تقول : وُجد محمد ، ووقع الأمر ، وحدث القتال ، كما تقول وُجد محمد نائماً ،ووقع الأمر شديداً ، وحدث القتال عنيفاً . فيعرب محمد والأمر والقتال فواعل ، ويعرب نائماً وشديداًوعنيفاًأحوالا .

فلم لا يكون الإعراب كذلك في قولنا : كان محمد نائماً .وكان الأمر شديداً .وكان القتال عنيفاً ؟

٩ ــ يضاف إلى ذلك أن النحاة لاينكرون مجيء هذه الأفعال الناسخة تامة . ومعنى تمامها أن يكون ما بعدها فاعلا ؛ فإن جاء في الجملة تكملة فهي حال ؛ فمثلا : أصبح محمد ، وأصبح محمد مريضاً ، لافرق في الجملتين من حيث الوظيفة النحوية ، ولكن الفرق في دلالة « أصبح » اللغوية ، أو دلالتها البلاغية ، على الأصح ، لأن « أصبح » في الجملة الأولى تدل على أن محمداً دخل في الصباح ، وأما « أصبح » في الجملة الأخرى فتحتمل الدخول في الصباح فعلا ، وتحتمل معنى الصيرورة مجازاً . و « محمد » في كلتا الجملتين فاعل ، و « مريضاً » حال له ؛ سواء أكان المراد من « أصبح » معنى التحول والصيرورة ، أم كان المراد منه معنى الإصباح .

١٠ ــ هناك ــ بعد هذا كله ــ سؤال يجيب عن نفسه بنفسه :

ماذا يترتب على إيثار المذهب الكوفي من ناحية الإعراب ، أو من ناحية الدلالة ؟

هل تختلف النتيجة عن النتيجة التي ينتهي إليها الاستمساك بالمذهب البصري ؟

لاضير ولا اختلاف .

فالجملة هى الجملة العربية المأثورة ، لم تتعرض لتغيير أو تبديل فى التركيب ، ولم تفقد قليلا أو كثيراً من دلالتها المعنوية .

هذا إلى أن الحركة الإعرابية على كلا المذهبين ، هى الحركة الإعرابية عينها فى مأثور الكلام ؟

بقى سؤال واضح الجواب أيضاً :

ماذا نفيد من إيثار المذهب الكوفى ؟

الجواب أننا نختصر بابا طويلا عريضاً من أبواب النحو ، يعانى المتعلمون فى دراسته جهداً ، وينفقون فى استيعابه وقتاً .

وقصارى الرأى أن « كان وأخواتها » باب فى النحو ، يقال بإغلاقه ، ولا مانع من ذلك – على الأقل – فى كتب التعليم العام لغير المتخصصين ، وأما أهل الاختصاص فلهم أن يخوضوا فيه ، وأن يفقهوا فلسفته ، ويتبينوا ما تكشف عنه من دقائق الفروق ، فيتوقف فيها من يتوقف ، ويرضى عنها من يرضى .

محمد شوقى أمين

عضو مجمع اللغة العربية – القاهرة



قبيلتا: طسم وجديس
للأستاذ عبد الله بن خميس

قبيلتان من العرب البائدة، أكثرت مصادر التاريخ العربي من ذكرهما، وأفاضت في الحديث عنهما.. ولكنها كلها لا تجمع على قول فصل، ولا على حقيقة ثابتة لا يرقى إليها الشك، فيما أوردته عن هاتين القبيلتين من أخبار وآثار.. سوى أنهما إذا ذكرتا في العرب البائدة، وذكرت (اليمامة) موطناً لهما، وذكر الصراع الدامي والتفاني بينهما، وذكرت أخبار (زرقاء اليمامة) مع ذكرهما.. لكننا لا نجد أثارة من علم عن الكيفية التي سكنتا فيها (اليمامة)، ولا تفصيلاً عن سرد حكامهما ومسار تاريخهما حتى وصلتا إلى ما وصلتا إليه من حضارة، وفن، ورقي.. بل إن المصادر لتختلف في نسبهما، وتختلف في العصر الذي عاشتا فيه، وتختلف في الكيفية التي انتهى فيها دورهما في هذه المنطقة. بل لقد ورد في بعض هذه المصادر أنهما من نسج الخيال، وأنه لا حقيقة لهما أصلاً [1].

وقالوا عن نسبهما: طسم بن لاوذ بن إرم أو طسم بن لاوذ بن سام، أو طسم بن كاثر [2].

ومن جديس قالوا: إنهم حي من عاد، وإنهم إخوة طسم، أو إنهم من العرب، كانوا يصاهرون عاداً الأولى.. وقالوا: إنهم أبناء جديس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، أو أبناء جديس شقيق ثمود بن غاثر ابن إرم بن سام بن نوح [3].

---

(١) الأغاني (١/٠٣١)، اللسان (١٥/٢٥٦)، الأغاني (١٠/٤٥)، الطبري (١/٢٠٦) دار المعارف.

(٢) الطبري (١/٧٧١) طبعة أوربة، ابن خلدون (٢/٢٤) والأغاني (١٠/٤٨)، ابن الأثير (/١٣٩)، الطبري (١/٢٠٣) وما بعدها، دار المعارف.

(٣) اللسان (٦/٣٥)، الطبري (١/٧٧١)، ابن خلدون (٢/٢٤)، الأغاني (١٠/٤٨)، ابن الأثير (١/٤٨)، التبريزي على الحماسة (١/١٦٧)، اللسان (٧/٣٣٣).

وقالوا : إن للقبيلتين صلة بثمود ، ويرون أن جد هذه القبائل الثلاث واحد ، فيقولون: (ثمود) و (طسم) و (جديس) أبناء (إرم) بن (سام)[٤] ،

وأورد الهمداني قولا آخر ، نقله عن (زبور قديم) ، أن قبيلتي (طسم)و(جديس) من أبناء قحطان بن عابر[٥] :

ولا يستطيع الباحث أن يعول على قول من هذه الأقوال ، أو يرجحه على سواه . . فكلها ظنية ، وكلها يسقط به الاستدلال ، وسيظل البحث واقفاً أمام هذا الواقع إلى ما ربما أن يؤدى البحث الجاد في مواطن هاتين القبيلتين إلى كتابات أو نقوش تفصح لنا عن حقائق أو مرجحات . . وهذا غير بعيد ، فلقد عثر على نص يوناني في (صلخد) يرجع إلى سنة (٣٢٢) ميلادية ، مؤداه (أنعم طسم) [٦] . . فغير بعيدأن يدلنا التتبع — والاستقراء والتنقيب ومواصلة البحث على حقائق ظلت مجهولة قروناً خلف قرون .

أما مساكن (طسم) و (جديس) فأكثر ما اتفقت عليه المصادر عن تاريخ هاتين القبيلتين أنها (اليمامة) بمفهومها القديم ، أي (جبل العارض) الممتد من (الربع الخالي) جنوباً ، إلى رمال (الثويرات) شمالا بما يقدر طوله بألفي ميل ، وما اتصل بهذا الجبل غرباً وشرقاً من أقاليم وبلدان ، بما يقدر بخمسمائة ميل من الغرب إلى الشرق .

وقاعدة (طسم) من اليمامة (حجر) — الرياض الآن — ويسميها الهمداني : (حضور طسم) ، ويضيف إليها (الخضراء) ، فيقول :(خضراء حجر) قاعدة طسم ، و (الخضرمة) قاعدة جديس (الخرج الآن)[٧] .

ويبدو أن تكاثر هاتين القبيلتين ونموهما وقوة نفوذهما شمل أجزاء كثيرة من اليمامة إن لم يكن كلها ، كما تجاوزها إلى مناطق أخرى كـ (الأحساء) وما حولها ، وبها لهم حصن (المشقّر)، ومن مساكنهم (القُرَيَّة) التي أضيفت بعد إلى (بني سدوس) ، ثم سميت أخيراً (سدوسا) . . وامتد نفوذهم جنوباً إلى (الافلاج) قريبا من (الربع الخالي) ولهم : بهاحصون عظيمة وبُنُى وآثار حضارة وعمران سوف نتحدث عنها عند ذكر حضارة هاتين القبيلتين وعمرانهما . . وقد شمل ذلك كثيراً من مناطق(الأفلاج)كـ(الهدّار)و(ريمان)[٨]

(٤) الرياض عبر أطوار التاريخ (ص ٢٥) ، دار اليمامة .
(٥) الإكليل (١/١١٩) .
(٦) تاريخ العرب قبل الإسلام المفصل (١—٣٣٥) .
(٧) صفة جزيرة العرب (١٤٠) .
(٨) صفة جزيرة العرب (ص ١٤١) ، البلدان (٧ / ٦٥)، اللسان (٦ / ٩١)، البلدان (٨ / ١٠٠) .

كما أنه قد نزح من (جديس) طائفة بقيادة (الأسود بن غفار) إلى (جبلي طيئ) . بعد أن أباد خضراءهم (حسان بن تبع) ، فمكثوا بالجبلين إلى آن نزلت بهم (قبيلة طيئ) فأجلتهم من الجبلين ، ومن ثم أصبحت بلاداً لطيئ [9] .

وقد ذكر (الهمداني) أن من سكان (حجر اليمامة) القدامى : (الأقيون بن الحارث) من (قحطان) يساكنون (طسما) و (جديسا) بها [10] . وإلى ذلك أشار (امرؤ القيس بن حجر) يصف الدهر ، قال :

وألحق (آل أقيان) بـ (حجر)

ولم ينفعهم عدد ومال

وكما اختلف المؤرخون في نسب هاتين القبيلتين ، وفي كثير من جوانب حياتهما . . فكذلك اختلفوا في العصر الذي عاشت فيه هاتان القبيلتان . . والمرجح أن قوتهما وازدهارهما كانا في القرنين الثاني والثالث الميلاديين [11] .

وعلى الرغم مما يكتنف تاريخ (طسم) و (جديس) من غموض ، وما في نصوصه من اضطراب ؛ إلا أن جانباً مضيئاً منه يدل دلالة واضحة على ما لهاتين الأمتين من حضارة وما عاشته من رقي ومدنية . . ذلكم هو آثارها العمرانية التي بقي كثير منها إلى قريب من زمننا هذا ، والتي ما شهد قلب جزيرة العرب من عظمة في البناء ومخلفات في الأثر مثلما شهد من قوة وعظمة هاتين الأمتين .

فمن مدنهما الرئيسية (حجر) وخضراؤها - مدينة الرياض الآن - كانت قاعدة (طسم) وكان بها قصور عالية ، وحصون فارهة . . يقول الهمداني : وهي حضور طسم ، وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم - الواحد بتيل - وهو هن مربع مثل الصومعة ، مستطيل في السماء ، من طين . . قال أبو مالك - وهو من مشائخ الهمداني - : لحقت منها بناء طوله مئتا ذراع . . قال : وقيل : كان منها ما طوله خمسمائة ذراع ، من أحدها نظرت زرقاء اليمامة إلى من نزل من (جو جان) من رأس (الدام) مسيرة يومين وليلتين [12] .

و (ابن الفقيه) في كتابه (مختصر كتاب البلدان) ، و (البلاذري) في (فتوح البلدان) . . يصفان بعض آثار طسم في

---

(9) العبر (ج٢/٤٥).

(١٠) الإكليل (ج٨/٨٥) .

(١١) تاريخ العرب قبل الإسلام (١-٣٢٧) ، الرياض عبر أطوار التاريخ (ص ٣٢) .

(١٢) صفة جزيرة العرب (ص١٤٠) ، الرياض عبر أطوار التاريخ (ص١٨/١٩) .

(حجر) ، منها بتيل (حجر) ؛ وهو قصر عجيب من بناء طسم ،ومعتق أو (معْنِق).. القصر الذى تحصن فيه عبيد بن ثعلبة الحنفى لما استولى على (حَجْر)؛ وهو من أشهر قصور اليمامة ، وكان على أكمة مرتفعة ، مطل على الواديين ، ويقع فى (الشط) إحدى قرى حجر .

ويقول (البلا ذرى) : إن هذا الحصن سمى (معتقاً) لحصانته ، يعنى أن من لجأ إليه عتق من عدوه . . أما (ياقوت) فيرى أن اسمه (معنق) بالنون ، ويستدل بقول الشاعر :

أبت شرفات من (شموس) و (معنق)

لدى القصر منا أن تضسام وتضهدا

ومن حصونهم أيضاً فى (حجر) . . (الشموس) و (الشَّرملية) [١٣] .

أما قاعدة جديس فهى (الخضْرمة) فى (جوّ) — الخرج الآن —، وما بها أيضاً من حصون وقصور وبتل . . وهى منافسة لـ (حجر) ، وبها الحصن الشهير (الجون) الذى يقول فيه المتلمس :

ألم تر أن الجَوْنَ أصبح راسياً

تطيف به الأيام ما يتأيس

عصى تبعاً أيام أهلكت القرى

يطان عليه بالصفيح ويكلس [١٤]

ومن آثارهم حصن (القرية) — سدوس الآن — ، بها مسلة مشهورة إلى زمن قريب ، وبها حصن يقال : إنه من حجر واحد ، وينسب إلى (سليمان بن داود) — عليه السلام — ، كما درجوا أن ينسبوا كل شىء معجز إليه لما سُخِّر له من قوى الشياطين ، يقول المعرى :

وقد كان أرباب الفصـاحة كلما

رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن [١٥]

وحينما جعل الرحالة من أنحاء العالم يرتادون (القـَرْيَة)ويصورونها ويكتبون عنها ،أوجس أهلها من ذلك خيفة ، فأبادوها وأخفوا معالمها، ولم يبق بها الان من ذلك عين ولا أثر .

ومن آثارهم فى (الأفلاج) (القصر العادى) ، ظل باقياً إلى أيام الهمدانى ، فقد وصفه وقال : إن هذا الحصن كان عظيماً وكان يحيط بالقرية ، وأساسه من اللبن ، وحوله منازل الحاشية للرئيس الذى كان فيه ، وفيه الأثل والنخيل ، ويحيط بالقرية خندق ، وفيه آبار — مئتان وستون بئراً —ماؤهاعذب فرات [١٦] .

---

(١٣) مختصر البلدان (ص٩٨) ، الرياض عبر أطوار التاريخ (ص٢٤) .

(١٤) معجم اليمامة (١/٣٧٣-٣٧٤) .

(١٥) تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٣٣٩) ، الرياض عبر أطوار التاريخ (ص١١) .

(١٦) صفة جزيرة العرب ص(١٤) ، معجم اليمامة (١/٣٢٩) .

ومن آثارهم فى (البحرين) (الأحساء الآن) . (المشقّر) حصن عظيم ، حوله (الصفا) و (الشّعان) ، وإلى جانبه نهر يقال له (العين) [17] :

فأنت ترى أن طسما وجديسا قد حلتا من جزيرة العرب أخصبها ، وأطيبها مناخاً ، وأغزرها مياهاً ، وأكثرها إنتاجاً ، وأن حضارتهما قامت على بلاد ذات قرار ومعين. فلقد كانت اليمامة فى ماضى عهدها من جنان الدنيا خضرة ونضرة ، وأنهاراً جارية ، وعيوناً ثرّة ، وكانت تفيض خيراتها على ما حولها من أقاليم جزيرة العرب وغيرها . . يقول ابن الفقيه : وعيون اليمامة كثيرة . ففيها عين يقال لها : (الخضراء) ، وعين يقال لها : (الهيت) ، وعين يقال لها : (المجرة) ، وبها نهر (المجازة) ، ونهر يقال له : (سيح الغمر) ، ونهر (نعام) . ويقول أهل اليمامة : غلبنا أهل الأرض شرقها وغربها بخمس خصال : ليس فى الدنيا أحسن ألواناً من نسائنا ، ولا أطيب طعاماً من حنطتنا ، ولا أشد حلاوة من تمرنا ، ولا أطيب مضغة من لحمنا ، ولا أعذب من مائنا . :

(ومضى ابن الفقيه يقول) : فأما نساؤهم فإنهن دُرِّيّات الألوان .. كما قال ذو الرمة :

كحلاء فى دعج صفراء فى نعج
كأنها فضة قد مسها ذهب

وكما قال امرؤ القيس :

كبكر المقاناة البياض بصفرة
سقاها نمير الماء غير المحلل

إلى آخر ماأورده ابن الفقيه عن وصف حنطة اليمامة وتمرها ونخيلها ، ومامها من مميزات لاتوجد إلا بها [18].

وأنت ترى أن طسما وجديسا قد حلا من اليمامة أخصبها وأطيبها (حجر) و (القُرَيَّة) و(الخضرمة) و (الأفلاج) ،ومن شرقى الجزيرة مركز خيراتها ومصدر إنتاجها (الأحساء) . . فلا غرابة أن تكون لهما حضارة ، ويكون لهما تاريخ حافل شهير .

وموقعها يؤهلها لتجارة خارجية واسعة بين (اليمن) و(حضر موت) من الناحية الجنوبية الغربية ، وبين (العراق) و (كاظمة) وأطراف الشام من الناحية الشمالية ، وبين الخليج العربى وصلاته

---

(١٧) مختصر كتاب البلدان (ص٣٠) .

(١٨) مختصر كتاب البلدان (ص٢٨-٢٩) .

مع (الهند) و(جنوبي آسيا) من الناحية الشرقية ،وبين (الحجاز) و (السروات) من الناحية الغربية. فبلادها ملتقى قوافل وقاعدة تجارية مهمة من (جزيرة العرب) .

ولطسم وجديس صنم من أشهر الأصنام، يقال له :(كثْر) ، بقي إلى ظهور الإسلام وكسره (نهشل بن الربيس) [19] .

وشأن كل أمة ذات أثر وخطر ، فإنه يحاك حول تاريخها كثير من الأخبار والنقول ، بعضها أشبه ما يكون بالأساطير وأحاديث الخيال ، وبعضها لا يخلو من حقيقة مبالغ فيها وموشاة بالانتحال والخلط فكذلك قبيلتا طسم وجديس حفل تاريخهما بأشياء كثيرة من هذا القبيل ، لاسيما وقد صحب تاريخهما عداء عنيف استمر بين القبيلتين زمنا طويلا ، وتداموا فيه وتفانوا ، مما هيأ جواً للتهويل والمبالغة والانتحال من الوضّاعين والقُصّاص وأصحاب الأساطير .

وكما قلنا : إن طسما تعيش فى (وادى حنيفة) وماحولها من اليمامة ، وقاعدتها (حجر) ، وأن جديسا تعيش فى (جو اليمامة) — الخرج الآن — وقاعدتها (الخضرمة) ، وبين القاعدتين حوالى ثمانين كيلومترا ، والعداء بينهما قائم حتى كان الغلب أخيرا لطسم ، فبسطوا نفوذهم على جديس واستأثروا بحكمهم . وفى عهد (عمليق بن هباش) الملك الطسمى بلغ العداء أوجه ، وبلغت إهانة الطسميين للجديسيين حدا لامزيد عليه . . لقد كان (عمليق) هذا غشوما ظلوما جبارا بلغ من أمره أن جاءه رجل وامرأة من جديس تنازعا فى ولدهما ، أراد الأب أن ينتزعه من أمه ، وأبت الأم عليه ذلك ... فتحاكما إلى عمليق، قالت المرأة: «هذا ابنى حملته تسعا، ووضعته رفعا، وأرضعته شبعا ، ولم أنل منه نفعا ، حتى إذا تمت أوصاله واستوفى فصاله أراد بعلى أن يأخذه كرها، ويتركنى ولهى» .

فقال الرجل : « أيها الملك أعطيتها المهر كاملا ، ولم أصب منها طائلا ، إلا ولدا خاملا، فافعل ما كنت فاعلا ، على أنى حملته قبل أن تحمله ، وكفلت أمه قبل أن تكفله . .» فقالت المرأة: « حملته خفا وحملته ثقلا، ووضعته شهوة ووضعته كرها » .

فلما رأى (عمليق) متانة حجتهما تحير ، فلم يدر بم يحكم ، ولكن جوره ونفسه الخبيثة أبت عليه إلا النزوع إلى الشر ، فأخذ

(١٩) القاموس (مادة كثر) ، تاريخ العرب قبل الإسلام (١/٢٥٢-٢٥٥) .

الغلام منهما وألحقه بغلمانه، وقال للمرأة: أبغيه ولدا ، وأجزيه صفدا ، ولاتنكحى بعدُ أحدا . . فقالت المرأة :

أتينا أخاطسم ليحكم بيننا
فأظهر حكما فى هزيلة ظالما

لعمرى لقد حكمت لامتورعا
ولا كنت فيها يلزم الحكم حاكما

ندمت ولم أندم وإنى بعترتى
وأصبح بعلى فى الحكومة نادما

فأمر بهما أن يباعا ، ويرد على زوجها خُمس ثمنها ، ويرد عليها عشر ثمن زوجها فذهبا رقيقين .

وتمادى (عمليق) فى جوره ، وأمر أن أن لاتزوج بكر من جديس حتى تدخل عليه فيفترعها قبل زوجها ، وكان هذا نهاية الذل والمهانة ، حتى تزوجت فتاة اسمها (عفيرة بنت غفار)أخت سيد جديس فلما زفت إلى (عمليق) جعل الفتيات يهزجن حولها ويقلن :

ابدى بعمليق وقومى فاركبى
وبادرى الصبح بأمر معجب

فسوف تلقين الذى لم تطلبى
فما لبكر دونه من مهرب

فأدخلت عليه وكانت أيِّدة ، فقيل إنه إنه لما عجز عنها ، وجأها فى فرجها بحدّة فأدماها ، فخرجت وقد هانت لديها نفسها ، فمزقت ثيابها وجعلت تمشى بين قومها عارية ودماؤها تسيل ، وترفع عقيرتها قائلة :

لا أحد أذلّ من جديس
أهكذا يُفعل بالعروس

كيف بهذا الفعل يرضى الحر
وقد مضى القول وسيق المهر

لإخذة الموت كذا لنفسه
أهون من أن يفعل ذا بعرسه

وذهبت إلى نادى قومها ، وصرخت بهم :

أيجمل أن يؤتى إلى فتياتكم
وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه
فكونوا نساء لاتغب من الكحل

ودونكم ثوب العروس فإنما
خلقتم لأثواب العروس وللغسل

فلو أننا كنا رجالاً وكنتم
نساء لكنا لا نقر على الذل

فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم
وكونوا كنارٍ شبّ بالحطب الجزل

فللموت خير من مقام على أذى
وللهزل خير من مقام على ثكل

بعدها بيّتت جديس خطة تتخلص كالآتى :

ألم يكن ولىّ أمر الفتاة التى تزف إلى (عمليق) ملزما بإقامة مأدبة صباح افتراعها ، تقام

على شرف (عمليق) وقومه . إمعانا فى الإهانة وإيغالا فى الاستذلال ؟ . . وإذن فسوف يقيم ولىُّ أمر (عفيرة) التى زفت إليه البارحة ، وخرجت عارية ملطخة بالدماء تصرخ فى قومها . . سوف يقيم وليُّها مأدبة هذا اليوم لعمليق وقومه ، وسوف يقف الولىُّ هو وقومه فوق رؤوسهم حتى ينتهوا من طعامهم . . ولكن سوف تدفن السيوف إلى جانب الموائد ، وإذا أخذ (عمليق) هو وقومه يطعمون ، فسوف يتلقى قوم الولىّ إشارة منه لتنبش السيوف دفعة واحدة وتعمل فى رقاب قوم (عمليق) وهاماتهم فيفنوا جميعا . . هذه هى الخطة ، وهكذا يفعلون ليصبح (عمليق) ورؤوس قومه ووجهاؤهم جثثا هامدة إلى جانب الموائد ، ويمعن الجديسيون فى استئصال الطسميين ، ويقول شاعر جديس يومئذ :

ذوقى ببغيك ياطسم مجللة
فقد أتيت لعمرى أعجب العجب

إنا أنفنا فلم ننفك نقتلهم
والبغى هيج منا سورة الغضب

فلن تعودوا لبغى بعدها أبدا
لكن تكونوا بلا أنف ولا ذنب

فلو رعيتم لنا قربى مؤكدة
كنا الأقارب فى الأرحام والنسب

وقال شاعر آخر من جديس :

لقد نهيت أخا طسم وقلت له :
لايذهبنّ بك الأهواء والمرح

واحذر العواقب إن الظلم مهلكة
وكل فرحة ظالم عندها ترح

فما أطاع لنا أمرآ فنعذره
وذو النصيحة عند الأمر ينتصح

فباد آخرهم من عند أولهم
ولم يكن لهم رشد ولا فلح

وقد هرب رجل من كبار طسم ، ولاذ بحسان بن تبع الحميرى بنجران ، فاستعداه على جديس ، ولم يزل به يستغيث ويستصرخ ويهزه بالشعر ، فمما قال يومئذ :

أجبنى إلى قوم دعونا لغدرهم
إلى قتلهم فيها عليهم لك العذر

فلما انتهينا للمجالس كللوا
كما كللت أسد مجوعة خزر

أتيناهم فى أزرنا ونعالنا
علينا الملاء الخضر والحلل الحمر

فصرنا لحوما بالعراء وطعمة
تنازعنا ذئب (الرثيمة) والنمر

فدونك قوما ليس لله منهم
ولا لهم منه حجاب ولا ستر

فاستخفّه بكثرة إلحاحه ، فأجابه إلى طلبه . . ولما تباطأ فى التنفيذ هزه هذا الشاعر بقصيدة أخرى ، منها :

إنى طابت لأوتارى ومظلمتى
ياآل حسان ياالعز والكرم

المنعمين إذا مانعمة ذكرت
والواصلين بلاقربى ولارحم

وعند حسان نصر إن ظفرت به

منه يمين ورأى غير مقتسم

فارحم أيامى وأيتاما بمهلكة

ياخير ماش على ساق وذى قدم

إنى رأيت جديسا ليس يمنعها

من المحارم مايخشى من النقم

فسر بخيلك تظفر إن قتلتهم

تشفى الصدور من الأضرار والسقم

لاتزهدن فإن القوم عندهم

مثل النعاج تراعى زاهر السلم

ومقربات خناذيذ مسومة

تعشى العيون وأصناف من النعم

فجهز (حسان بن تبع) جيشا كثيفا جرارا ، وسار به نحو (اليمامة) . . فلما كان منها على ليال ، قال له (رياح الطسمى) هذا الذى جاء يستصرخه : أيها الملك إن فى القوم امرأة مبصرة جدا زرقاء العينين ، بصرها نافذ ، وأنهم ليضعونها فى قمة بتيل لتكشف لهم الأرض ، ولن يأتيهم أحد على غرة ، فأرى أن تتخذ وسيلة توهمها ، فإذا كنا منها على منتهى بصرها أخذ كل راكب من القوم شجرة وأدرأ خلفها ليختلط عليها الأمر ، ويتهمها قومها بضعف أصاب بصرها ومن ثم نبادؤهم على غرة . . فأخذ بمشورته ، ورأت القوم على هذا الحال فأنذرت قومها بما رأت . فلم يصدقوها فداهمتهم جموع (حمير) . فأبادوا خضراءهم واستأصلوا شأفتهم . ونهبوا أموالهم . وخربوا ديارهم . . وإلى ذلك أشار (الأعشى) فى قصيدة ، قال منها :

مانظرت ذات أشفار كنظرتها

حقا كما صدق الذئبى إذ سجعا

إذ قلبت مقلة ليست بكاذبة

إذ يرفع الآل (رأس الكلب) فارتفعا

قالت أرى رجلا فى كفه كتف

أو يخصف النعل ، لهفى أية صنعا ؟!

فكذبوها بما قالت فصبحهم

(ذوآل حسان) يزجى الموت والشرعا

فاستنزلوا أهل (جو) من منازلهم

وهدموا شامخ البنيان فاتضعا[٢٠]

وإلى هذه الحادثة أشار (الحارث بن حلزة اليشكرى) ، فقال :

أم علينا جر (إياد) كما قيل

لطسم أخوكم الآبراء

ومما قالته الزرقاء فى ذلك :

خذوا خذوا حذركم ياقوم ينفعكم

فليس ماقد أرى م الأمر يحتقر

إنى أرى شجرا من خلفها بشر

لأمر اجتمع الأقوام والشجر

---

(٢٠) معجم البلدان (٥/٤٤٦) ، شرح المعلقات لابن الأنبارى .

فأخذ (حسان) (الزرقاء) وقلع عينها
فوجدها محشوة بالإثمد ، وقال فى ذلك :
وسميت جواً باليمامة بعد ما

تركت عيونا باليمامة هملا
نزعت بها عينى فتاة بصيرة
رغاما ولم أحفل بذلك محفلا
تركت جديسا كالحصيد مطرحا
وسقت نساء القوم سوقا معجلا
أدنت : جديسا دين طسم بفعلها
ولم أك لولا فعلها ذاك أفعلا
وقلت خذيها ياجديس بأختها
وأنت لعمرى كنت للظلم أولا
فلا تدع جوا مابقيت باسمها
ولكنها تدعى اليمامة مقبلا[21]

وأشار النابغة (الذبيانى) إلى بعض قصص (الزرقاء) ، فقال :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت
إلى حمام شراع وارد الثمد
فعددوه فألفوه كما زعمت
تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

وكذلك أشار إليهما (المتنبى) حيث يقول :

وأبصر من زرقاء جو لأننى
إذا نظرت عيناى شاءهما علمى[22]

وأشرت إلى ذلك فى إحدى قصائدى ، فقلت :

عن طسم حدثنا وعن جبروتها
لما استباحت من جديس عقائلا
وجديس إذ هبت لتثأر منهم
تخفى لهم تحت الرغام مناصلا
واذكر عن الزرقاء ما فاهت به
عن نظرة تطوى الحزون مراحلا
وعن الحمائم إذ مررن خواطفا
هل كان ذاك الحكم منها باطلا[23]

هذه إلمامات موجزة عن تاريخ طسم وجديس ، وأخبارهما ، وآثارهما . . ولم تكن المصادر التى بين أيدينا لتمدنا بأكثر من ذلك ، وسيظل هذا قصارى ماينتهى إليه جهد الباحث حول هاتين الأمتين مالم يظهر البحث والتنقيب مزيداً من علم أو تمدنا الخزائن المطمورة بشىء مما دُوّن عنهما . . فلقد روى صاحب (الفهرست) بأنه قد ألف عن طسم وجديس عالمان جليلان من علماء القرن الثانى والثالث الهجريين ، هما : (ابن الكلبى) و(أبو البخترى) وهب بن وهب القرشى[24] ولكننا لم نعثر على هذين المؤلفين ، ولم يعثر عليهما أصحاب المصادر قبلنا.

وصدق الله العظيم : « وتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين » :

عبد الله بن محمد بن خميس
عضو المجمع المراسل من السعودية بالرياض

(21) معجم البلدان (5/447) .
(22) المجاز بين اليمامة والحجاز (ص20).
(23) على ربى اليمامة (ص128-129) .
(24) الرياض عبر أطوار التاريخ .

بين العربية والفارسية والتركية

للدكتور حسين مجيب المصري

كان الفتح العربي لفارس حدثا عظيم الخطر بكل مايتسع له التصور ويستقيم في العقل. فقد أفضى إلى أوضاع تبدلت وآيات تطورت. وأعقب حضارة تنوعت مقوماتها وتشكلت سماتها. ومن حيث كانت اللغة من أهم مظاهر الحضارة، لأنها الناطقة عنها بكل ما يميز الخاص من نوعيتها، كان النظر في لغة الضاد بعد الفتح وما آل إليه وضعها وجد من تأثير فيها وتأثر بها حقيقة من الحقائق التي لا غنية لدارس بالمعنى الحق عن تذكرها أو تدبرها.

فلما هلك السلطان عن آل ساسان وانطوت كل مظاهر دولتهم — والدين واللغة من أخصها — ثم رقت قلوب الفرس للإسلام، كان من الحتم شيوع العربية في أرجاء أرضهم، وإذا ما قطعنا النظر عن فرض الغالب لغته على المغلوب، رأينا أن الفرس وجدوا مس الحاجة إلى العلم بالعربية لأنها وسيلتهم إلى فهم الكتاب المبين وسنة سيد المرسلين، وأحكام الدين التي يصلح بالأخذ بها حالهم في المعاش والمعاد.

كان هذا شأن الكثرة الكاثرة. وإلى جانبها قلة جد ضئيلة فرت بعقيدتها المجوسية ولغتها الفهلوية إلى بعيد من أطراف البلاد حيث لا يوقف لها على أثر أو ارتحلت عن ديارها طلبا للعافية، وحسنت لها أرض الهند مستقرا ومقاما. وهنا تحين منا وقفة نتبين فيها ما كان من صلة بين الدين واللغة عند الفرس.

ويدعم هذه الدعوى بحجتها قول الثعالبي: إن العربية نزل بها أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن هداه الله للإسلام اعتقد أن العربية خير اللغات. والإقبال على تعلمها من الديانة، اذ هي مفتاح التفقه في الدين. ولو لم يكن العلم بها

إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن وإثبات النبوة لكفى بها فضلا[1] .

وجرى الفرس من أهل العلم على التضلع من العربية والتحرير بها . مباهاة منهم بأنهم يملكون ناصية لغة صعبة . وهذا ما يرفع من شأنهم ويجعل لهم درجة على غيرهم . وينهض دليلا على أنهم يفقهون القرآن الكريم فهم المؤمنون الموقنون الذين يشهد لهم بتقواهم ومثل هذا كله من صفاتهم ، لا شك يزلفهم إلى أهل الحل والعقد، ويمهد سبيلهم إلى مناصب ما كانوا بالغيها إلا باتساع باعهم في العربية[2] .

ومثل ذلك كل الدليل على قوة الباعث الذي حرك همة الفرس إلى تعلم لغة العرب التي أصبحت لغة المسلمين ، لاسيما أن الإسلام جعل الناس سراسية وزجر عن العصبية والقومية فلم يعد لفارسي ولا غير فارسي نسب خاص به يصله بقومه لتنبت صلته، وعايش العرب غيرهم ممن دخلوا في دين الله أفواجا . فكانوا جميعا مربوبين لرب واحد قارئين لكتاب واحد لغته لغة الدين والدنيا . ومر من الزمان نحو قرن ونصف . ونحن لا نعرف ولا نكاد لغة للفرس لها الظهور البين إلى جانب لغة العرب .

أما إذا تحفظنا بعض التحفظ من خشية أن يكون حكمنا الاطلاق والاستغراق . ذكرنا أنه كان يوجد بالبصرة والكوفة ديوانان أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية . ولما ولي الحجاج العراق كان من يدعى زاذان بن فروخ على ديوان الفارسية وقال إن الحجاج لا يستغني عنه لأنه لا يجد من يكفيه الحساب مثله. إلا أن الحجاج أمر في سنة ثمان وسبعين بنقل الديوان إلى العربية . وكان أكثر كتاب خراسان آنئذ من المجوس والحسبانات بالفارسية . فكتب يوسف بن عمر وكان على العراق سنة أربع وعشرين إلى نصر بن سيار يأمره بعدم الاستعانة بأحد من أهل الشرك في الأعمال والكتابة . وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان اسحق بن طليق[3] .

وهذا ما يستبين منه أن العربية أصبحت لغة البلاد الأصلية التي فرضت عليها دينيا ورسمياً فكان العلم بها ضرورة لا محيص عنها ولا يغير هذه الحقيقة في شيء أن تظهر الفارسية معها ظهوراً ضعيفاً نلمحه من قلة من المجوس احتفظوا بلغتهم احتفاظهم بعقيدتهم ومست الحاجة إلى الإفادة من علمهم بحساب الدواوين في أول الأمر ، ولكن سرعان

---

(١) الثعالبي : فقه اللغة . ص ٢ (القاهرة ١٣١٧)

(٢) Ross : Note on Persian Poetry, Persian Anthology. P 48 (London 1927)

(٣) الجهشياري . كتاب الوزراء والكتاب . ص ٣٨ و ٦٧ (القاهرة ١٩٣٨)

مانبذوا بشركهم . ولم تعد للدولة رغبة في علمهم ولا لغتهم .

وحقيق بالذكر أن هذا من حال العربية دام طويلا من غير ما تغير طرأ عليه حتى بعد نشأة الإمارات أو الدويلات الفارسية التي قامت في عهد الدولة العباسية . وكان الباعث على قيامها نزعة قومية تسعى إلى بعث دولة الأكاسرة بما ازدهر من حضارتها فكان إحياء الفارسية أهم مظهر لهذه الحضارة وأول ما يتوقع من مثل هذا المسعى . وليس بخاف أن اللغة هي العنصر الجوهر في الكيان الحضاري للدولة من الدول . بيد أن الفارسية التي استوت على ساقها في زمان تلك الدويلات لم تكن لتقوى على الوقوف موقف الند المزاحم للعربية . وظلت العربية أسطركينا للثقافة الإسلامية . يقام عليه ما يقام . ولكنه ليس من سبيل إلى إعمال معول للهدم فيه . وكان العلم بالعربية أداة لكل من أدركته حرفة الأدب وشرطاً لازماً لكل من يلحق بخدمة السلطان . كما راجحت الفارسية فرجحتها ، لأن المعبرين بها من الفرس كانوا أكثر من عبروا بلغتهم القومية التي شاءوا إحياء قوميتهم باحيائها وجرت الوتيرة على ذلك بمر الزمان فكانت جمهرة التآليف العربية للفرس ، والجانب الأكبر من التراث الأدبي العربي لأهل البلاغة واللسن من الفرس .

وهاهوذا ابن خلدون يفسر لنا تلك الظاهرة فيقول إن أكثر حملة العلم في الملة الإسلامية من العجم . والسبب أن الملة لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى حال السذاجة والبداوة . وكان الرجال ينقلون أوامر الله ونواهيه في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة . والعرب لم يعرفوا التعليم والتدوين ، وجرى أمرهم على ذلك زمن الصحابة والتابعين . ومن يوم الرشيد فما بعد مست الحاجة إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث وقد فسد اللسان فاحتيج إلى وضع أصول النحو . وأصبحت علوم الشرع ملكات في الاستنباط والقياس ومست الضرورة إلى علوم هي وسائل لها . وبذلك أصبحت العلوم حضرية وبعد العرب عنها والحضر هم العجم . لأن الحضارة راسخة فيهم منذ دولة الفرس . ولهذا كان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما . وكل هؤلاء من الفرس وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بمرباهم ومخالطتهم للعرب ، وأكثر حملة الحديث من العجم . وكان علماء أصول الفقه جميعاً عجماً وكذلك أصحاب علم الكلام ومعظم المفسرين وما حفظ العلم ودونه إلا الأعاجم .

ويؤيد تلك الحقيقة قوله صلوات الله (لو تعلق العلم باكناف الثريا لناله قوم من أهل فارس[1]) ويستخلص من هذا أن العربية

---

(١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٨ ، و ٤٨١ (القاهرة ١٩٣٠)

كان لها الرجحان والإيثار على الفارسية عند الفرس الذين شاركوا بالنصيب الأوفى في التأليف والتصنيف بها وتزويدها بكل سبب من أسباب انتشارها وازدهارها فأثبتوا مالها من جدارة وصدارة وقبل أن نسوق الكلام إلى غاياته نلتفت إلى الفارسية التي انبعثت في الوجود إلى جانب العربية وهي المعروفة بالفارسية الحديثة تمييزاً لها من الفارسية الوسطى أو الفهلوية لغة الفرس في عهد الساسانيين وفارسية كتاب الفرس المقدس المسمى بالأبستاق وفارسية عصر الأكميليين وهي الفارسية القديمة .

فهذه الفارسية الحديثة من الفصيلة اللغوية المعروفة عند علماء اللغة بالفصيلة الهندية الأوربية وهي فصيلة آرية تختلف عن الفصيلة السامية التي منها العربية . واللغات الهندية الأوربية منسوبة إلى الآريين الذين سكنوا ايران في الزمان الحالي وأصل اسمها أرياناً بمعنى بلاد الآريين . ويقال إن شبه القارة الهندية كان مهداً للآريين الأقدمين وكانت لغتهم واحدة في أول أمرهم . ثم نزح منهم من نزحوا شمالا وسكنوا ايران وارمينيه وروسيا وانعطفوا غرباً فاستقروا في أوربا . وانشعبوا إلى شعوب كما انقسمت لغتهم الآرية لهجات تطورت على مر الدهر إلى لغات هي اللغات الهندية الأوربية ولذلك نجد بين لغات الشعوب الآرية كثيراً من وجوه الشبه في النحو ومتن اللغة والحروف والأصوات . وبينها من الشبه ما يكون بين الأخوات في الأسرة الواحدة .

وعليه فالفارسية الحديثة لغة آرية تباين العربية التي تنسب إلى الفصيلة السامية .

ولكن كان لالتقاء العرب بالفرس حكمه وعظيم أثره في ظاهرة التأثير والتأثر بين اللغتين .

وأول ما يذكر في هذا الصدد أن الفرس اختاروا لفارسيتهم الحديثة الحروف العربية ولما كانت اللغتان في نوعية أصواتهما وحروفهما مختلفتين . اضطر الفرس ضرورة إلى تطويع بعض الحروف العربية لأداء الأصوات المنطوقة في الفارسية فأضافوا إلى لغتهم الحروف التالية پ ، چ ژ . گ ، وكتبوا فارسيتهم بأبجدية عربية أضافوا إليها هذه الحروف التي كان حتما عليهم أن يضمنوها أبجديتهم .

كما انسرب في الفارسية مالا يحصى كثرة من الألفاظ والتراكيب والعبارات العربية ومما يستوقف النظر أنهم نطقوا الألفاظ العربية بلهجة أعجمية كأن ينطقوا الحاء هاء ويعجزوا عن نطق الهمزة ، ومثال ذلك ما رأيته في بعض كتبهم من كتابة كلمة (حداء) على نحو يوهم القارىء العربي أنها كلمة أخرى لأنها في الرسم (هدى) ؛ وهم ينطقون القاف غيناً في الأغلب وقد يكتبون (قدير) قاصدين بها (غدير) أما حرف العين . فهو على ألسنتهم ألف . والأمثلة لذلك متوفرة .

وما كان هذا منهم بدعا والعربية دخيلة على لغتهم ، وشأنهم شأن أوربى ينطق العربية ، فهو مثلهم آرى الجنس واللغة . كما ألحقوا تاء

مفتوحة بكل كلمة عربية منتهية بتاء مربوطة مثل نعمت وعصمت وبهجت وقدرت وعزت.

وأدخلوا السوابق واللواحق على ألفاظ عربية مثل بى شك بمعنى بلاشك واخلاصمند بمعنى مخلص وديندار بمعنى تقى . وزاوجوا بين ألفاظ عربية وأخرى فارسية فيما يعرف بالصفات المركبة كما فى وطنپرست بمعنى محب الوطن .

وفى الفارسية ألفاظ عربية انصرفت عن معناها مثل نشاط فهى فى الفارسية بمعنى سرور ، وسياست وتأتى بمعنى عقاب وحصار بمعنى حصن ، وصلح بمعنى سلم وتشنج بمعنى توتر . واختلاف دلالة اللفظ الواحد فى عدة لغات ظاهرة لغوية مألوفة لدى من يلقى بالا إلى تتبعها وتبينها .

وبذكر تضمن الفارسية كثرة من الألفاظ العربية ، يذكر الشاعر الفارسى أبو القاسم الفردوسى من أهل القرن الرابع الهجرى الذى رغب اليه السلطان محمود الغزنوى أن ينظم كتاباً يؤرخ فيه لملوك الفرس وصناديدهم وأنبيائهم منذ أول العهد بهم إلى الفتح العربى . وكان مأرب السلطان أن يحيى القومية الفارسية بعد أن قضى عليها العرب أو كادوا . وامتثل الشاعر أمر مولاه وتوفر على نظم كتابه المعروف بشاهنامه أى كتاب الملوك . حتى تأتى له أن ينظم ستين ألف بيت فى قريب من خمسة وثلاثين عاماً ، وتوخى أن يتغنى بمحامد ملوك الفرس وقد غلا فى مدحهم وجاوز الحد فى ذكر مآثرهم ليكون فى مرضاة السلطان ، كما أظهر شديد التعصب للفرس على العرب . بيد أن غرضه يتجلى مع هذا كله فى ميله الظاهر إلى إقامة الدليل على أن الفارسية لغة تقف على قدم المساواة مع العربية من حيث قدرتها على أداء كل ما يمكن أن تؤديه لغة من معنى فى كل غرض . وذلك دون أن تستعين بالعربية وتستمد ما تستعين به على التعبير ، أو على التحديد دون أن يستعير من العربية الفاظا يدرجها فى كلامه . ولذلك بذل الطوق فى تجريد كلامه من الألفاظ والتراكيب العربية ومع كل ما بذل من جهد فى تنقر الغريب من ألفاظ الفارسية ، لم يوفق إلا بعض التوفيق ، لأن كتابه المنظوم لم يخل تمام الخلو من العربية على طول ما حاول ذلك وعقد الأمل بتحقيقه .

وإن دل ذلك على شىء فهو قاطع الدلالة على أن العربية تشكل قدراً كبيراً من متن الفارسية ، وتخليص لغة الفرس من لغة العرب أمر يتعسر بل يكاد يتعذر .

ومنذ أكثر من أربعين عاما كنت أداوم مطالعة مجلة إيرانية أدبية كتب تحت عنوانها أنها بالفارسية الخالصة ، فكأن بعض أدباء الفارسية المعاصرين أرادوا استدامة محاولة شاعر الفرس القديم الفردوسى ذهابا منهم إلى إرضاء نزعة قومية . غير أن تلك المحاولة لم تصادف هوى فى النفوس والظن الأغلب أن أصداء لها لم تعد تتردد .

ويستدل على ذلك بأن فارسية الكتاب والشعراء والدارسين والصحفيين اليوم يتشكل ن القدر الأكبر منها من العربية حتى إن العربي إذا قرأها اقتدر على معرفة موضوع الكلام وان أعجزه أن يفهم دقيق الفهم :

وأذكر أن أديبا إيرانيا قرأ ديوانا من الشعر الفارسي لي فقال : كأني بك تتحاشى إيراد الألفاظ العربية في شعرك الفارسي لتفرغ عليه رونق الفصاحة . وهذا حسن عند بعضهم . ولكن أحسن منه أن تمزج الفارسية بالعربية فأيقنت أن امتزاج اللغتين في النص الأدبي أوقع في النفس وآخذ بالقلب .

أما لغة العلم كالطب على سبيل المثال فمصطلحاتها عربية كالأسماء فيها ، فالقلب والكبد لايذكران إلا بلفظهما العربي.وهذا قريب الشبه بتلك المصطلحات التي ترد باللاتينيه واليونانية في اللغات الأوربية .

ويمكن القول بعامة إن دخول العربية على الفارسية كان بطيئا ولكن في اتصال ودوام . مما أفضى إلى امتزاج اللغتين . وعلى الخصوص في لغة صفوة القوم ولغة البلغاء ، غير أن الألفاظ العربية أقل عددا في اللهجات الشعبية . وقد زاد تأثر الفارسية بالعربية في نهاية عصر المغول وظل كذلك على عهد التمرديين وبقى إلى زمان الصفويين (١)

ومن الألفاظ التي دخلت الفارسية الفاظ يتعذر وجود فارسية أكثرها كالمسلم والمؤمن والكافر والمنافق والفاسق والزكاة والحج والتيمم والقبلة والطلاق ، لأنها ألفاظ إسلامية غريبة عن الفهلوية التي كانت من لغاتهم قبـل أن يهتدوا لدين الله . وعقد الثعالبي في كتابه فقه اللغة فصلا عنوانه (فصل في سياقة أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية مستعملة) ونورد منها بعضها للنظر فيها ومنها الخليفة والأمير والوزير والقاضي والساقي والحلال والحرام والعاشق واللطيف . فهذه ألفاظ دخلت الفارسية ولم يكد الفرس يستخدمون ألفاظا عوضا منها فبعد استثناء كلمة خليفة بمعناها الاصطلاحي الإسلامي ، نجد أن حكم الثعالبي مجرد حسبان يعوزه الدليل من العقل والنقل . كما يتسع المجال للقول في كلمة وزير . والباحثون فيها على رأيين فعند دى خويه أنها عربية من وزر بمعنى حمل . أى أن الوزير يحمل عن الملك أعباء الحكم وحجته على عربية الكلمة والمنصب ماذكره الطبرى في الجزء الثانى من تاريخه قائلا إن زيادا كان يسمى وزير معاوية(٢).

---

(١) Rypka : Iranische Literaturgeschichte. S 73 (Leipzig 1939)

(٢) Nicholson : A Litrary History of the Arabs. P256 (Cambridge 1930)

ويرى دارمستتر فى كتابه دراسات إيرانية فارسية الكلمة وأن الوزير وزر الملوك الفرس ويؤيد دعواه بأن الوزير ليس من الوزر بمعنى الثقل فى العربية ، بل هى Vichir من المصدر Vichira فى الفهلوية بمعنى البت فى الأمر[1].

ونحن لانرى حجية فى الرأى الأول ، ونميل إلى الأخذ بالرأى الثانى :

ولايستقيم فى الفهم ألا يقضى قاض بين المتنازعين ولايدير الكأس ساق على الشاربين عند الفرس ، وفى الديانة الزرادشتية حل وحرمة . فالكذب ودفن الميت فى الأرض حرام . ولابدأن يكون للحرام نقيض هو الحلال .

وإن كان هذا من رأينا خاصا بالفرس قبل الإسلام ، وكان رأى الثعالبى متعلقا بالفارسية الحديثة فإن الحقيقة لا تكاد تتغير ، ففى الفارسية الحديثة الفاظ مرادفة لمعظم الألفاظ العربية وإن كان الفرس أميل إلى العربية

وأخذ العرب عن الفرس ما لا يقع تحت حصر من ألفاظ معظمها اسماء للمطعوم والمشروب والنباتات والأدوات التى لا إلف للعرب بها . وقد عربوا أكثرها ومنهم من تصدى للإشارة إلى أصلها الفارسى فأصاب . وغيره لم يصب فهذا ياقوت الحموى يقول إن المهرجان كلمة تتألف من مهر بمعنى محبة وجان بمعنى روح فى الفارسية فيكون المعنى محبة الروح . والمعنى اللغوى صحيح إن حمل على هذا . ولكن الصواب أن الكلمة الفارسية هى مهركان نسبة إلى شهر مهر وهو السابع من سهور السنة الإيرانية وكانت إقامة هذا العيد فيه .

كما قيل إن البرامكة نسبة إلى برمكم فى الفارسية بمعنى أمتص ومعنى الكلمة صحيح على تعليل أن البرمكى كان يتخذ خاتما له مص سام . أعدله ليمتصه ويموت اذا آثر الموت على الحياة . والحق أن البرامكة نسبة إلى معبد بودى .

ومن المستطرف أن نورد هناماحاوله أبو العلاء المعرى لتفسير كلمة جلنار . وهى تتألف فى الفارسية من كلمتين كل بمعنى زهر وانار أو نار بمعنى رمان فالمعنى زهر الرمان . قال أبو العلاء فى كتابه عبث الوليد الذى شرح فيه ديوان البحترى ما نصه :

والخدود الحسان يزهى عليها
جلنار الربيع طلقا ووردة

جلنار أطرف كلام العامة وليس اسما موجودا فى الكلام القديم . ويجب أن المراد به جل نار اى ما عظم من الجمر ، ثم كثر فى كلام العامة حتى جعلوه كالاسم الواحد وأجروه مجرى الأسماء العربية غير المركبة

(۱) Browne : A Literary History of Persia. p255.V.1 (Cambridge 1929)

والشعراء المولدون يعربون الراء فيقولون كأنه جلنار ورأيت جلنارا ولو أضافوه قالوا جل نار لكان أقيس ولو أنهم جعلوه بمنزلة حضرموت لوجب أن يقولوا هذا جلنار ورأيت جلنار ومررت بجلنار فلا يصرفون . ولم يأخذوا به فى هذا المنهاج . بل أدخلوا عليه الألف واللام فقالوا الجلنار واجترأوا على توحيده فقالوا جلنارة فأجروه مجرى تمر وتمرة : ولا أعلم هذا الاسم جاء فى شعر فصيح وإنما هو لفظ محدث وكأنه جاء فى الأصل على معنى التشبيه ، شبهوا حمرته بحمرة جمر وهو جل النار . ثم تصرفوا فى نقله وتغييره وقالوا فى تسمية الطعام الفارسى نيرباج وزعموا أن نير بالفارسية ومان وفارس تنطق بالياء كأنها ألف والألف كأنها بالياء . فيجوز أن يكون نار فى جل نار من هذا النحو وكأنهم أرادوا جل الرمان ويجوز أن يكون بلسانهم فى غير هذا المعنى ، على أن لغتهم اختلطت بالعربية وصارت فيها حروف كثيرة من كلام العرب . وهم يسمون الفارسية الخالصة الفهلوية . والذين يتكلمون بها اليوم قليل ، تفتقر إليهم الملوك فى تفسير سير المتقدمين[١]

وهذا من صنيع أبى العلاء قاطع الدلالة على أن عدم العلم بالفارسية يبعث على الحيرة والتظنن ويسوق إلى تخريجات وتأويلات لمن حام وما ورد وغنى وما أطرب ، وإن اتسع العذر له فى عدم إصابة شاكلة الصواب :

ومما ساورهم الشك فى أصله الورد : فقال القائل أظنه غير عربى . والحق أن الورد كلمة فارسية قديمة هى Wroden وفى الأرمنية Vart وعد العرب هذه الكلمة جمعا مفرده وردة : والشأن فى الورد كالشأن فى الفردوس وهى فى الفارسية القديمة Faradis بمعنى حديقة : وفى الأرمنية Pardez بنفس المعنى وظنها العرب جمعا فجعلوا له مفردا هو فردوس .

وقد عاب صاحب الجاسوس على القاموس على الفيروزابادى قوله فى الصرد بمعنى البرد إنه فارسى معرب وقال إن ذلك تمام الغرابة لأن صرد بمعنى وجد البرد سريعا ورجل مصراد قوى على البرد وضعيف عليه والصريدة نعجة أضر بها البرد ، فما الداعى إلى كون الصرد فارسيا مع وجود فعل منه . وهذا وهم سبقه إليه الجوهرى غير أن المحشى صرح بأنه عربى صحيح وأن الفرس أخذوه من كلام العرب[٢]

وبالرجوع إلى أصل الكلمة يتبين بما لا يحتمل من شك ولا تأويل أنها فارسية ، فهى فى فارسية الأبستاق Sareta وفى الفهلوية Sart[٣]

---

(١) أبو العلاء المعرى : عبث الوليد ص ٨٣ و ٨٤ (دمشق ١٩٣٦)

(٢) أحمد فارس : الجاسوس على القاموس ص ٢٣٥ و ٢٣٦ (قسطنطينيه ١٢٩٩)

(٣) Horm : Grundriss der neupersischen Etymologie. S161 (Heidelberg 1893)

كما أنها فى الفارسية الحديثة سرد وفى الأرمنية Tsurd والثلج فى الأرمنية Sar .

فهذا مثال آخر لما خاض فيه بعضهم على غير علم وحاولوا الاجتهاد فيه بالرأى ، فما أعقبت جهودهم إلا وهما . وماذاك إلا لأن حقائق اللغة حقائق ثوابت ، يتوجب فى المقايسة بينها الاتكاء إلى أس من المعرفة ركين

ونأنس فى هذا الصدد بقول من قال إن العرب تكلمت بشىء من الأعجمى ، والصحيح منه ما وقع فى القرآن والحديث أو الشعر القديم أو كلام من يوثق بعربيته ولا يصح الاشتقاق فيه . لأنه لا يدعى أخذه من مادة الكلام العربى . وهو كادعاء أن الطير ولدت الحوت . فما ورد فى بعض التفاسير من أن إبليس مأخوذ من الإبلاس ونحوه خطأ . والتعريب نقل اللفظ من العجمية إلى العربية والمشهور فيه التقريب وسماه سيبويه وغيره إعرابا فيقال حينئذ معرب ومقرب(١)

وذلك يفضى بنا إلى فتح البصر على ما قيل من أن القرآن يخلو خلوا تاما من كلام العجم . وهو برمته بلسان عربى مبين . والقائلون بهذا على حجة من قوله تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربيا) وقوله (بلسان عربى مبين) ويحسم الخلاف فى هذا من أخذ بالقولين جميعا أى قال بوجود الأعجمى وعدمه فى وقت معا . فهذه الحروف وأصولها أعجمية كما يقول الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فاعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن فاختلطت هذه الحروف بكلام العرب. فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال إنها أعجمية فهو صادق(٢)

ويؤيد هذا قول سيبويه إنهم يغيرون من حروف الأعجمية ما ليس من حروفهم فربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه(٣)

وخاتمة القول فى ذلك أننا نجد الصلة الوثقى بين العربية والفارسية صنوين متكاملين متلازمين ، فلنذهب نتلمس ما بين العربية والتركية .

فالتركية من سلالة لغوية غير السلالتين اللغويتين اللتين تنتسب إليهما العربية والفارسية وتعرف بسلالة اورال التاى . نسبة إلى المنطقة المنحصرة بين هذه الجبال فى آسيا وهى لغة التصاقية أى ان التصاق الحروف بالكلمات فيها يحدد دلالتها . وهذا ما يجعلها تختلف الاختلاف كله عن لغة الفرس والعرب . على نقيض ما يلوح من كثرة الألفاظ العربية فيها : وتأثرها

---

(١) الجواليقى : شفاء الغليل . ص ٢ و ٣ (القاهرة ١٣٢٥)

(٢) ابن فارس : الصاحبى . ص ٢٩ و ٣٠ (القاهرة ١٩١٠)

(٣) سيبويه : الكتاب . ص ٣٤٢ جـ ٢ (القاهرة ١٣١٦)

بالعربية من سبيل آخر غير ما عرفنا فى تأثر الفارسية .

فالسلاجقة الذين عاش العثمانيون فى كنفهم كانوا تركا فى جنسهم فرسا فى لغتهم وأدبهم بل إن الفارسية ظلت لغة العثمانيين الرسمية إلى عهد السلطان مراد الأول المتوفى عام ١٣٥٩م. فتأثرت التركية بالفارسية فى أعماقها وأبعادها . ولما كانت الفارسية تتضمن كثيرا من الألفاظ والتراكيب العربية — دخلت العربية على التركية بالواسطة . وهنا نجد الفرق بيّنا بين تاثر اللغتين بالعربية فقد اختلط الفرس بالعرب وأخذوا عنهم لغة دينهم . وكان هذا الأخذ مستقيما مباشرا أما العثمانيون فورثوا السلاجقة فى ملكهم وثقافتهم . وكانت الفارسية قواما للثقافة عندهم . فأخذوا عنهم الفارسية والعربية ضمنا . ومست حاجتهم إلى التفقه فى دينهم فكان علمهم بالعربية حتما لازما . وكان عالمهم وأديبهم على علم بثلاث لغات هى التركية والفارسية والعربية . واصبحت لغة العلم والأدب عند الأتراك العثمانيين مزيجا من تلك اللغات وإن كان العنصر العربى هو الأرجح .

وقد عبر بعض الباحثين عن هذه الظاهرة بقوله إن العربية والفارسية والتركية فى واقع أمرها ثلاث لهجات للغة واحدة هى لغة الأدب الإسلامى(١)

كما قيل إن بلغاء الترك أقبلوا إقبالا شديدا على التباهى بثقافتهم الفارسية العالية ، فأفعموا لغتهم بكثير من الألفاظ الفارسية وكان من آثر ذلك أن تبرقشت لغتهم وأشرقت ديباجتها ، إلا أن هذا الرواء جعل التركية نسبتهم إلى فهم السواد فما مستطيع أن يفقه شيئا من نصوصها إلا قلة من الخواص(٢)

وهذا برهان قاطع على التقاء العربية بالفارسية فى التركية واندماج تلك اللغات الثلاث فى لغة واحدة .

وما كان بين العثمانيين والعرب فى أول أمرهم خلطة كما كان شأن العرب مع الفرس . ولا وجود للتركى المعرب كالفارسى المعرب ولا كانت العربية راجحة على التركية عند العثمانيين فى التعبير والتأليف . وإن ألف علماء وأدباء التركية بالعربية ،فى الأحايين إلا أنهم لم يبلغوا فى ذلك مبلغ الفرس . كما نظم بعضهم بالعربية . ولكن فرق بين ما نظموه ومانظمه الفرس فى كثرته وجودته .

واختلفت دلالة بعض الألفاظ العربية بعد دخولها التركية مثال ذلك كلمة ناموس . فإنها فى التركية بمعنى الشرف . وورم بمعنى دات الرئة . وكان الخط العربى هو الخط الذى كتب به العثمانيون وأدخلوا عليه حروفا

---

(١) Hachtmann : Europaische Einfliisse in der Türkei. S. 9 (Berlin 1918).

(٢) Menzel: Die türkische Literatur S 2289, Die Orientalischen Literaturen.(Berlin 1925)

يتأتى بها نطق حروف فى لغتهم ونطقوا الألفاظ العربية بلكنة الأعاجم شأنهم فى ذلك شأن الفرس :

واتسع الأتراك العثمانيون فى الفتح : وأصبح لهم السلطان فى بلاد عربية . وعايشوا العرب فى ديارهم . وكان أن أثرت التركية فى اللغة العربية الدارجة بخاصة : ومازال للتركية كيان فى العامية المصرية والعراقية وعامية أهل الشام . وحقيق بالذكر أن التركية دخلت على العربية العامية بكثير من الألفاظ والعبارات الفارسية التى تضمنتها وبذلك عقدت الصلة بين الفارسية والعربية العامية . وبقيت فى المصرية الدارجة بألفاظ فارسية نسيت فى لغة الترك مثل بس بمعنى كاف وطربوش وأصلها سربوش بمعنى غطاء رأس وكان مما تلبسه التركيات منذ مائتى عام . كما احتفظت لغة الحديث فى مصر بألفاظ تركية لا علم للترك اليوم بها مثل جزمه بمعنى حذاء وجردل بمعنى دلو ومزين بمعنى حلاق وزاحمت التركية بما حوته من فارسية لغة الشعب فى أسماء الأطعمة والأشربة والألبسة ومعظم ما يجرى على الألسنة دائرا بين الناس فى معاملاتهم : وللتركية الفاظ ما زالت فى لغة الدواوين والمدارس والمصانع : وهى اظهر فى الجيش واصطلاحاته العسكرية :

وللمصريات ولوع باختيار أسماء مستطرفة لبناتهن خصوصا . وهن يخترنها تركية أو فارسية مأخوذة عن التركية :

ومنذ خمسين عاما ظهر فى الترك اتجاه فكرى قومى لإحياء الحضارة التركية التورانية وذلك بقتلها بحثا ودرسا والاستعانة بها فى خلق روح جديدة وحماسة عارمة . وإعجاب بما كان للترك قبل الإسلام من سابقة فى المجد : وقد زعم على هذه النزعة ضيا كوك الب : فحض على أن يكون التعبير بتركية سلسة خلت من العربية والفارسية وكان ذلك ذهابا منه إلى إدخال الطابع القومى الأصيل والقضاء على الطابع الدخيل . ودعا إلى أن تكون التركية من عنصر واحد تركى لا يطمسه عنصران عربى وفارسى [1]

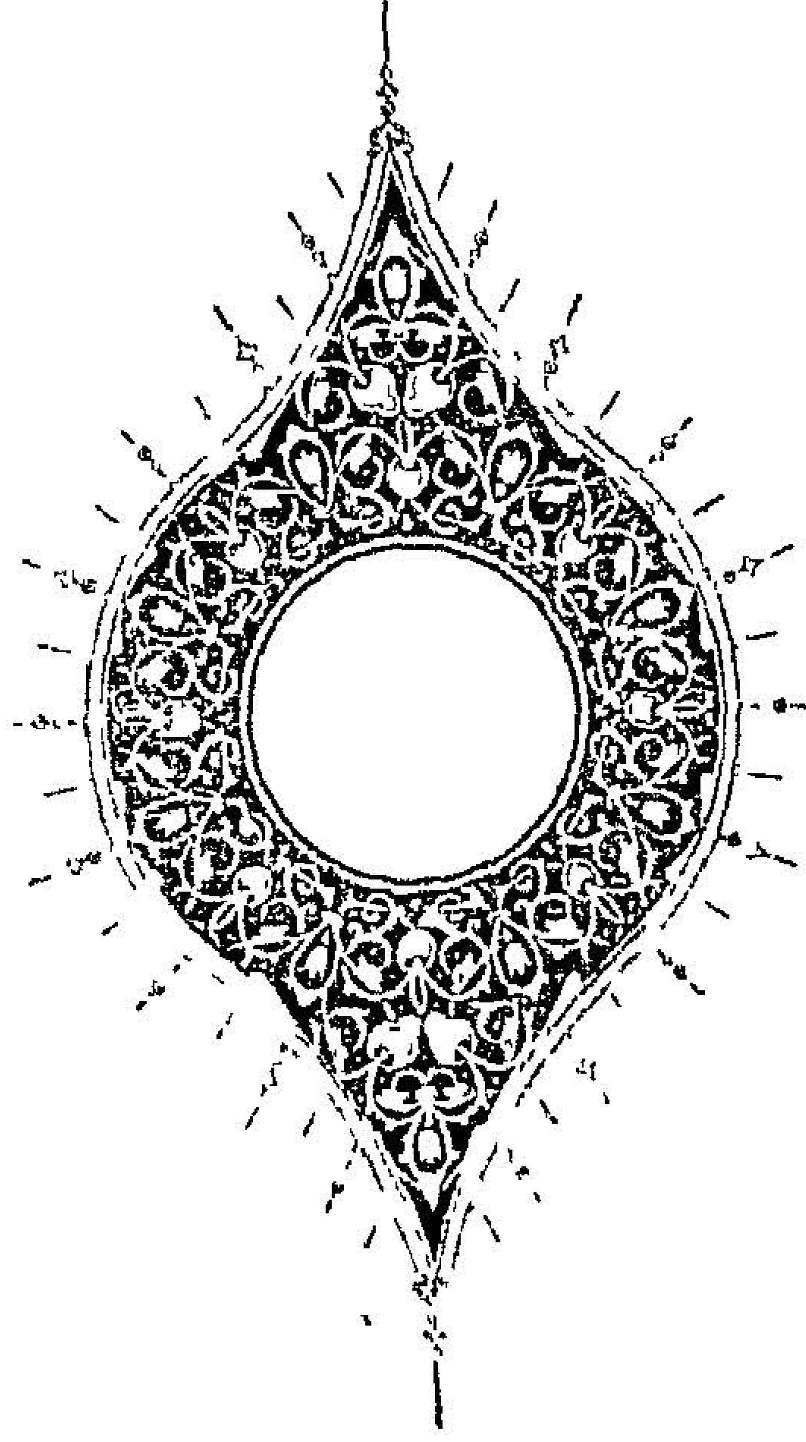
وجعل ضيا كوك الب يحرر المقالات وينظم الشعر ويؤلف الكتب فى مسعى لتأييد دعوته إلى أن مات عام ١٩٣٤ وصادفت فكرته هوى فى النفوس . فظهر الميل إلى تخليص التركية من العربية والفارسية وكان ذلك ضمن نزعة تجديدية عمت

---

(١) د . حسين مجيب المصرى . تاريخ الأدب التركى . ص ٥٠٤ (القاهرة ١٩٥٠)

مظاهر الحياة التركية وفى عام ١٩٢٦ أقر مؤتمر منعقد فى باكو أن تحل الحروف اللاتينية محل الحروف العربية . غير أن هذا التغير كان فى المظهر أوضح منه فى الجوهر وماذاك إلا أن الألفاظ العربية والفارسية وإن قلت عما كانت عليه فى سالف الأيام ظلت فى خط يستغلق وأشكلت قراءة الألفاظ العربية فيه بعض الشئ وكثيرا ما يقع القارئ فى اللبس امام كلمة عربية كتبت بحروف لاتينية : والترك من آنئذ إلى يومنا هذا يبذلون الوسع فى البحث عن ألفاظ تركية قديمة يستغنون بها عن الألفاظ العربية . ولكن مع كل هذا من جهدهم لم يستطيعوا القضاء المبرم على العربية فى لغتهم وجملة القول أننا فى العربية عند الفرس والترك . نلحظ كثرة من وجوه لتشابه وتخالف واتفاق :

دكتور حسين مجيب المصرى



حركة المعنى فى شعر المتنبى
بين السلب والإيجاب
للدكتور عز الدين إسماعيل

« ما كلُّ قولىَ مشروحاً لكم فخذوا
ما تعرفون ، وما لم تعرفوا فَدَعوا
حتى يصيرَ إلى القوم الذين غُذُوا
بما غذيت به ، والقولُ يجتمع »

عمار الكلابى

— ١ —

فكرتُ فى أن أبدأ حديثى هذا بتقرير أن المتنبى من أسعد شعراء العربية حظا – إن لم يكن أسعدهم – من حيث سيرورة شعره بين الناس على مدى يقرب من عشرة قرون ونصف قرن ، ولكننى ما لبثت أن أحجمت عن هذا التقرير حين أيقنت أن سعادته لم تتحقق فى يوم من الأيام ، وأن مأساته، أو بالأحرى شعره ، هو الذى أسعد قراءه طوال هذه الحقبة جيلا بعد جيل حتى يومنا هذا .

الحقيقة أن الشعر العربى لم يظفر بشاعر يملأ الدنيا ويشغل الناس على مدى هذا الزمن الطويل مثل أبى الطيب . والغريب فى أمره أن الناس لايقرأونه مرة ويفرغون بذلك منه ؛ فما أكثر مايعاودون قراءته المرة بعد المرة ، وإذا هم ابتعدوا عنه بعض الوقت عادوا – بحنين غريب وجاذبية قاهرة – إلى قراءته مرة أخرى .

هل مرجع هذا إلى شخصه ؟ أم إلى مأساة حياته ؟ أم إلى شيء غريب ومتفرد فى شعره ؟

ومع أن هذه العناصر الثلاثة لا يقوم كل منها مستقلا عن غيره ، بل تتداخل جميعا فى نظام موحد ، فإن شخص المتنبى فى ذاته ، أو مأساة حياته فى ذاتها ، أو هما معا ، لا يكفيان لصنع تلك الجاذبية ، أو إثارة ذلك الحنين ؛ فليس شخصه نمطا لا نظير له بين الناس ، وليست مأساة حياته مأساة متفردة فى تاريخ البشرية ، لكن الشيء الذى يبدو متفردا بحق هو شعره . فقارئ الشعر العربى لا يخطئ فى تمييز صوت المتنبى من بين كل الأصوات الشعرية التى سبقته أو عاصرته أو لحقت به .

وكل المهتمين بالشعر العربى قد قرأوا المتنبى — فى اعتقادى — أكثر من مرة . وفى اعتقادى أيضا أنهم أدركوا فى كل مرة أنهم يقرأون شعرا له تفرده ، بل ربما كان هذا التفرد ، أو كانت معرفتهم به ، أحد الدوافع التى دفعتهم إلى معاودة قراءته .

هذا التفرد الشعرى إذن لدى المتنبى حقيقة ملموسة إجمالا لدى المهتمين بالشعر العربى ، لا يمارى فيها أحد . على أن الإحساس بهذه الحقيقة — فى إجمالها — ليس شيئا جديدا يختص به أبناء عصرنا هذا ، فقد خامر نفوس الناس منذ البداية : منذ أن كان المتنبى نفسه مازال يضرب فى الحياة وينشد الأشعار . فقد أدرك معاصروه ومن جاءوا من بعده تفرد شعره وسط خضم الشعر العربى ، سواء من أحبه منهم ومن أبغضه .

ويمكننا أن نستشف هذا من قول العكبرى : « أجمع الحُذَّاقُ بمعرفة الشعر والنقاد أن لأبى الطيب نوادر لم تأت فى شعر غيره ، وهى مما تخرق العقول »(1) . ومن تعليق ابن جنى على بيت المتنبى الذى يقول فيه :

أرانبُ غير أنهمُ ملوكٌ
مُفتَّحةٌ عيونهمُ نِيامُ

حيث يقول : « المعهود فى مثل هذا أن يقال : هم ملوك إلا أنهم فى صورة الأرانب ، فتزايد وعكس الكلام مبالغة ،

(1) التبيان فى شرح الديوان ١ — ٦١

فجعل الأرانب حقيقة لهم والملوك مستعارا فيهم . وهذا عادة له يختص بها[1] .

ومدلول كلمة « نوادر » فى عبارة العكبرى واسع ، ولكن يكفينا على كل حال تقرير النقاد والحُذّاق بمعرفة الشعر القدامى : أن شعر المتنبى ينفرد بها . أما وصفهم لهذه النوادر بأنها « تخرق العقول » فوصف لا أظنه أُطلق على غير أشعار المتنبى . وهو وصف عظيم الدلالة بالنسبة لما نتحرك نحوه فى هذه الدراسة .

أما تعليق ابن جنى – بغض النظر عن تحليله البلاغى للبيت – فإنه يمس – جزئيا – ظاهرة عامة فى شعر المتنبى ، هى أنه شعر له خصوصياته ، وأن تكرار هذه الخصوصيات إنما يمثل « عادة » شعرية لدى المتنبى ، ينفرد بها بين الشعراء . ولا شك أن ابن جنى وغيره من الحذاق بمعرفة الشعر قد سجلوا – فى مواطن متفرقة – كثيرا من هذه « العادات الشعرية الخصوصية » لدى المتنبى .

ويكفى أن أذكر الآن – على سبيل المثال – تلك الواقعة التى يحكيها ابن جنى نفسه فيقول : « قلت لأبى الطيب فى بعض ما كان يجرى بينى وبينه : إنك تستعمل لفظ « ذا » و « ذى » فى شعرك كثيرا . فأمسك عن ذلك ولم يجب »[2].

وهذه الواقعة تروى فى سياق الحديث عن نقد ابن جنى لصديقه المتنبى . على أن قليلا من التأمل فيها يدلنا على أن ابن جنى لم يكن فى موقف نقد بقدر ما كان ملاحظا لخصوصية من خصوصيات شعر المتنبى ، أو عادة من عادات المتنبى الشعرية .

ومن هذه الواقعة ، ومن الشاهدين السابقين ، نستطيع أن ندرك أن القدامى قد أحسوا بتفرد شعر المتنبى ، وأنهم حاولوا – بطرقهم الخاصة – رصد مظاهر هذا التفرد . ومن استقراء شواهدهم يتضح لنا أنهم اتجهوا فى هذه المحاولة (وفقا لمنهجهم فى التحليل) مرة نحو نوادر معانيه ومرة نحو خصائصه الأُسلوبية . لكن هذه المحاولة كانت محكومة منذ

---

(١) المصدر نفسه ٤ – ٧٠

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمى : تنبيه الأديب ، على مافى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب ، ص ٦٤

البداية وحتى العصور المتأخرة بمنهج بلاغى يقوم على مجموعة من القواعد الشكلية الثابتة ، التى يتخذ منها الناقد أساسا عاما للنظر والوصف والتقدير . ومن ثم تصبح ظاهرة تفرد شعر المتنبى ، التى أحس بها نقاد الشعر قديما كما نحس بها اليوم ، تصبح على أيديهم بالضرورة موضوعا لهذا المنهج الشكلى ، الذى يقدم التفسير لها وفقا لمعطياته الثابتة . وعلى نحو آخر نقول : إنهم حاولوا فحص ظاهرة تفرد شعر المتنبى فى ضوء مجموعة من الاعتبارات البلاغية المقررة الثابتة ، أى أرادوا فهم « التفرد » فى إطار « المألوف ». وهم بذلك قد أحالوا المتفرد إلى المعروف ؛ بدلا من أن يحاولوا فهم المتفرد من داخله ، أى بدلا من الكشف عن قوانينه الخاصة .

وعلى سبيل المثال نشير إلى ما علق به الثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » على البيت الذى يقول فيه المتنبى :

أزورهمْ وسوادُ الليل يَشفَعُ لى
وأنْثَنى وبَياضُ الصبح يُغرى بى

حيث يقول : « هذا البيت أمير شعره ، وفيه تطبيق بديع ،ولفظ حسن ، ومعنى بديع جيد . وهذا البيت قد جمع بين الزيارة والانثناء والانصراف ، وبين السواد والبياض ،والليل والصبح ،والشفاعة والإغراء ، وبين « لى » و « بى ». ومعنى المطابقة أن تجمع بين متضادين كهذا » .

وفى وصف الثعالبى هذا البيت فى مستهل كلامه بأنه أمير شعر المتنبى ما يدل على أن الرجل قد أحس أنه بإزاء كلام غير مألوف . وأنه يتفرد حتى بالنسبة لسائر شعر الشاعر . وهو إحساس صادق من غير شك ،لا نملك إلا أن نقره عليه ، ولكنه عندما راح يفحص وجه التفرد فى هذا البيت لم يجد من الوسائل ما يسعفه سوى المعطى البلاغى المسمى بالمطابقة ، فوجد تقابلا ، أو تضادا– كما يقول – بين كل لفظ فى الشطر الأول وموازيه فى الشطر الثانى . وبتحقق هذا التطابق التام بين شطرى البيت تحققت جودته ، وكأنه هو سر تفرده . والواقع أن هذه المطابقة لا تصنع لبيت المتنبى أى تفرد ، بل تجعله واحدا من أبيات

(١) التبيان ١ – ١٦١

لا حصر لها من شعر الشاعر نفسه وأشعار غيره ، يتحقق فيها هذا التطابق الشكلى على هذا النحو . ومع أن التطابق يلحظ ما بين معنى الكلمة ومعنى مقابلتها من تضاد فإن علاقة التضاد هنا كما رصدها الثعالبى علاقة شكلية ، مثلما يستدعى النقيض نقيضه فى أى تداع حر .

وهكذا استحال البيت ، الذى هو « أمير شعر » الشاعر ، إلى مجموعتين من الألفاظ المتضادة المعا . ولكن هل كان كل هم المتنبى هو أن يحشد بيته هذه الألفاظ المتضادة فى المعنى ؟ وهل هذا — لو صح — يكون مصدر براعة منه ، فضلا عن أن يكون علامة تميز وتفرد ؟

الواقع أننا لو تعاملنا مع هذا البيت على هذا المستوى لما استحق أن يكون شعرا أصلا ؛ لأنه لا يمثل عندئذ إلا ضربا من المهارة اللغوية ، ومعرفة واسعة بمفردات اللغة .ولم يكن المتنبى تنقصه المهارة اللغوية ، والخبرة الواسعة باللغة ، ولكن الدلالة عليهما أو الإدلال بهما لم يكن منتهى غايته من الشعر . فقد كان الشعر بالنسبة إليه — أو هكذا هو كما يبدو لنا — أداة للكشف عن الأبنية الجوهرية للحياة من خلال ما يتراكم من تفصيلاتها وجزئياتها .

وعلى هذا الأساس يصبح التقابل الحقيقى الذى أقام عليه بناء ذلك البيت هو التقابل بين عنصرى القوة والضعف حين يتمثلان فى حياة الإنسان. فسواد الليل عنده تجسيم مألوف لمرحلة الشباب فى حياة الإنسان وبياض الصبح تجسيم مألوف لديه كذلك لمرحلة الشيخوخة . فالسواد والبياض هنا هما سواد الشعر وبياضه . وهذه الدلالة مألوفة بلاشك فى تراث اللغة الشعرى ، ولكن المتنبى جاوزها هنا مرتين : مره حين انتقل من سواد الشعر وبياضه إلى الشباب والشيخوخة ، ثم مرة أخرى — وهى الأهم — عندما انتقل من الشباب والشيخوخة إلى القوة والضعف . ومع القوة الشجاعة التى قد تصل أحيانا إلى المغامرة التى لا تؤمن عقباها ،ومع الضعف التخاذل والانطواء وقبول المهانة .

ولا نريد أن نمضى الآن إلى أبعد من هذا فى الحديث عن البناء المعنوى لهذا البيت ونحن لم نشرح بعد وجهة نظرنا فى منهج المتنبى فى بناء المعنى . وكل ما قصدنا إليه هنا هو الدلالة على أن المنهج الذى عالج به القدامى ما أحسوه من تفرد

شعر المتنبي كان بطبيعته قاصرا ، فلم يتجاوز ملاحظة الظواهر الشكلية التي لا تمثل بحال من الأحوال الهدف النهائي لشعر الشاعر .

ثم نعود الآن فنتساءل : هل كان المتنبي نفسه مدركا لتفرده في الشعر ؟وعلى أي نحو ؟ وبعبارة أخرى نقول : هل كان يعرف موطن تفرده في هذا الضرب من النشاط الإنساني ؟

ولا أحسبنا في حاجة إلى التوقف عند الشواهد الكثيرة من شعره ، التي يعلن فيها في صراحة مشوبة بكثير من الاعتزاز بالنفس ، تفرده في عالم الشعر . ونكتفي الآن بالوقوف عند شاهدين له : الأول قوله :

أَبِيتُ مِلْءَ جفوني عن شَوارِدِها
ويسْهَرُ الخلقُ جرَّاهَا ويختصمُ

فهذا القول صريح في دلالته على إدراكه لكون ما يقول من شعر غير مألوف لدى الناس صدوره عن غيره من الشعراء؛ فلو أنه كان من المألوف لما احتاج الناس إلى سهر الليالي وكد الأذهان في سبر أغواره واستخراج مراميه ، دون أن ينتهوا بعد كل هذا العناء إلى الإدراك السليم لهذه المرامي ، أو الاتفاق على فهم موحد لأهدافه . أما اعتزازه بنفسه فتدل عليه كذلك لا مبالاته بمآزقهم التي وضعهم فيها ، وتنعمه بالنوم العميق في حين هم ساهرون مؤرقون. والشاهد الثاني قوله :

أُراقِصُ مُعْوِصَاتِ الشِّعرِ قسْرا
فأَقتلُها ، وغيرى في الطِّرادِ

والعنصر المشترك بين هذين الشاهدين ، والماثل في سائر الشواهد ، هو أن المتنبي لاينظر إلى نفسه وقدراته بمعزل عن الآخرين ، بل هم دائما حاضرون في إطار الصورة ، يكونون شطراً كاملا منها . وهو لايصنع هذا دائما (فقد صار هذا « عادة » من عاداته الشعرية — كما سيتضح فيما بعد) إلا لكي يبرز تميزه وتفرده بالقياس إلى الآخرين .

وفي هذا الشاهد الثاني يحدد المتنبي موطن تفرده فإذا هو في مجال العويص من معاني الشعر . فهو يظل بهذه المعاني العويصة النافرة حتى يخضعها ويمسك بأزمتها ، في حين يلهث وراءها الآخرون دون جدوى . وهو لايبذل في تحقيق هذا

جهداً كبيراً ؛ لأنه ألف هذا العمل .
أما قوله : قسرا ، فيدل على اقتداره ؛ وعلى إدراكه لهذا الاقتدار .

المتنبي إذن يعى جيدا مجال تفرده بين غيره من الشعراء ، وهو المعانى – الرسالات ؛ التى لايقدر على الغوص إليها واستخراجها وتجليتها أحد من الشعراء بمثل قدرته . وبقدر ما يسهل عليه القيام بهذه المهمة ، حيث صارت معتادة له . تقف هذه المعانى أمام الآخرين « خارقة لعقولهم » ، لا لشئ إلا لأنها خارقة لعاداتهم فى التفكير ، محملة برؤى لم تخطر لهم ، لأنها تتجاوز قدراتهم . ومن أجل هذا أحسوا إحساسا عاما بتميزه وتفرده ، ولكنهم لم يستطيعوا الوقوف على أسرار هذا التميز أو التفرد .

وقد قيل قديما إن الشاعر أعرف بالشاعر . وسواء صح هذا القول على إطلاقه أم لم يصح فإن أحداً ممن تحدثوا قديما عن موطن تميز الشعر لدى المتنبي لم يقرر الحقيقة بالوضوح أو الحسم الذى قررها به المظفر الطبسى حين عرف بمقتل المتنبي فرثاه بأبيات جاء فيها :

ما رأى الناسُ ثانىَ المتنبِّى
أىَّ ثانٍ يُرى لِبِكْر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيش –
وفى كبرياءِ ذى سلطان
هو فى شعره نَبىٌّ ولكن
ظهرت معجزاته فى المعانى

فالطبسى هنا إذ يقرر تفرد المتنبى يعلن أنه شاعر النبوءة ، ويحدد تحديداً قاطعا أن مجال المعانى هو موطن إعجازه وتفرده . ونبوءة الشعر التزام ورسالة بقدر ما هى مجاوزة للمألوف ، وكشف للحقائق الجوهرية ، وصياغتها فى نسق أو نظام متكامل .

– ٢ –

هكذا تقودنا كل الشواهد إلى القول بأن حقيقة ما يجذبنا فى شعر المتنبي ويأسرنا إليه هو عالم المعنى عنده أولا وقبل كل شيء . وكما أكدنا من قبل أننا لا ننفى الترابط الوثيق بين شعر المتنبي وشخصه ومأساة حياته ، وأننا – على العكس – نرى فى هذه العناصر الثلاثة تلازما وترابطا وثيقا فى نظام أو بنية موحدة ، فإننا نؤكد هنا كذلك أن عالم

المعنى الذى دلتنا الشواهد على أنه موطن التميز والتفرد فى شعر المتنبى لا ينفصل بحال عن طريقة أداء هذا الشعر ، وعن الوسائل المختلفة التى استخدمت فى هذا الأداء . فعالم المعنى ، وطريقة الأداء ، ووسائل هذا الأداء ، تترابط كذلك ترابطا وثيقا فى نظام أو بنية موحدة هى الشعر .

فإذا نحن قصرنا النظر هنا على عالم المعنى عند المتنبى فلأنه موضع التميز والتفرد أولا ، ولأننا نريد أن نستكشف أسرار هذا العالم ثانيا . وليس أشق من أن يتعامل المرء مع المعانى ، حيث تتراجع وظائف الحواس وتصبح مجرد وسائل تقريبية . ولكن ييسر علينا هذه المشقة ما نهدف إلى تحقيقه ونراه قد صار ضرورة ملحة ، وهو فهم المنطق الذى يتحرك به عقل المتنبى فى عالم المعنى ، والقوانين الأساسية التى رآها تحكم تركيب الحياة والوجود الإنسانى على السواء .

ولنبدأ الآن فى تحديد السمة العامة التى تميز عالم المعنى عند المتنبى عنه عند غيره من الشعراء .

والحق أن النقاد منذ القدم قد عرفوا أن من الشعراء طرازا يتميز بالاهتمام فى الشعر بالمعانى فى المحل الأول ، ومن ثم أطلقوا عليهم صفة « شعراء المعانى » وربما كان أبو تمام والمتنبى أبرز شاعرين من هذا الطراز . وقد كان لهؤلاء الشعراء الفضل فى أنهم أثبتوا فساد نظرية المعنى التى روجها الجاحظ فى أن المعانى ملقاة فى الطريق ، يعرفها العربى والعجمى ، وأن المعول فى الشعر على حسن السبك وإتقان اللفظ . لقد دلل هؤلاء الشعراء على أن عالم المعنى لا نهائى ، وأن الكشف عنه لا ينتهى .

والذى يعنينا هنا أن نتبين ما يخالف به المتنبى غيره من الشعراء فى منهج بنائه للمعنى وفقا لمنهج رؤيته للحياة والأشياء .

وقد اجتهد نقاد المتنبى وشراح ديوانه فى تسجيل المعانى التى وقع عليها وكان قد سبقه إليها بعض الشعراء. وفى تقديرنا أن هذه المواطن هى أصلح النماذج التى يمكن أن تكون موضوع الموازنة المطلوبة . على أن هذا الباب لاينتهى ، وإنما يغنى قليله عن كثيره .

لقد لاحظ شراح المتنبي – على سبيل المثال – أن بيت المتنبي الذى يقول فيه :

وأسرعُ مفعولٍ فعلت تَغَيُّراً
تَكَلُّفُ شيءٍ فى طباعِكَ ضِدُّهُ

هو كقول الأعور :

ومن يقترفْ خُلقا سوى خلق نفسه
يدَعْهُ وتغْلِبْهُ عليه الطبائعُ

وقد يكون بين البيتين – فى النظرة العامة – تشابه ، ولكن الحقيقة أن الفرق بينهما يتضح فى أكثر من موطن . فالأعور يحدد العلاقة بين الطبعين الأصلى والمتكلف بالمغايرة ، فى حين يحددها المتنبي بالتضاد . فمجرد مغايرة الطبع المكتسب للطبع الأصلى لا تحتم ترك الطبع المكتسب؛ إذ يمكن أن يتعايش المتغايران ويتكيفا مع الوقت فى وحدة منسجمة آخر الأمر . ولكن علاقة التضاد بين الطبعين تفترض بينهما اصطداما عنيفا . وهو اصطدام لا يحسم منذ اللحظة الأولى ، بل يستمر الضدان فى تنازع بعض الوقت ، يتسلط فيه الطبع الأصلى شيئا فشيئا حتى يتم العدول عن الطبع المتكلف .

وترتيبا على هذا يبدو وجه آخر للاختلاف بين المعنيين هو أن الطبع المكتسب – عند المتنبي – يتغير من مغالبة الطبع الأصلى له . وهو تغير يتم بطريقة سرية فى نفس الشخص ، دالا بهذا على الصراع الخفى الذى يدور بين الطبعين ، فى حين يبدو أمامنا الشخص الذى اقترف خلقا غير خلقه عند الشاعر الآخر وقد عدل عن هذا الخلق (يدعه) بوعى منه .

والخلاصة أن المتنبي يقفنا على طبيعة العملية التى تتم فى داخل نفس الشخص حين يصطنع طبعا مضادا لطبعه ، فى حين يصور لنا زميله الأمر كما لو كان تصورا أو فرضا ذهنيا صرفا . وبعبارة أخرى نقول إن المتنبي يقتنص المعنى بوصفه نتيجة لعدد من الفعاليات المتعارضة والمتصارعة ، ويبصر به متغلغلا فى نسيج الحياة وممثلا لبعض قوانينها ، فى حين يراه زميله مجرد تركيبة تصورية ، أو بالأحرى « صورية » ، لها إقناع المنطق وليس لها بالضرورة صدق الواقع .

وأيضا فقد قال أبو تمام :

هو الصُّنْعُ إنْ يَعْجلْ فخيرٌ وإن يرثْ
فللرَّيْثُ في بعض المواضع أَنْفَعُ

أخذه أبو الطيب[1] – كما يقال – فقال :

ومن الخير بطءُ سَيْبكَ عنى
أَسْرعُ السُّحْبِ في المسير الجهامُ

فأبو تمام يرى أن الصنع خير إن تحقق له وشيكا ، وأنه خير كذلك إن تأخر ؛ لأن التريث في بعض الحالات يكون أجدى من الإسراع .

والمتنبي لم يتحدث إلا عن قضية التريث ، فرأى أن إبطاء الممدوح فى تقديم عطاياه إليه من الخير . وإلى هنا يبدو متفقا كل الاتفاق مع أبي تمام . وفى حين يتقرر هذا المعنى فى ذهن أبي تمام على نحو تجريدى ، تقف الظاهرة الطبيعية ماثلة لعينى المتنبي أو لنفسه لكى تؤكد القضية عن طريق معكوسها . فإذا كان القانون الطبيعى يقول إن أسرع السحب فى المسير هو قليل المطر أو الذى لا مطر فيه ؛ فإن البطىء منها هو الكثير العطاء . فإذا نقلنا هذا القانون لكى نطبقه فى حالة الممدوح أصبح الإبطاء قرين العطاء الوفير ، وهو بذلك فى صالح الشاعر .

أبو تمام يصوغ الحقيقة مجردة بمعزل عن الوجود الحى المعاين ، والمتنبي يستنبطها من ملاحظة الظاهرة الطبيعية بطريقة معكوسة . فإذا كانت الظاهرة تقول إنه لا خير فى السرعة فإن معكوسها يقول إن الخير فى البطء ، وهو المراد . والمتنبي لم يقرر صراحة أن الخير فى البطء بل قرر أن لا خير فى السرعة . وهو ما تنطق به الظاهرة الطبيعية التى سجلها فى الشطر الثانى من البيت . على أنه لم يقرر أنه لا خير فى السرعة لأن هذه هى على التحديد القضية المطروحة ، وإلا فإن القضية المعلنة ابتداءً فى صدر البيت هى أنه من الخير البطء والتريث . فكيف إذن تلتقى القضيتان فى رأس المتنبي ؟ إنهما تلتقيان على مستوى درامى من الطراز الأول ، وكأن هناك حوارا خفيا بين

(١) تنبيه الأديب – ٣١٠

الشاعر وممدوحه ، أو – فى الحقيقة – بين الشاعر ونفسه . فنحن نستمع فى البيت إلى صوتين : صوت يقول للشاعر : ماذا لو تأخر عنك الممدوح فى العطاء ؟ فيجيبه الثانى مهونا من هذا الخاطر المزعج : من يدرى ، ربما كان تأخره أفضل ! فيعود الصوت الأول ليسأل : ألم يكن الأفضل لو أنه بادر بعطائه ؟ فيجيبه الصوت الثانى قائلا : فى هذا الطر ، فإنه لو بادر لما أعطى شيئا يستحق الذكر ، فلم التعجل إذن إذا كان التريث أفضل ؟

وهكذا تصبح القضيتان وجهين لعملة واحدة ، يختلفان ظاهراً ولكنهما يتكاملان فلا يقوم أحدهما إلا مرتبطا بالآخر .

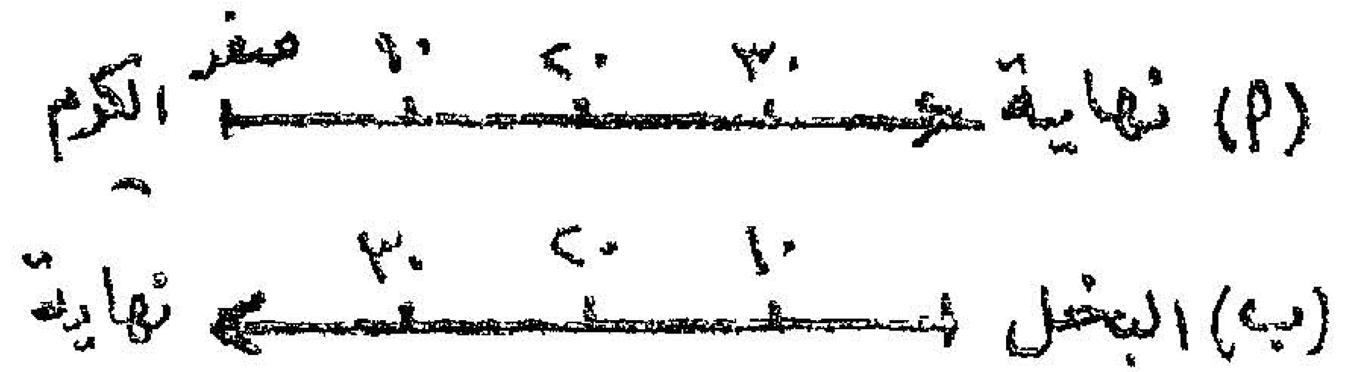
والخلاصة أن المتنبى إنما يدرك المعنى مرتبطا بالفعاليات المختلفة فى تلاقيها أو فى اصطدام بعضها مع بعض أو فى تنافرها وانسلاخ بعضها من بعض . وهذا الأسلوب فى الإدراك قد يتمثل أحيانا لدى شعراء آخرين من شعراء المعانى كأبى تمام وابن الرومى وغيرهما ، ولكنه نادر ، فى حين أنه يمثل الطراز الفكرى المألوف للمتنبى .

ويترتب على هذه الحقيقة أمران يزيدانها وضوحا بقدر ما يؤكدانها :

الأمر الأول هو أنه ليست هناك معان مجردة أو مطلقة عند المتنبى . ومن ثم فليس هناك – من منظوره – معنى واحد ثابت للشىء ، بل يخضع هذا المعنى المتغير مع تغير العلاقات بين الأبنية الظاهرية للأشياء .

والأمر الثانى أنه لا يمكن إدراك معنى لشىء مفرد قائم بذاته ، بل يتحدد المعنى دائما فى حضور المعنى الآخر . فالجميل – مثلا – لا يتحدد فيه معنى الجمال إلا من خلال رؤية القبيح . ومن ثم يمكن أن تنسلخ الأشياء من معانيها المألوفة لها إذا هى وضعت فى مقابل أشياء أخرى يكتمل فيها تحقق هذه المعانى . فإنسان ما كريم يصبح بخيلا بالقياس إلى آخر يتحقق فيه النمط الأعلى من الكرم . فالكرم والبخل إذن ليسا معنيين متقابلين ومنفصلين تقوم بينهما هوة من الفراغ

بل هما خطان متوازيان فى اتجاه متعاكس ، يتصاعد فيهما كل منهما فى اتجاهه الخاص . والشكل التالى يوضح المقصود :



فأى خط يقطع هذين المتوازيين يمر بنقطتين متقابلتين من الكرم والبخل ، تتناسب فيهما كمية الكرم والبخل عكسيا ، فكلما زاد الكرم قل البخل ، إلى أن تصبح نهاية الكرم لا شيء من البخل (صفرا) ، أو تصبح نهاية البخل لا شيء من الكرم (صفرا) . فإذا كان التقاطع عند خط ١٠ أ مع خط ٣٠ ب كان من الواضح أن نسبة $\frac{١٠ أ}{٣٠ ب}$ هى المعكوس الكمى لنسبة $\frac{١٠ ب}{٣٠ أ}$ ومن ثم يبدو الكرم والبخل نسبيين . وكذلك الأمر فى سائر المعانى أو القيم .

— ٣ —

وإذا كانت المغايرة بين وضعية المعنى لدى المتنبي ووضعيته لدى غيره من الشعراء قد أصبحت شيئا محققا فإن هذا يدعونا إلى تمثل السمات المميزة لعقليته ولمنهجه فى التفكير : قبل أن نرى الأشكال المختلفة التى يتحرك بها المعنى فى رأسه أو فى شعره .

وبعد كثير من التأمل والمراجعة تحقق لدينا أن عقلية المتنبي عقلية جدلية بأدق المعنى ، فضلا عن كونها قلقة إلى حد التمزق ، متوترة على الدوام .

وفى وسعنا أن نوحز المظاهر السلوكية لهذه السمات العقلية عنده فيما يلى :

أول شيء أن المتنبي لا يفكر — بعامة — فى معزل عن الأشياء . ومن ثم فإن المعانى التى ينتهى إليها هى وليده جدل مباشر بينه وبين هذه الأشياء ، أو نتيجة إدراك منه لهذا الجدل بين بعضها وبعض . وحرصه الشديد على حضوره الشخصى فى قلب المعنى يؤكد هذه الحقيقة بقدر مايفسرها ، ولذلك يندر لديه الفكر التجريدى الصرف .

والشيء الثانى أنه لا يفكر فى الأشياء فى اتجاه واحد ، لأنه لا يعترف بأن للشيء وجها واحدا . وأيضاً فإن قابلية الأشياء فى منظوره للتغير المستمر ، وإدراكه الواعى لما يكون هنالك من جدل

حاد بين ظاهرها وباطنها ، يجعله حريصا على تقليب النظر ومراجعة النفس بين آونة وأخرى .

والشيء الثالث ، وهو متصل بسابقه ، أن البنية الجدلية للحياة وللوجود قد انعكست على عقليته ؛ فإن منهجه فى التعامل مع الأشياء لم يتبلور إلا من خلال اصطدامه العنيف بالعيان ، وكما كشفته له التجربة العريضة الدائبة . وإذا كانت الأشياء – كما دلته التجربة – قد اختلت وفقدت توازنها ، فلا أقل من أن يحاول إعادة التوازن إليها فى داخله .

وينتهى بنا هذا إلى العنصر الأخير وهو أن ارتباطه بالشعر كان أمرا طبيعيا بل ضروريا له . لأنه عن طريقه يستطيع أن يعيد تركيب الأشياء فى بنية متوازنة ، حيث يستمتع الشعر – أكثر من أى نوع آخر من أنواع الأدب – بالحرية الكاملة فى التعامل مع الأشياء ، وفى تفتيت علاقاتها الشكلية المعهودة ، وسلكها فى علاقات جديدة .

– ٤ –

ولننظر الآن – ونحن نقترب من التشخيص النهائى لحركة المعنى عند المتنبى – فى بعض مواقفه من الحياة ، لننظر ماذا رسبته التجربة فى ذهنه من القوانين التى تحكمها .

وفى قصيدة له يعزى بها سيف الدولة فى عبد تركى له يقول :

سُبقنا إلى الدنيا ، فلو عاش أهلُها
مُنِعنا بها من جيئةٍ وذهوبِ
تملَّكها الآتى تملُّكَ سالبٍ
وفارقها الماضى فراقَ سليبِ

فهو يرى أن الآتى إلى الحياة سالبا لها من غيره ، والمفارق لها إنما يفارقها لأنها سلبت منه . هناك إذن صراع خفى بين قوتين تحكمان الوجود الإنسانى فى الحياة ، إحداهما إيجابية والأخرى سلبية ، الأولى تمثل القوة والتغلب والتملك ، والأخرى تمثل التخاذل والعجز والانسحاب . ومع أن حياة الإنسان التى تبدأ بالقوة والعنفوان والسلب تنتهى بالتخاذل والعجز والانسحاب أمام القوة الفتية الجديدة ، فإن مبدأ السالب والمسلوب يظل هو القانون القائم على الدوام ، الذى يحكم هذا النظام .

العنفوان والتملك إيجاب ، والتخلخل والانسحاب سلب . وحياة الإنسان هى حركة من الإيجاب إلى السلب ، ولكن هذه الحركة تجمع فى مراحل الطريق المختلفة بالنسبة للإنسان بين نسب متعاكسة كميا من الإيجاب والسلب ، يبدأ الصراع بينهما منذالبداية ، ويستمر حتى النهاية .

وفى قصيدة أخرى يقول أبو الطيب :

أبداً تستردُّ ماتهبُ الدنيا —

فياليت جودَها كان بخلاً

وهنا يختلف المنظور . ففى الشاهد السابق هناك عملية أخذ وعملية تخلٍّ تمثلان الإيجاب والسلب ، وهنا تتمثل عملية إعطاء وعملية استرداد تمثلان كذلك الإيجاب والسلب .

لقد نظر المتنبى فى هذين الشاهدين المتباعدين فى شعره إلى الحقيقة من وجهيها : مرة من جهة الإنسان فرآه آخذاً وتاركا ، ومرة من جهة الحياة نفسها فرآها مانحة للإنسان ومستردة منه مامنحت . والدورة فى الحالين مستمرة . الحياة مرة هى صاحبة الفعل ، والإنسان مرة هو صاحب الفعل ، فى الإيجاب والسلب على السواء . والإنسان والحياة معا وجهان متقابلان لحقيقة واحدة ، هى التنازع المستمر بين الإيجاب والسلب .

ويقول المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

ومن صَحِبَ الدنيا طويلاً تَقَلَّبَتْ

عَلَى عَيْنِهِ حتى يَرَى صِدْقَهَا كَذِبَا

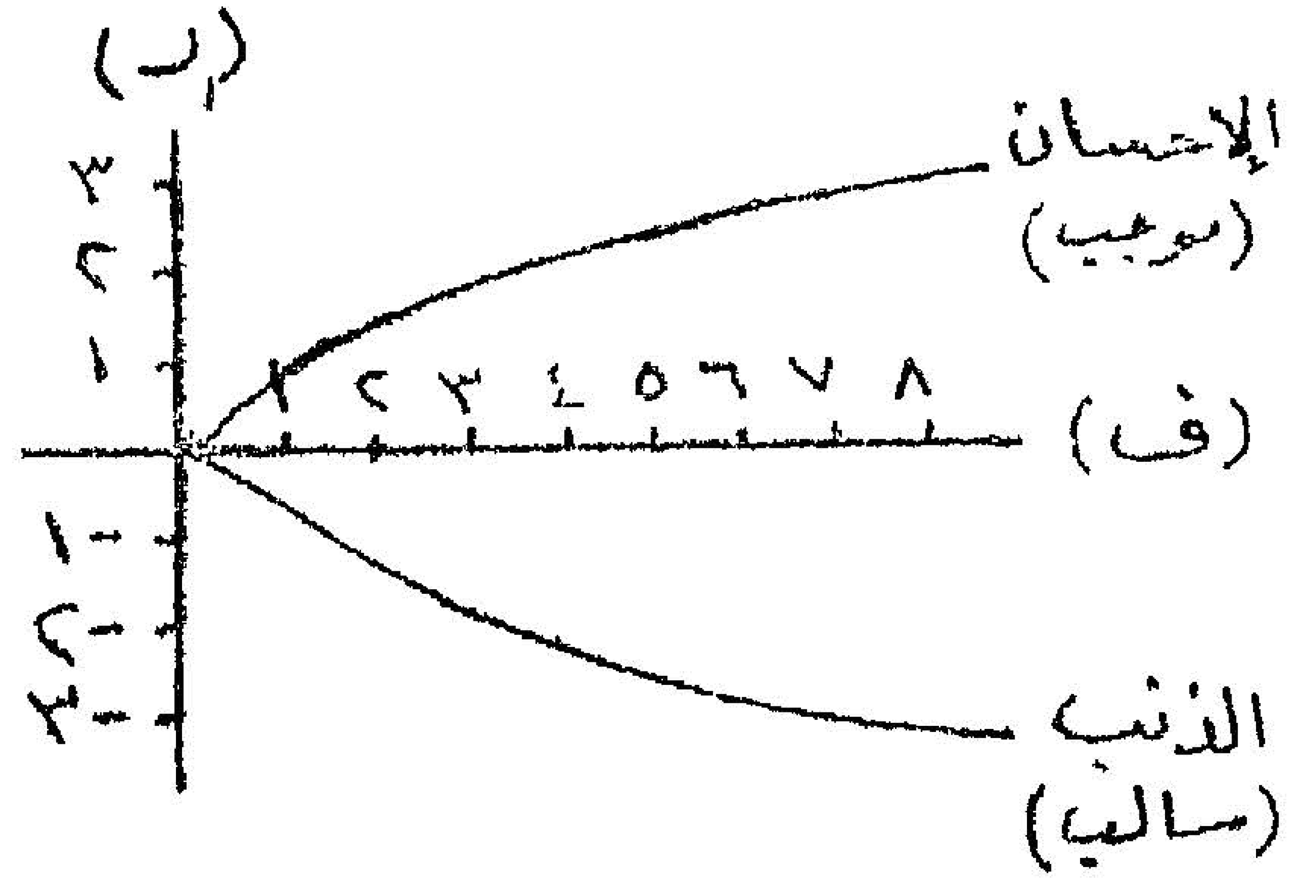
وهو هنا يعنى أن طول التمرس بالحياة يقف الإنسان منها على وجوهها المختلفة التى تبدو فيها بين الحين والحين . وهنالك يدرك أن ما كان يخيل إليه أنه فضيلة فيها يمكن أن يكون رذيلة ، وأن حقيقة ظاهرها تخالف حقيقة جوهرها . والمهم أن تكون عينه مفتحة ونفسه يقظة لإدراك ذلك منها ، وإلا فإن أكاذيبها قادرة على خداعه . وليس له أن يطمئن إلى نفسه قبل أن يكشف هذه الأكاذيب . وهنالك يدرك — كما أدرك المتنبى — أن ما هو إيجاب فيها يمكن — من منظور آخر — أن يكون سلبا ، وأن ظاهر أمرها لايمكن أن يمثل حقيقة جوهرية ثابتة .

ويقول المتنبي من قصيدة له فى سيف الدولة :

ويختلف الرِّزْقانِ والفِعْلُ واحدٌ
إلى أنْ يُرى إحسانُ هذا لِذَا ذَنْبَا

وهو فى هذا البيت يقرر حقيقة رياضية من الطراز الأول . ويمكن التعبير عن معنى البيت بمعادلة تمثل علاقة بين الفعل والرزق . وإذا رمزنا إلى الفعل بالرمز « ف » والرزق بالرمز « ر » فإن العلاقة تكون : ر ٢ = ف (حيث « ف » تمثل الفعل و « ر » تمثل الرزق) .

ذلك أن لكل قيمة من قيم ف حلين ، أحدهما موجب والآخر سالب ، كما يبدو من الشكل التالى :



ف	١		٤		٩	
ر٢	-١	١	-٢	٢	-٣	٣

فإذا أخذنا قيما مختلفة من ف وحسبنا القيم التي تحقق المعادلة من ر وجدنا أن لكل قيمة من « ف » قيمتين تقابلانها من « ر » وتحققان المعادلة ، تكون إحداهما موجبة والأخرى سالبة .

فمثلا لو كانت ف = ٤ تكون هناك قيمتان لـ « ر » تحققان المعادلة وهما ٢ ، و (- ٢) ؛ لأن مربع كليهما يساوى ٤ . ((٢ × ٢) = ٤ ، (- ٢ × - ٢) = ٤)

فإذا كان « فعل » ما قيمته ٤ كانت له من حيث « الرزق » قيمتان إحداهما موجبة وهى ٢ (الإحسان) ، والأخرى سالبة (- ٢) (الذنب) .

وهكذا يكون الشيء واحدا وتختلف نتيجتاه . وأيضا فهناك الحالة الأخرى التي يكون فيها الشيئان متباعدين وإن اتفقا فى الصفة — كما سنرى فيما بعد .

ولننظر الآن كيف تتحول المعانى — القيم إلى ما يعاكسها عندما تسلك فى علاقات جديدة غير التي ارتبطت بها من قبل .

قال المتنبي يمدح على بن منصور :

شَادُوا مناقِبَهُمْ وشدْتَ مناقِبا
وُجِدتْ مناقِبهم بهنّ مثالِبا

فلهؤلاء مناقبهم التى يحق لهم أن يعتزوا بها ويفخروا . وتظل هذه المناقب محتفظة بقيمتها ما دامت تنسب إليهم . ولكنها لو أُدخلت فى علاقة جديدة مع مناقب الممدوح تغير الأمر . وكذلك الحال إذا هى نظر إليها من خلال مناقب هذا الممدوح ؛ فسواء دخلت هذه القيم فى علاقات جديدة أو أُدخلت فيها فإن النتيجة واحدة ، هى أنها تتغير إلى حد أنها تنقلب إلى ضدها ، فما كان يعد من قبل منقبة يصبح نقيصة ، وما كان مزية يصبح عيبا .

وفى هذا الاتجاه يمكننا أن نفهم قول المتنبى فى قصيدته التى يمدح بها أبا أحمد عبيد الله البحترى المنبجي :

أَراهُ صغيراً قَدْرُها عُظْمُ نفسه
فما لعَظيم قَدْرُهُ عِنْدَهُ قَدْرُ

فالأشياء العظيمة إذا قيست بعظمته بدت صغيرة ؛ أى أنها تنقلب من خلال هذه العلاقة الجديدة إلى ضدها .

وكذلك قوله يمدح على بن أحمد بن عامر الأنطاكى :

وأَسْتكْبِرُ الأَخبار قبل لقائه
فلما التقينا صغَّر الخبر الخُبْرُ

فالأخبار كانت قد رسمت لذلك الرجل فى نفس المتنبى صورة يعدها عظيمة بل مبالغا فى تهويلها (أستكبر — أراه أكبر من المألوف) ، ولكنه عندما التقى به ، وأصبح فى مقدوره أن يعاين صورة ذلك الرجل بنفسه ، رأى تلك الصورة القديمة تتراجع وتضؤل أمام صورة العيانية .

وخلاصة هذا أن الشىء فى ذاته قد تكون له قيمة إيجابية إذا نظر إليه مستقلا عن غيره من الأشياء ، لكن المتنبي لايقنع حتى يدخله فى علاقة مع غيره ، ويتمثله فى ظرف غير الظرف الذى كان فيه ، وعند ذلك يتراءى له أن تلك القيمة الإيجابية فيه لم تكن إلا شيئا نسبيا ، حتى إنها ليمكن أن تعد عند مرحلة من مراحل التدرج النسبي لسلّم القيم قيمة سلبية . وهذا منطق خاص بالمتنبي ؛ إذ يرى دائما أن أى قيمة (موجبة) تتراجع أمام قيمة أخرى فإنها تدخل فى منطقة (السلبى) .

— ٥ —

والان نستطيع أن نقول إن الأشياء تتحرك دائما أمام عينى المتنبى بين

السلب والإيجاب ، فتتحدد قيمتها من خلال هذه الحركة . وهذه الحركة التى تتم فى الواقع المعاين تنعكس على عقله ، فتصبح أساس منهجه فى التفكير وفى بناء المعنى على السواء . وإذا كانت الأشياء لاتكف عن الحركة بين السلب والإيجاب فإن عقل المتنبى يبدو لنا دائم الحركة بينهما ، ومن ثم معانيه .

وقد رأينا وشيكا كيف يتحول (الموجب) أمام عينيه وفى عقله إلى (سالب) ، بما يدل على عدم استقرار القيم فى منظوره . والآن نقول إن هذا الذى رأيناه ليس إلا شكلا واحدا من أشكال حركة المتنبى بين السلب والإيجاب؛ وإلا فإنه قد استوعب كل الأشكال الممكنة للعلاقة بين السلب والإيجاب كما يدلنا على هذا شعره .

ولنحاول الآن أن نقف على ما هيأته له هذه الأشكال من قدرة على استنبات المعانى التى وصفت ذات يوم بأنها «تخرق العقول» .

لننظر أولا كيف ينقلب السالب إلى موجب فى عقل المتنبى أو فى رؤيته .

يقول فى رثاء جدته :

منافعها – ماضرّ – فى نفع غيرها
تغذى وتروى أن تجوع وأن تظما

إن ماهو ضار بجدته كان نافعا لغيرها ، فقد كانت تحرم نفسها وتؤثر بما لديها غيرها . هناك إذن ضرر واضح يلحق بها نتيجة هذا الحرمان ، ولكنه يصبح نفعا يفيد منه الآخرون . فضرر الجدة (السالب) يؤدى إلى نفع غيرها (الموجب) .

ومرة أخرى يعود السلب فينقلب إيجابا حين نرى أن جوع الجدة وظمأها قد انقلبا غذاء وريًّا لها . ذلك أن جوعها وظمأها ، اللذين يضران بها فى الواقع الحسى ، يتحولان – من خلال ما تحقق عن طريقهما من نفع للآخرين – إلى غذاء وريٍّ ينعشان روحها . وهكذا كان انتفاع الجدة بما هو فى ظاهر الأمر ضار ، أو هكذا انقلب السالب إلى موجب .

وفى هذا الاتجاه يمكننا فهم بيته الذى يقول :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

فالمصائب – وهى تمثل السالب فى هذا السياق – تنقلب إلى فوائد ، أى إلى عنصر موجب .

هذا شكل من أشكال تطاحن السالب والموجب فى عقل المتنبي وفى رؤيته .

والشكل الثانى يتمثل لديه فى حركة الموجب نحو السالب ، حتى لينقلب الإيجاب سلبا . ومن هذا قول المتنبي من قصيدته فى رثاء أخت سيف الدولة :

وإن سَرَرْن بِمَحْبُوبٍ فجَعْن بِه
وقدْ أتَيْنَكَ فى الحالين بالعَجب

والكلام عن الأيام وطبيعتها ، وعن القانون الماثل فيها أو الذى يحكمها . فهى قد تسر الإنسان أحيانا بشىء ، ولكنها تعود فتجعل هذا الشىء نفسه سبباً للفجيعة والأسى . وهكذا ينقلب الفرح إلى حزن ، فيتحول الإيجاب (الذى هو السرور فى هذا السياق) إلى سلب ، وهو الفجيعة .

ويلحق بهذا الشكل أن يصطدم السالب بالإيجاب فينشأ عن ذلك سلب بالضرورة . وتتمثل لنا هذه الحقيقة فى مثل قوله :

إذا قَلَّ عَزْمى عن مَدًى خوْفَ بُعْدِهِ
فَأبْعدُ شىءٍ ممكنٌ لم يجدْ عزما

فالإمكان إيجاب ، وقلة العزم سلب ، فإذا التقى الممكن بقلة العزم أصبح غير ممكن ، وصار أبعد شىء عن التحقيق . والمتنبي فى هذا يلتقى التقاء عجيبا مع القاعدة الرياضية المعروفة ، التى لا يجادل أحد فى صحتها ، والتى تكتب صيغتها على هذا النحو :

$$(+ \times - = -)$$

على أن عملية انقلاب الإيجاب إلى السلب فى منظور المتنبى لا تتم نتيجة لعملية تجريد ، ولا تتحقق كذلك بصورة آلية ؛ فقد كان على وعى كامل بالعمليات الدينامية التى تصحب هذا الانقلاب . وقد عبرنا عن هذه الظاهرة فى منطق تفكيره من قبل بكلمة (التحول) . فالأشياء تتحول نتيجة للفعاليات أو المؤثرات الحيوية المختلفة فيتحول المعنى . فإذا قلنا إن الإيجاب عنده ينقلب سلبا فإننا نأخذ فى الاعتبار هذه العمليات الحيوية . وقد كان المتنبى نفسه على وعى بهذه الحقيقة ، ودلنا عليها عندما قال من قصيدة له فى سيف الدولة :

وكم ذنبٍ مُوَلِّدُه دَلال
وكم بُعْد مُولده اقترابَ

فإذا كان الدلال إيجابا والذنب سلبا، وكان الاقتراب إيجابا والبعد سلبا. فإن الإيجاب فى كلتا الحالين لا يصبح سلبا بطريقة آلية أو مفاجئة. بل يتولد السلب من الإيجاب شيئا فشيئا، حتى إذا صار سلبا كاملا اختفى الإيجاب نهائيا. فالاقتراب – مثلا – لا يولد البعد فى لحظة، بل على مدى من الزمن، تتم خلاله عمليات تشكل الوليد (البعد) حتى يكتمل، وعند ذاك يحل البعد محل القرب، أى يتحقق السلب نهائيا لتلاشى الإيجاب نهائيا.

أما الشكل الثالث من حركة المتنبى بين السلب والإيجاب فهو الذى يجمع فيه بين الشكلين السابقين، أى أنه يستخرج الإيجاب من السلب، والسلب من الإيجاب معا. وليس غريبا وقد تمرس المتنبى بكل من هذين الشكلين على حدة، أن يجمع بينهما فى مركب واحد. لقد كان هذا الضرب من التفكير فى الأشياء قد صار عادة لديه فلا يجد فى استنباطه أدنى صعوبة، فى حين يتعب الآخرون فى فهمه.

ولنضرب لهذا الشكل مثالا من مدح المتنبى لأبى علىّ الأوارجى الكاتب، حيث يقول:

مَنْ نفعُهُ فى أن يُهَاج وضرُّهُ
فى تَرْكِهِ لو تَفْطِنُ الأعداءُ

فأمامنا فى هذا البيت حالتان للرجل، حالة نفع (إيجاب) وحالة ضر (سلب). فإذا نظرنا فى الحالة الأولى كيف يتم له النفع وجدنا هذا رهنا بأن يهيجه أعداؤه إلى الحرب. والحرب بطبيعتها غير مأمونة العواقب، ولكنها بالنسبة إلى رجل تمرس بها مثله تصبح مثار لذته واستمتاعه. إنه فى خلالها وعن طريقها يجد نفسه. فإذا كان وجدانه لنفسه ولذته واستمتاعه تمثل مجتمعة قيمة إيجابية فإن هذا الإيجاب لا يتحقق – كما رأينا – إلا من خلال الحرب (السلب).

أما فى الحالة الثانية فإن الضر (وهو قيمة سلبية) يتحقق له إذا ما تركه أعداؤه فى راحة ودعة. فحالة المسالمة

أو السلام إذن (وهى تمثل القيمة الإيجابية) هى التى تقتل نفسه أو تلحق بها الأذى (١).

وهكذا يتولد الإيجاب فى الحالة الأولى من السلب ، ويتولد السلب فى الحالة الثانية من الإيجاب . والحالتان معا ترتبطان بشخص واحد .

وسوف يجد المتأمل فى شعر المتنبى أنه يتقن استخدام هذا الشكل المركب من موجبين وسالبين وينوع عليه تنويعات مثيرة . ومثال هذا قوله من قصيدة يمدح بها أبا العشائر الحمدانى :

فأكبروا فعلَه وأصغره
أكبرُ من فِعْلِه الذى فعلهُ

فهناك فعل لأبى العشائر ، يراه الآخرون كبيرا (قيمة إيجابية) ويراه هو نفسه صغيرا (قيمة سلبية). ثم هناك فعله الذى رآه الناس كبيرا واستصغاره إياه وتهوينه من شأنه . هذا الفعل الكبير ينقلب صغيرا بالقياس إلى فعل الاستصغار نفسه ، الذى صدر عنه . ومن ثم يصبح الفعل الكبير قيمة سلبية بعد أن كان قيمة إيجابية ، وذلك بالقياس إلى فعل الاستصغار الذى يحمل قيمة إيجابية أعلى ، تأسيسا على نظرة المتنبى العامة التى سبق شرحها ، وهى أنه إذا تفوق إيجاب على إيجاب فإن الإيجاب المتراجع يصبح فى منطقة السلب بالنسبة للإيجاب المتفوق . (على سبيل المثال ، يصبح سيف الدولة ولو إلى حين – فى منطقة السلب بعد أن كان إيجابا ، وذلك عندما يرى المتنبى فى كافور – إلى حين أيضا – إيجابا يفوقه) .

ومن هذا الباب أيضاً أن المتنبى قد ألف أن يستخدم صيغ اللغة المثبتة (أى الموجبة) ليدل بها على معنى سلبى ، والصيغ المنفية (السالبة) ليدل بها على معنى إيجابى ، ومن هذا قوله :

حُسْنُ الحضارة مجْلوبٌ بِتَطْرِيَةٍ
وفى البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ

(١) ربما كان هذا المعنى نفسه قد صيغ بصورة أوضح فى قول المتنبى فى سيف الدولة :

وأنت المرء تمرضه الحشايا ... لهمته ، وتشفيه الحروب

فالراحة (الإيجاب) تجلب المرض (السلب) ، والحرب (السلب) تجلب الشفاء (الإيجاب) .

فصيغة مجلوب بتجارية إيجابية ، وصيغة غير مجاوب سلبية ، وهى سالب للإيجاب الأول نفسه . لكن المعنى المقصود من هذا الإيجاب معنى سابى ، لأن المتنبى يرى فى الحسن المصنوع نقصا وعيبا . والمقصود من هذا السلب معنى إيجابى ؛ لأن الحسن غير المجاوب هو الحسن الذى انتفى منه النقص والعيب ، فهو الحسن الحقيقى (الإيجابى) .

ومن هذا الباب أيضا أن يستخرج المتنبى من الموجب سالبا ، ثم يعود فيستخرج من هذا السالب نفسه موجبا. ولنمثل لهذا بقوله فى سيف الدولة :

فوْتُ العدُوِّ الذى يمَّمْتهُ ظفَرٌ
فى طيِّهِ أَسفٌ ، فى طيِّهِ نِعَم

فهروب الأعداء دون حرب أمام جيش سيف الدولة هو فى دلالته الأخيرة انتصار له عليهم . وهذا الانتصار قيمة إيجابية بلا شك . ولكن هذا الانتصار الذى تحقق بلا حرب كان سببا فى أن ولد الحزن والأسى فى نفس سيف الدولة ، لأنه لم ينتصر عن حرب حقيقية. والحزن أو الأسى هنا قيمة سلبية . وعلى الرغم من هذا فقد كانت نتيجته نعمة على المحاربين من جيش سيف الدولة ، لأنهم غنموا أنفسهم ولم يتكبدوا أهوال الحرب . وهذا الغنم قيمة إيجابية .

ونحسب الآن أن هذا الشكل من أشكال حركة المتنبى بين السلب والإيجاب وما يرد عليه من تنويعات قد صار على قدر كاف من الوضوح .

وننتقل الآن إلى الشكل الرابع من أشكال الحركة بين السلب والإيجاب فى عقل المتنبى ،وهو شكل أسرف فى استخدامه ولكنه أتقنه على نحو يجعله متفردا فيه .

ويتمثل هذا الشكل فى أن المتنبى يستخرج القيمة الموجبة عن طريق ضرب السلب بالسلب .

ولنوضح هذا من خلال بعض الأمثلة . ولنبدأ بالأوضح المشهور .

يقول المتنبى :

وإذا أتتك مَذمَّتِى من ناقص
فهى الشهادةُ لى بأنِّىَ كاملُ

فالمذمة سلب ، تصدر عن الناقص (وهو أيضا فى موقع السلب) ، ونتيجة التقاء هذين السلبين هو الدلالة على الكمال (وهو القيمة الموجبة) . وهذه الصيغة هى التى يعبر عنها رياضيا على هذا النحو (− × − = +)

وقس على هذا قول المتنبى فى بدر ابن عمار :

أميرٌ أميرٌ عليه النَّدَى
جَوادٌ بخيلٌ بألاَّ يجُودا

فقوله : بخيل ، سلب ، وقوله بألا يجودا ، سلب آخر ، أدخل أحدهما على الآخر فانتفيا معا لكى يبرز الجود ، وهو القيمة المقابلة الإيجابية .

وقس عليه كذلك قوله فى صباه :

عهْدِى بمعركةِ الأميرِ وخيْلِه
فى النَّقْع مُحْجِمَةً عن الإحْجام

فالمعادلة هنا يمكن أن تكتب هكذا : الاحجام عن الإحجام = (− × −) = + = الإقدام

وقس عليه كذلك قوله فى بدر بن عمار :

لايَسْتكِنُّ الرعب بين ضلوعه
يوماً ولا الإحسانُ ألاَّ يُحْسِنَا

فهو كما يقول الواحدىُّ فى شرحه : لا يحسن ألا يحسن . ومعادلتها هى نفس المعادلة : سالبان يتسلط أحدهما على الآخر فينتج عنهما موجب (لا إحسان × إحسان = − × − = + = إحسان) .

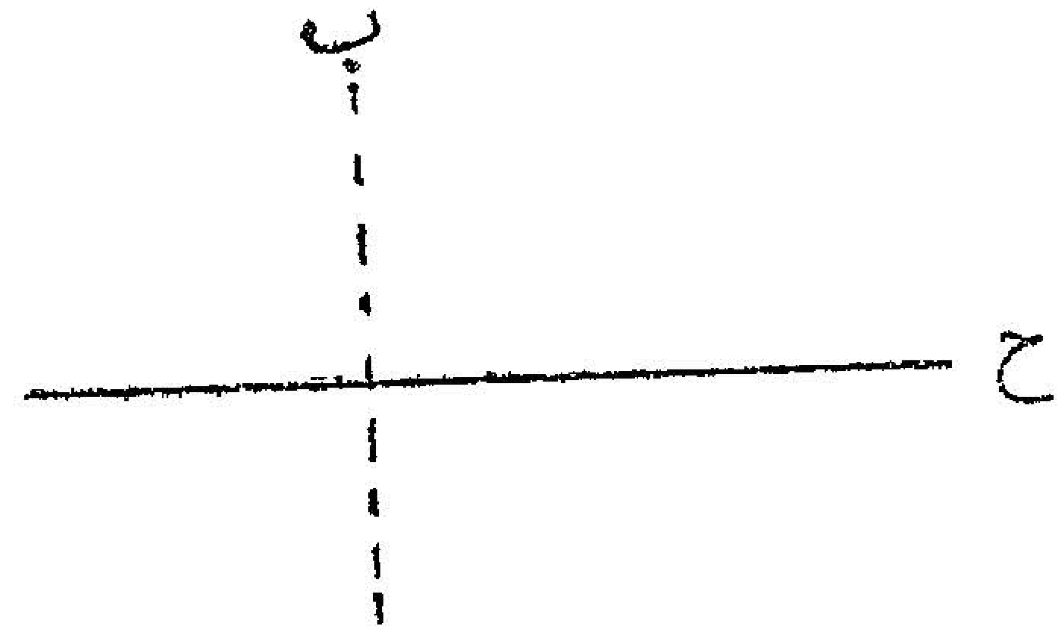
وهذا هو الشكل فى صورته البسيطة . ولكن المتنبى ـ وقد أتقنه ـ يستطيع فى بعض الأحيان أن يصنع منه بناءً أكثر تركيبا .

ومثال هذا قوله :

قد كان يَمْنعُنِى الحياءُ مِن البُكَا
فاليومَ يَمْنعُهُ البُكا أن يمنعا

فهنا يرتبط الحياء بالبكاء بعلاقتين جزئيتين فى زمنين مختلفين هما الأمس واليوم . وتجتمع هاتان العلاقتان الجزئيتان فى علاقة واحدة يمكن التعبير عنها رياضيا على النحو التالى : ح × ب = صفرا ، حيث ح هو الحياء و ب هو البكاء . وهذه العلاقة هى علاقة خطين

متعامدين ، وجود أحدهما يلغى الاخر .



فأى نقطة على الخط ح يقابلها فى الخط ب صفر ، وأى نقطة على الخط ب يقابلها فى الخط ح صفر . أى أنه إذا وجدت أى قيمة ل ح فإن المعادلة لاتصح إلا بأن تكون قيمة ب صفرا وإذا وجدت أى قيمة ل ب فإن المعادلة لاتصح إلا بأن تكون قيمة ح صفرا .

يؤكد هذا فى البيت أن ح (الحياء) فى الماضى كان ينفى ب (البكاء) نفيا كليا ، وأن ظهور ب (البكاء) فى الحاضر قد نفى ح (الحياء) ، الذى كان فى الماضى نفيا ل ب ، أى نفى النفى . وظهور ب (البكاء) فى الحاضر على هذا النحو جعل ح (الحياء) صفرا .

— ٦ —

وقد نتساءل الآن بعد أن سجلنا الظاهرة المميزة لعقلية المتنبى ولحركة المعانى عنده فنقول : وماذا بعد ؟

والواقع أن الظاهرة العقلية لايمكن أن تنفصل فى هذه الحالة عن منهج السلوك العملى . فهذه القيم التى تتراءى للشاعر غير مستقرة ، حيث يتحول الموجب إلى سالب والسالب إلى موجب ، وحيث يتولد من اصطدامها نتائج مختلفة ـ هذه القيم تشكل سلوك المرء وتؤثر فى موقفه من الناس والأشياء والحياة بعامة . ونزعم الآن أنه فى ضوء الظاهرة التى شرحناها يمكن تفسير سلوك المتنبى فى حياته ومع الناس .

ومع أن هذا التفسير ليس أساسا من هدف هذه الدراسة ، إذ هدفها الأساسى هو تبين السر فى تفرد شعر المتنبى فى خضم الشعر العربى ، فإننا مع هذا نشير إلى حقبة مهمة من حياة المتنبى ، هى الحقبة التى ارتبط فيها بكافور . فقد توزع شعره فى كافور بين المدح والهجاء ، وهذا فى جملته لا يبدو غريبا من رجل عرف جيدا أن الإيجاب يمكن أن ينقلب إلى سلب ، وأن الشىء الواحد يمكن أن يقبل الوصفين فى ظرفين مختلفين ، أو عند دخوله فى علاقتين مختلفتين . هذا :

وقد يَتقارَبُ الوصْفانِ جدًّا
ومَوْصُوفَاهما مُتَباعِدانِ

كما يقول فى مدح عضد الدولة :

لابأس إذن فى أن يقول فى مدح كافور :

فجاءتْ به إنْسان عيْن زمَانِهِ
وخَلّتْ بياضًا خلْفَها وماقِيَا

فلا يكون هناك مدح لأسود أحسن من هذا — كما يقرر ابن الشجرى . وذلك أن المتنبي رأى فى السواد الذى يمثله كافور أعلى قيمة تتحقق لإنسان . وعند ذلك يتراجع البياض ويفقد قيمته .

لكنه من منظور آخر يعود فيدخل السواد فى علاقة جديدة مع البياض حين يتذكر أن البيض (ولعل صورة سيف الدولة كانت ماثلة له عند ذاك) عجزوا من قبل عن الصنيع فكيف له أن يتوقع الخير من الخصية السود (الذين يمثلهم فى تلك اللحظة كافور) .

وقد حاول نقاد المتنبي القدامى وشراح شعره أن يتلقطوا المواطن التى كان فيها مادحا ولكنه أخفى الهجاء فى باطن المدح . وما أحسبهم كانوا فى حاجة إلى هذا التفتيش والعناء والمتنبي نفسه يصرح بأنه يصنع المدح الذى هو فى حقيقته هجاء .

يقول عن مدحه لكافور :

فما كان ذلك مدْحاً لَهُ
ولكنه كانَ هجْوَ الْورَى

أى أنه إذا كان هناك من يعتقد أن هذا كان مدحا لشخص كافور فهو مخطئ ؛ فقد كان هذا المدح فى حقيقته هجاء لكل الناس الذين سمحوا لإنسان فى حقارة كافور أن يكون سلطانا عليهم .

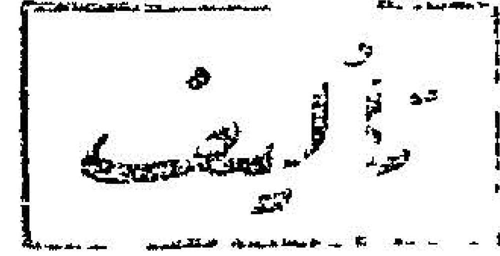
إنه إذن يستخدم فى هذا المدح القيم الإيجابية ليدل بها أو يستخرج منها القيم السلبية .

وبعد ، فإنَّ إنسانا هذا منطق تفكيره ، وهذه نظرته إلى القيم الموزعة بين السلب والإيجاب ، والمتحولة دائما من النقيض إلى النقيض ، ما كان له أن يقرَّ له قرار ، أو يذوق طعم الراحة فى حياته ، بل كان طبيعيا أن يعيش قلقا معذبا بنفسه وبالآخرين ، وأن يلاحقه الإحباط حتى آخر لحظة من حياته . والشيءُ الوحيد الذى نجح فيه هو أنه ترك للآخرين مصدر قلق وتعذيب دائم ، وإن كان ينطوى فى الوقت نفسه على متعة لاتنتهى ، ألا وهو شعره .

عز الدين اسماعيل

الاتجاهات الحديثة فى صناعة المعجمات

للدكتور محمود فهمى حجازى



المعجمات أحد الفروع التطبيقية من البحث اللغوى ، يقوم تأليف المعجمات على أساسين متكاملين ، هما علم المعجمات : Lexicology, Lexicologie, Lexikologie, ويبحث البنية الدلالية للمفردات ، وعلم صناعة المعجمات Lexicography, Lexicographie, Loxikographie ويتناول أنواع المعجمات ومكوناتها وطرق إعدادها[1]. وهدف هذا البحث أن يوضح فى ضوء الخبرة المعاصرة فى صناعة المعجمات طبيعة التأليف المعجمى الحديث والاتجاهات المختلفة التى ظهرت تلبية للحاجات المعاصرة المتزايدة ، وهذه الاتجاهات اتضحت ملامحها بالبحث النظرى والعمل التطبيقى :

أولا : مصطلح « المعجم » :

يطلق مصطلح «المعجم» أو «القاموس» على الكتاب المرجعى الذى يضم كلمات اللغة ويثبت هجاءها ونطقها ودلالتها واستخدامها ومرادفاتها واشتقاقها أو أحد هذه الجوانب على الأقل[2] . وترجع كلمة « معجم » إلى

---

(١) عن التمييز بين علم المعجمات وعلم صناعة المعجمات ، انظر :

Geogres Matoié, Histoire des dictionaires francais, Paris 1968, p. 13.

والتقرير الذى كتبه اللغوى الفرنسى كيمادا :

Bernard Quemada, Lexicology and Lexicography, in ;
Current Trends in Linguistics 1977, 427.

(٢) انظر مادة Dictionary فى Oxford English Dictionary ، وانظر تعريفات أخرى للمعجم : فى

Georges Matarés, Histoire des dictionaires francais, P. 21
Kleine Enzyklopädie, Die Deutsche Sprache, Leipzig 1969 I, 605.

« المعجم قائمة بالمفردات تختار كلماتها وتشرح وفق وجهات نظر محددة » .

الكلمة العربية أعجم، وتعني إزالة الغموض. فالمعجم هو الكتاب الهادف إلى إزالة غموض الدلالات وإلى إيضاح الجوانب السابقة كلها أو بعضها. ويرجع تاريخ استخدام هذه الكلمة إلى القرن الثالث الهجري، فقد جاءت في عنوان لكتاب «المعجم» لأبي يعلى (٢١٠–٣٠٧هـ) وقد ترجم فيه أبو يعلى شيوخه(١). وهناك كتب كثيرة ألفت بعد ذلك تحمل في عناوينها كلمة «المعجم». وأكثرها من كتب الطبقات المرتبة على حروف المعجم، وأهم هذه الكتب: معجم الصحابة لأبي القاسم البغوي (٢١٤ – ٣١٧هـ)، ومعجم الصحابة لابن قانع (المتوفى ٣٥١هـ) والمعجم الكبير للطبراني (٢٦٠–٣٦٠هـ) والمعجم في أسامي الشيوخ لأبي بكر الإسماعيلي (٢٧٧ – ٣٧١هـ)، ومعجم ابن جميع (٣٠٥ – ٤٠٢هـ)(٢). والتحول الذي طرأ على دلالة هذه الكلمة جعلها تتحول من الدلالة على كتب الطبقات المرتبة على حروف المعجم إلى كتاب الكلمات المرتبة على حروف المعجم، وبهذا المعنى بدأ استخدام الكلمة عند ابن فارس (المتوفى ٣٩٥هـ) في معجم مقاييس اللغة، وعند العسكري (المتوفى ٣٩٥هـ) في «المعجم في بقية الأشياء»(٣).

وكلمة «معجم» ترادف في الاستخدام العربي الحديث كلمة «قاموس»(٤). والكلمة الأخيرة كانت اسما لذلك المعجم الذي ألفه الفيروزابادي (المتوفى ٨١٦هـ) بعنوان «القاموس المحيط»، وقد شاع استخدام القاموس المحيط(٥) لصغر حجمه ووضوح

---

(١) ومنه هذا الكتاب في شستربتي، دار الكتب حديث ١٩١٣، وشستربتي ٢٧٩٦، انظر فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود حجازي وفهمي أبو الفضل، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٧٢.

(٢) انظر تراجمهم في تاريخ التراث العربي: البغوي ٢٨١، ابن قانع ٣٠٥، الطبراني ٣١٨، الإسماعيلي ٣٢٩، ابن جميع ٣٦٦.

(٣) طبع معجم مقاييس اللغة بالقاهرة بتحقيق عبد السلام هارون (١٩٦٩ – ١٩٧٢)، والمعجم في بقية الأشياء بتحقيق إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي بالقاهرة ١٩٣٤.

(٤) كلمة قاموس وردت في لسان العرب بمعنى قعر البحر، وقد استخدمت في عناوين ٩٨ عملا معجميا عربيا، انظر: وجدي رزق غالي في: المعجمات العربية ببليوجرافية شاملة مشروحة، القاهرة ١٩٧١، ٢١٧ – ٢١٩، وكلها – باستثناء القاموس المحيط – معاجم حديثة. أما الأعمال المعجمية التي تحمل في عناوينها كلمة معجم فعددها ٧٥، وبهذا فالكلمات «قاموس»، «معجم»، أكثر الكلمات استخداما في العربية في العصر الحديث في عناوين الأعمال المعجمية، وثمة كلمات أخرى أقل استخداما، هي: ترجمان، دليل، فرائد، لغات، مصطلحات، ولكنها لم تصبح مرادفة للمعجم أو القاموس، وهي مجرد أسماء لكتب بأعيانها وليست تسمية للنوع كله.

(٥) طبع القاموس المحيط منذ بداية عصر الطباعة عدة طبعات، وهو أول معجم عربي طبع، فقد طبع في كلكتا ١٨١٤–١٧١٧م، وأعيد طبعه في الهند ١٨٥٤م، ثم طبع في بولاق ١٨٥٦م.

شرحه وكثرة مادته ، فأصبح اسمه القاموس علما على ذلك الضرب من الكتب لمرجعية، وكلمة القاموس كانت تعنى البحر وماء البحر ، ولكن دلالة الكلمة تغيرت مع كثرة تداول هذا المعجم المعروف باسم « القاموس » ، فأصبحت بدلالتها الجديدة مرادفة للمعجم :

أما فى اللغات الاوربية فتوجد عدة كلمات للاعمال المعجمية ، أكثرها شيوعا فى اللغة الانجليزية كلمة Dictionary [1] وفى الفرنسية Dictionaire . وكلتا الكلمتين ترجع الى الكلمة اللاتينية الوسيطة Dictionarium ، وتعنى مجموع ما يعلم أو النصاب التعليمى . وفى اللغة الالمانية نجد كلمة Wörterbuch ، وتعنى حرفيا «كتاب الكلمات» . وقد استقرت دلالة هذه الكلمات فى اللغات الأوربية ،فأصبحت دالة على ذلك الكتاب المرجعى الذى يضم كلمات اللغة مرتبة ترتيبا هجائيا أو معنويا ويعطى مع كل كلمة هجاءها ودلالتها، وقد يضيف الى ذلك نطقها واستخدامها ومرادفاتها واشتقاقاتها وتاريخها وبعض الصور الايضاحية لها ، أو أحد هذه الجوانب على الأقل .

وثمة دلالة أخرى لكلمة «معجم» فى العربية وكلمة Dictionary فى الانجليزية والكلمات المقابلة فى اللغات الأوربية الأخرى ، وهو استخدام يجعل الكلمة دالة على الكتاب الذى يقدم مجموعة المعارف الاساسية فى أحد موضوعات المعرفة، وغالبا ما ترتب مداخل الموضوع الجزئية بداخله ترتيبا هجائيا . وبهذا المعنى نجد فى اللغة الانجليزية عدة كتب تحمل فى عناوينها كلمة (Dictionary of) مصحوبة بفرع من فروع التخصص مثل : العمارة ، والتجارة والمسرح وغير ذلك[2] . وفى العربية أطلقت كلمة «معجم» على مثل هذا ، فالمؤلف ياقوت الحموى (المتوفى ٦٢٦هـ)ألف «معجم البلدان » وهو كتاب مرجعى يعطى معلومات عن البلدان والجبال والاودية والبحار وغير ذلك ، وقد رتبت فيه المداخل على الحروف الهجائية ، وهو مسبوق بمعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكرى (المتوفى ٤٨٧هـ) ، وكلاهما كتاب مرجعى للاعلام الجغرافية مرتب على حروف المعجم . أما « معجم المطبوعات العربية والمعربة تأليف يوسف اليان سركيس (القاهرة ١٩٢٨م) فهو ثبت ببليوجرافى بأسماء المصنفين والمصنفات مرتب على حروف المعجم . أما «معجم الشعراء » للمرزبانى (المتوفى ٣٨٤م) و « معجم

---

(١) عن تاريخ الكلمة فى اللغة الانجليزية ، انظر :
A New English Dictionary on Historicoal Principles.

(٢) John Russcll Talylor, The Penguin Dictionary of the Theater, 1966.

المؤلفين» لعمر رضا كحالة (دمشق ١٩٥٧ ١٩٦٣) فكلاهما يرتب مداخله على حروف المعجم ، وكذلك « معجم العلوم الاجتماعية » تصدير ومراجعة ابراهيم مدكور (القاهرة ١٩٧٥) . والمعجم بهذا المعنى العام كتاب مرجعي رتبت مداخله ترتيب حروف المعجم . ولكنا في هذا البحث نقصر استخدام هذا المصطلح على الكتاب المرجعي لمفردات اللغة . ولذا ينبغي أن نميز في استخدام كلمة Dictionary وكلمة معجم بين الدلالة على المرجع اللغوى مثل «المعجم الوسيط »أو« المعجم الكبير » وكلاهما من جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والدلالة على المرجع الموضوعى أومرجع الأعلام .

ثانيا — معايير تصنيف المعجمات

تنوعت الاعمال المعجمية في القرنين التاسع عشر والعشرين ،وتعددت أنواع المعجمات بتعدد الاهداف واختلاف المحتوى اللغوى وطريقة العرض ، وكل هذا جعل من الضرورى أن تصنف هذه الجهود في ضوء عدد من المعايير الموضوعية (١) .

١ — المحتوى اللغوى ، والمقصود به محتوى المادة اللغوية الموجودة في مداخل المعجم أو مستويات هذه المادة . ومن هذا الجانب نجد معجمات المستوى اللغوى الواحد، مثل : معجمات النقوش القديمة ، ومعجمات اللهجات ، ومعجمات اللغة المكتوبة ، يتناول الواحد منها مستوى لغويا بعينه . وثمة معجمات تتناول كل مستويات اللغة من أقدم نصوصها إلى تاريخ تأليف المعجم وهى المعجمات التاريخية . وهناك معجمات عامة للغة ، تضم إلى جانب مستوى اللغة الحديثة بعض المكونات التاريخية -من النصوص التراثية المتداولة بين المثقفين ومن النصوص الدينية التى يقرأها الكثيرون . ومن هذا الجانب ينبغي التمييز من حيث المادة اللغوية في المداخل المعجمية بين معجمات لمستوى لغوى واحد ومعجمات تاريخية ومعجمات عامة :

٢ — الهدف ، ويرتبط الهدف بطبيعة من يوجه إليهم العمل وتوقعاتهم منه . ومن هذا الجانب نجد معجمات معيارية تعنى بأن ترشد إلى الكلمة الصحيحة كتابة ونطقا ودلالة ، ونجد أيضاً معجمات تعليمية هدفها أن تقدم إلى متعلمى اللغة مادة معجمية تمكنهم من قراءة نصوص اللغة المنشودة والكتابة بها والتحدث بها وفهمها ، أو على الاقل تمكنهم من بعض هذه الجوانب . وهناك معجمات يعدها اللغويون لتكون أدوات للبحث اللغوى ، منها مثلا : معجمات اللهجات ، والمعجمات

---

(١) هناك جهود قليلة فى وضع معايير لتصنيف المعجمات ، منها :
Yakov Malkiel, A Typological Classification of Dictionaries on the Basis of distinctive features, in ;Fred W.Househouder and Sol Saporta (ed), Problems in Lexicography, Indiana University, Bloomington 1975,
وهناك عرض لاتجاهات فى تصنيف المعجمات ، انظر : كتاب : على القاسمى ، علم اللغة وصناعة المعجم ، الرياض ١٩٧٣

الاشتقاقية التأصيلية ، والمعجمات المقارنة والمعجمات التاريخية :

٣ ــ العلاقة بين لغة المدخل ولغة الشرح ، ولغة المدخل هى اللغة التى تقدم بها مداخل (أى كلمات) المعجم ، ولغة الشرح هى اللغة التى تقدم بها المعلومات اللغوية والدلالية عن المداخل . وهنا نجد معجمات أحادية اللغة تتفق فيها لغة المدخل مع لغة الشرح ، ومعجمات ثنائية اللغة تختلف فيها اللغتان ، ومعجمات ثلاثية أو رباعية اللغة وفق عدد اللغات فى المدخل والشرح .

٤ ــ طبيعة المداخل ، وهنا تختلف المعجمات إلى عامة ومتخصصة . المعجمات العامة هى التى تتناول مفردات اللغة أو المستوى اللغوى الواحد دون أن تقتصر على فرع بعينه من فروع المعرفة . أما المعجمات المتخصصة فهى المعجمات التى يتناول الواحد منها فرعا من فروع العلم ، وهناك معجمات متخصصة لمصطلحات الطب والكيمياء والفيزياء وعلم النبات وغير هذا وذلك من فروع المعرفة والعلم :

٥ ــ كثافة المداخل ، والمقصود بهذا المعيار عدد المداخل التى يضمها المعجم . وهنا نلاحظ ثلاث مجموعات من المعجمات المجموعة الاولى تضم المعجمات الصغيرة التى تؤلف للتلاميذ ومن فى مستواهم ، ويتراوح عدد مداخلها من ٨ــ إلى ١٠ آلاف مدخل ، ثم المعجمات الوسيطة التى تعد للطلاب وجمهور القراء والمثقفين ويتراوح عدد مداخلها من ١٠ الى ٢٥ ألف مدخل ، ثم المعجمات الكبيرة التى يتراوح عدد موادها بين ٧٠ ــ إلى ١٢٠ ألف مدخل .

٦ ــ درجة الاهتمام بالمادة الموسوعية ، والمقصود بهذا المعيار تلك المواد الموسوعية الخاصة بالاعلام والبلدان والحوادث والعلوم ومنجزات التكنولوجيا . وهنا نقطة خلاف أساسية بين مؤلفى المعجمات ، بعضهم يهتم بهذه المادة الموسوعية ويضعها فى محل الصدارة ، فيقيم المعجم عليها فيقترب بذلك من الموسوعة ، وهذه هى المعجمات الموسوعية ، وثمة معجمات تعطى المواد الموسوعية جانبا من مواد المعجم وتشرحها بايجاز على نحو لا يخل بطبيعة المعجم ، وبذلك يصبح المعجم ذا مواد موسوعية ، وثمة معجمات أخرى تطرح المواد الموسوعية جانبا تاركة هذا الجانب لعمل مرجعى آخر وهو الموسوعة ، وهذه معاجم بلا مواد موسوعية(١) .

٧ ــ طريقة ترتيب المداخل ، ومن هذا الجانب نجد أكثر المعجمات الحديثة ترتب المداخل ترتيبا هجائيا يراعى الحرف الأول فالثانى فالثالث ، وثمة معجمات ترتب على أساس الحرف الأخير ثم الحرف الأول من حروف

(١) انظر : G. Matoré, Histore p. 22.

الكلمة[1] ، وثمة معجمات معنوية موضوعية ترتب المعانى فى فصول ثم تذكر داخل كل فصل الكلمات الخاصة بهذا المعنى ، ومن شأن هذه المعجمات أن تكون لها كشافات هجائية ترشد إلى مواضع الكلمات داخل الفصول[2] :

(٨) طريقة الايضاح ، وهنا نجد المعجمات تتوسل تارة بالتعريفات الموضحة لدلالة الكلمة أو لدلالات الكلمة ، وبعض المعجمات يوضح هذه الدلالة أو الدلالات بشواهد من نصوص اللغة [3]،وبعضها يقدم الايضاح عن طريق الصور داخل شرح المدخل : وهنا نجد معجمات الشرح الدلالى، ثم المعجمات السياقية، ثم المعجمات المصورة :

ولاشك أن هذه المعايير متكاملة ، ولايكفى معيار واحد منها لتصنيف أحد المعاجم ،ولذلك ينبغى النظر فيها مجتمعة عند تصنيف المعاجم :

ثالثا : المعجمات العامة

تطورت الصناعة المعجمية الحديثة فى أوربا وأمريكا تطورا بعيد المدى فى القرون الماضية : لقد كانت اللاتينية لغة الثقافة والمعرفة فى أوربا عدة قرون، وكانت الهدف الثقافى لكل من أراد الإرتقاء فى سلم التعليم ، ولذلك كان من الطبيعى أن تكون البدايات المبكرة للعمل المعجمى فى أوربا مجموعة من كتب المفردات اللاتينية مع ترجمتها إلى اللغات المحلية فى

---

(١) عرفت المعاجم العربية النوعين ، فالترتيب وفق الحرف الأخير ثم الأول نجده – مثلا – فى لسان العرب لابن منظور (المتوفى ٧١١) فى صورته الأساسية، والترتيب وفق الحرف الأول ثم الثانى فى أساس البلاغة للزمخشرى (المتوفى ٥٣٨ هـ) وكذلك فى «لسان العرب المحيط» ط بيروت ١٩٧٠ ، وأكثر المعاجم الأوربية الحديثة المؤلفة للقراء والجمهور المثقفين ترتب على الحرف الأول ثم الثانى وهكذا ، غير أن ثمة معجمات أعدت حديثا للغات أوربية ترتب على الحرف الأخير ثم الذى قبله وهكذا ، وهى معاجم لأغراض البحث عند اللغويين ، وتفيد فى دراسة اللواحق وظواهر الالحاق بصفة عامة . ومن أمثلة المعاجم للغة الألمانية :

E. Mater, Rücklaufiges Wörterbuch der deutschen Gegenwartssprache, Leipzig 1965.

(٢) هذا النوع من الترتيب قديم فى التراث العربى ، أشهر معجماته المخصص لابن سيده فى القرن الخامس الهجرى ، وأهم معجمات هذا النوع باللغات الاوربية :

P.M . Roget, Thesaurus of English words and phrases. 1852

F. Dornseiff, Der deutsche Wortschatz nach Sachgruppen, 5. Auflage, Stuttgart 1967.

H. Eggers, Deutscher Wortschatz, 3. Auflage, Stuttgart 1967.

(٣) حول مشكلة التعريف فى المعجم ، انظر :

U. Weinreich. Lexicographic definition in descriptive semantics, in : F.W. Householder. S. Saporta. Problems in Lexicography, Bloomington 1975 25—44

أوربا آنذاك [1]: وهى كتب تشبه المعاجم المزدوجة اللغة التى أعدها الفرس والهنود المسلمون والترك بمداخل عربية، فى إطار الحضارة الإسلامية [2]

بدأ التأليف المعجمى فى اللغات الأوربية الحديثة عصر ازدهاره فى القرن السادس عشر، فظهر أول معجم للغة الفرنسية (١٥٢٣) [3] ثم أول معجم انجليزى (١٦٠٤م) [4]. ويلاحظ فى المعجم الذى أعد للانجليزية أنه لايستوعب ألفاظ اللغة الانجليزية، وانما يكتفى باختيار الكلمات الصعبة، وهى تلك الكلمات غير المتداولة فى اللغة اليومية والتى اتخذتها الدوائر المثقفة واشتقتها من أصول يونانية ولاتينية للتعبير عن الفكر والحضارة والعلم :

وقد استمر الاتجاه الانتقائى للمفردات الصعبه فترة من الزمن، ثم حل محله اتجاه معيارى لايسجل الواقع، بل يرشد إلى الاستخدام الصحيح الفصيح. يتضح هذا الاتجاه فى معجم شتيلر الألمانى [5]، وهو معجم ينص على أن هدفه بيان دلالة المفردات الصحيحة الأصيلة

---

(١) أهم الجهود المعجميه المبكرة فى أوربا قبل القرن السادس عشر الى تضم اللاتينية مع لغة محليه تلك الجهود المعروفة :

Leiden Glosses,
Medulla Grammatica (1400)
Promptorium Parvulorum sive clericorum (1499).

وهى معاجم للاتينية مع الانجليزية القديمة أو مع الانجليزية الوسيطة. وهناك جهود مماثلة للاتينية مع الالمانية كانت نتيجة اعادة ترتيبها وفق المداخل الالمانية بدء المعاجم الالمانية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

(٢) أهم الجهود المعجمية للعربية والفارسية فى ايران فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة.

مشكاة المصابيح للاذق (٧٢٢ هـ). كنز اللغات لابن معروف
نصاب الصبيان للفراهى الترجمان لابن داود (مؤلف ٨٤٣ هـ)

وفى شبه القارة الهندية ألفت معاجم أخرى للعربيه والفارسية، منها جامع لغات لعبد الرشيد عبد الغفور التتانى (المتوفى ١٠٦٨ هـ) ط كلكتا ١٨٠٨، ومعجم منتهى الارب فى لغة العرب لمولوى عبد الرحيم صافيبورى، ط كلكتا ١٨٢١.

(٣) المعجم المقصود هو :

Palsgrave, Lesclaircissement de la langue Fancoyse, 1523.

(٤) المعجم المقصود هو :

Robert Cawdrey' Table Alphabeticall of Hard Words 1604.

(٥) المعجم المقصود هو :

K. Stieler, Der Teutschen Sprache Stammbaum und Fortwachs 1961

وقد حدث تقدم بعيد فى العمل المعجمى الأوربى فى القرن الثامن عشر ، وذلك بالاعتماد على الشواهد اللغوية فى إعداد المعجم لم يقتصر المعجم على اللغة الأدبية بل ضم إليها شواهد من لغات التخصص وشواهد محلية ؛ فى اللغة الألمانية يعد معجم فريش (١٧٤١) أول معجم أوربى يقوم على الشواهد المأخوذة من النصوص(١) ، وفى اللغة الانجليزية كان عمل بيلى(٢) تقدما بعيدا فى الصناعة المعجمية ، وكان له تأثيره البعيد فى كل معجمات اللغة الانجليزية : لقد انصرف بيلى عن الفكرة القائلة بالاقتصار على الكلمات الغريبة والصعبة إلى الاهتمام بالاستيعاب الشامل لالفاظ اللغة اعتمادا على النصوص ، وقد طبق بيلى هذه الفكرة فاهتم بالاستخدام الفعلى للكلمات وذكر لها شواهد دالة على معانيها ، وهو أيضا أول معجم إنجليزى يشير إلى النطق ، وفوق هذا فقد أخرج بيلى معجمه مزودا بالصور : وبهذا يعد معجم بيلى مرحلة حاسمة فى تاريخ معجمات اللغة الانجليزية من ناحية المحتوى والمعلومات اللغوية والإخراج : ولهذا كله أفاد معجم جونسون (١٧٥٥م)(٣) كل الإفادة من تقنيات العمل المعجمى عند بيلى وأضاف مزيدا من الكلمات التى لم تكن المعجمات السابقة قد ذكرتها وأضاف مزيدا من الشواهد اللغوية : وقد اهتم جونسون أيضا بتقنين كتابة كلمات كان الرأى فى هجائها مختلفا بين الادباء آنذاك ، وأفاد جونسون أيضا من التقدم فى علوم اللغة ليؤصل الكلمات بشكل أفضل من سابقيه ، وبهذا كله ظهر معجم جونسون للغة الانجليزية فى مجلدين ، واستقبل أفضل استقبال ، وظل يطبع عدة طبعات على مدى قرن ونصف حتى أصبحت كلمة Dictionary علما عليه : وفى اللغة الالمانية يعد معجم آدلونج(٤) (١٧٧٤-١٧٨٦م) عملا مماثلا لمعجم جونسون فى اعتماده على الشواهد وتأصيل الكلمات والصور ، وقد طبع - أيضا - عدة طبعات مهذبة حتى أوائل القرن التاسع عشر .

ان معجمات القرن الثامن عشر نالت التقدير عند المثقفين ، ومعجم جونسون مثال ممتاز على الاحترام الاجتماعى للعمل المعجمى ، لقد عد معجم جونسون حجة فى اللغة ، بل هو السلطة العليا عندما تختلف

---

(١) J. L. Frisch, Teutsch—lateinisches Wörterbuch, 1741

(٢) Nath Bailey, Universal Etymological Dictionary of the English Language, 1721.

(٣) S. Johnson, Dictionary of the English Language, London (1755).

(٤) J. CH. Adelung, Versuch eines vollständigen grammatisch — kritischen Wörterbuchs der hochdeutschen Mundart, (5 Bde. 1774—1786; 2. Aufl. in 4Bdn., 1783—1801).

الآراء ، ففى عام ١٨٨٠ رفض البرلمان الانجليزى مشروع قانون لان كلمة جاءت به لم ترد فى معجم جونسون : لقد رأى جونسون من واجب المعجمى أن ينقى اللغة الانجليزية ويخلصها من عدم الدقة والحوشية ، فأصبح معجمه حجة فى وقت برزت فيه الطبقة الوسطى ، وحاول أبناء هذه الطبقة محاكاة الطبقة العليا الراقية فى الاستخدام اللغوى ، وكان معجم جونسون يقدم لهم ذلك : لقد أصبح هذا المعجم هو Supreme Authority ، وكأنه قد أصبح وحده مجمعا لغويا يضارع مجمع اللغة الفرنسية ، أى الاكاديمية الفرنسية .

وظلت فكرة التقنين اللغوى باعتبارها هدفا من أهداف العمل المعجمى ماثلة أمام مؤلفى المعجمات فى القرن الثامن عشر ، وكان على هذه المعجمات أن تقدم القول الفصل فى كثير من قضايا الصحة اللغوية ، ومنها قضية النطق : وهذه القضية مرتبطة أيضا بنزوع الطبقة الوسطى الصاعدة إلى محاكاة النطق الصحيح المقبول للانجليزية عند أبناء الطبقة العليا والمجتمعات الراقية ، ليصبحوا منهم أو مثلهم ، ولذلك ألفت معجمات كثيرة تسجل النطق الصحيح وتوضحه ، إلى جانب عنايتها بدلالة المفردات عن طريق الشواهد ؛ ومن أهم هذه الجهود معجم بوخانان [1] ومعجم كنريك (١٧٧٣) [2] ومعجم واكر (١٧٩١) [3] : وبذلك أضافت هذه المعجمات جانباً صوتياً إلى العمل المعجمى .

وقد وصل التقدم المعجمى فى النصف الأول من القرن التاسع إلى عدة أفكار أساسية ، مهدت للمعجم التاريخى ، وفى مقدمتها فكرة الترتيب الداخلى للدلالات الخاصة بالمدخل الواحد ترتيباً تاريخياً يقوم على الشواهد ؛ وتتضح هذه الفكرة فى معجم ريتشاردسون للغة الإنجليزية [4] .

كان للمدرسة الأمريكية فى صناعة المعجمات معركة طويلة عرفت عندهم باسم « حرب المعاجم » . المعجمات الامريكية أعمال قامت بها مؤسسات تجارية ، وبدأ العمل المعجمى فى أمريكا تلخيصا للجهود البريطانية ، لكن العمل المعجمى الأمريكى ـ بمعنى الكلمة ـ بدأ بجهود وبستر فى معجمه الأمريكى للغة الانجليزية [5] . وهذا معجم كبير يضم ٧٠ ألف كلمة ، يعنى بالحياة الأمريكية ويدون الهجاء

---

(١) عنوان هذا المعجم : J. Buchanan, New English Dictionary (1976).

(٢) عنوان هذا المعجم : W. Kenrick, New Dictionary of the English Language (1773).

(٣) عنوان هذا المعجم : J. Walker, Critical Pronouncing Dictionary and Expositor of the English Language (1719).

(٤) عنوان هذا المعجم : Charles Richardson, New Dictionary of the English Language (1836).

(٥) عنوان هذا المعجم : N. Webster, An American Dictionary of the English Language, 1928.

الأمريكي والنطق الأمريكي للمفردات.

وبعد هذا كان معجم وركستر [1] تقدما عظيما فى الصناعة المعجمية الامريكية ، فقد أضاف كلمات جديدة وكان فى شرح الدلالات مركزاً وواضحا، اهتم ببيان النطق ، وكان يذكر المترادفات ؟

وهكذا كانت المنافسة بين معجمى وبستر ووركستر كبيرة، وقد أدت إلى أن كل ناشر كان يحشد لمعجمه من العلماء والمعاونين ومن إمكانات الطباعة ماحقق لمعجمه التجديد الدائم ليصمد فى المنافسة ؛ وبهذا اختلفت الطبعات فى المحتوى والإخراج ،وأدت المنافسة إلى ارتفاع مستوى الصناعة المعجمية الامريكية ؛

وقد اتضحت أثناء حرب المعجمات ومع المحاولات الدائمة لتطوير الصناعة المعجمية وجعلها أكثر تلبية لحاجات القراء وطموحاتهم عدة سمات أصبحت من تقاليد العمل المعجمى فى أمريكا ، وأهم هذه السمات :

١ – أن يكون المعجم فى مجلد واحد بثمن معقول، وقد ثبت أن المادة الموضوعة فى مجلد واحد أكثر رواجا منها لو وضعت فى مجلدين أو أكثر [2] .

٢ – أن يبين المعجم مع كل كلمة هجاءها ،ونطقها ،وتأصيلها،ومرادفاتها ، والكلمات المضادة لها دلاليا .

٣ – أن يكون المعجم مزودا بالصور والرسوم الايضاحية والخرائط .

٤ – أن يضم المعجم مادة موسوعية موجزة فى العلوم والتكنولوجيا والاعلام والاماكن .

٥ – أن تضم مقدمة المعجم معلومات أساسية عن اللغة الإنجليزية .

وبذلك كله أصبحت الخبرة الامريكية فى الصناعة المعجمية ذات فائدة كبيرة فى اعداد المعاجم الحديثة بصفة عامة ؛

ان المعجم العام هو المعجم الذى تستوعب مداخله كلمات اللغة ، استيعابا شاملا ، دون تركيز على فرع من فروع المعرفة : يكتسب المعجم العام لجمهور المثقفين. ولذا ينبغى أن تراعى اهتماماتهم فى تنوع مداخله . المعجم العام عمل مرجعى،ولذا ينبغى له أن يكون موضع احترام المتلقين وتقديرهم بوصفة « حجة » فى اللغة ؛ ولهذه القضية أثر كبير فى الإعداد المعجمى ؛ والمشكلة الأولى – فى هذا الصدد – تتعلق بالشواهد اللغوية التى يقوم عليها المعجم ؛ فلا شك أن الاعتماد على مؤلفات كبار الكتاب يعطى الشواهد احتراماً ويخلع عليها اعترافاً وتقديراً ، ولكن بعض

---

(١) Worcester, Comprehensive pronouncing and explainatory Dictionary of the English Language, 1830.

(٢) يلاحظ أن الناشرين البيروتيين ينشرون معاجمهم فى مجلد واحد ، وهذا واضح فى : المنجد ، والرائد، والمورد ، والمنهل ، فى حين جعل مجمع اللغة العربية بالقاهرة « المعجم الوسيط » فى مجلدين .

المعجميين رأوا في الاقتصار على مؤلفات كبار الكتاب قصوراً ورغبوا في أخذ الشواهد أيضاً عن الكتاب من ذوى المكانة الوسطى . وقد فشلت الفكرة الأخيرة عند تطبيقها المعجمي ، فجمهور المتلقين يرى المعجم الحقيقي «حجة» وينبغي له أن يكون منزهاً عن الشواهد التي في صحتها نظر . وقد لجأت بعض مؤسسات الصناعة المعجمية إلى استشارة عدد كبير من الأدباء والمثقفين المحافظين لمراجعة أصول المعجم وتقديم ملاحظاتهم الناقدة عليه ليكون أساسا في التحرير النهائي له . وفي هذا ضمان لان يكون هذا المعجم موضع التقدير في كل ماورد به، ليكون في رأى القراء «حجة» في أمور اللغة .

ان الخبرة الكبيرة في إعداد المعجمات العامة حددت مجموعة من المكونات الاساسية ينبغي أن تتوافر فيها ، وأهم هذه المكونات :

(ا) المداخل :

— يتم تحديد مداخل المعجم اعتمادا على النصوص اللغوية ، ولايجوز الاكتفاء بالنقل عن المعاجم السابقة .

— تتحدد المداخل بالهدف من المعجم، فالمعجم المؤلف ليساعد أبناء غرب أفريقيا في قراءة كتب فرنسا يختلف بالضرورة عن المعجم المؤلف لهم ليعبروا عن حياتهم باللغة الفرنسية .

(ب) المعلومات اللغوية (وينبغي أن تتوافر مجتمعة في المعجم العام من الحجم المتوسط والحجم الكبير) .

— يقدم المعجم هجاء الكلمة على النحو المقبول عند المثقفين .

— يقدم المعجم نطق الكلمة برموز صوتيه مبسطة وواضحة .

—يقدم المعجم تأصيلا للكلمة ببيان اللغة الأصل والصيغة التي اشتقت منها .

— يقدم المعجم معلومات صرفية أساسية عن الكلمة (نوعها ، تصريفاتها) .

— يقدم المعجم معلومات نحوية أساسية (التعدى واللزوم والمطابقة) .

(جـ) بيان الدلالات :

— لابد من التمييز بين الدلالات المختلفة مع بيان مستوى استخدام كل دلالة (بائد ، عامى ، رسمى ، غير رسمى ، أدبى ، عامى ...)

— لابد من الافادة من الشواهد الموجزة الواضحة لبيان الدلالات .

— يكون شرح الدلالة بكل الوسائل اللغوية الممكنة : الترادف ،تضاد المعاني ، العموم والخصوص، السياق اللغوى ... الخ.

— الافادة من الصور والرسوم الايضاحية بقدر إمكانات الطباعة .

(د) المقدمة والخاتمة والغلاف :

— يوضع في المقدمة عرض نحوي مركز للغة ، مع بيان تاريخ اللغة، وتاريخ معاجمها.

— يستفاد من صفحات الخاتمة والغلاف لبيان المختصرات والارشادات المعاونة على استخدام المعجم :

رابعا : المعجمات التاريخية

المعجمات التاريخية أهم انجاز تكونت فكرته فى القرن التاسع عشر ولقد دخل العمل المعجمى فى القرن التاسع عشر تحت تأثير علم اللغة المقارن فى اطار المدرسة التاريخية [1] : لقد اكتشفت اللغة السنسكريتية وقورنت بغيرها من اللغات الهندية الأوربية ، وتقدم البحث فى الاسرات اللغوية الاخرى أيضا ، بذلك أصبح تأصيل المفردات يتم على أساس جديد من الدقة والموضوعية . ومن هنا فان الجانب الأول الاول فى المعجم التاريخى ، وهو التأصيل ، كانت أدواته متاحة فى القرن التاسع عشر.

وفوق هذا ، فان التسجيل الدقيق لتاريخ الكلمة على أساس الشواهد المؤرخة كان من أهم سمات معجمات القرن التاسع . فإذا كان جونسون قد أشار الى الدلالات التى يمكن أن تستخرج من الأمثلة المأخوذة من النصوص ، فإن هذا المبدأ كان قد طبق فى معجمات القرن التاسع عشر ، فأصبحت ذات هدف تاريخى . ويعد المعجم الذى أعده ريتشاردسون البداية الحقيقية لمعجم أكسفورد التاريخى للغة الإنجليزية، وهو المعجم المعروف باسم :

New English Dictionary on Historical Principles.

وقد أعد هذا المعجم من سنه ١٨٥٨ — إلى سنة ١٩٢٨ ، ثم أضيف اليه ملحق سنة ١٩٣٣. [2]. وأهم سمات هذا المعجم أنه:

١— يعطى دلالات المفردات الانجليزية على نحو كامل ، مع تمييز الدلالات تمييزا لم تعرفه المعاجم من قبل .

٢— يعطى تأصيلا للمفردات بدقة ، فيوضح كونها من الهندية الاوربية أو من غيرها من الاسرات اللغوية ، ويعطى الصيغة الأقدم فى الإنجليزية القديمة والوسيطة إذا كانت الكلمة أصيلة ، كما يقدم الاصل اللاتينى أو اليونانى ان كانت الكلمة مأخوذة عن هذه اللغة أو تلك .

٣— يعطى النطق الصحيح للكلمة .

٤— يقدم مع كل كلمة طائفة من الشواهد المأخوذة من النصوص إيضاحا للدلالات المختلفة لها ، ويسجل تاريخ كل دلالة فى ضوء النصوص ، ويعطى رمزا للكلمات البائدة .

وفى اللغة الالمانية يعد مشروع الأخوين &. W. Grimm موازيا فى الهدف والتخطيط

---

(١) حول ظروف نشأة علم اللغة المقارن وازدهاره ، انظر : علم اللغة العربية (للمؤلف) الكويت ١٩٧٣ ، الفصل السابع ١١٩ — ١٤٠ .

(٢) انظر المقدمة التى طبعت فى صدر الجزء الأول من هذا المعجم ، وبها وصف للمعجم وبيان لطريقة جمع المادة وكيفية العرض وأهم السمات .

لمعجم أكسفورد التاريخي ، ولكن تنفيذ معجم جريم التاريخي للغة الالمانية [1] استغرق وقتا أطول (١٨٥٢– ١٩٦٠) ، وتم إنجاز الأجزاء الاخيرة منه فى ظل تعاون بين أكاديمية العلوم فى برلين الشرقية وحدة بحوث معجمية بجامعة جوتنجن .

إن هذه المعجمات التاريخية أعمال مرجعية ضخمة ، يقع معجم أكسفورد فى حوالي ١٦ ألف صفحة ، ومعجم جريم كبير الحجم أيضا . ولذا ظهرت – منذ وقت مبكر وأثناء اعداد هذه المعجمات – فكرة صناعة معجمات متوسطة الحجم على أساس تاريخي . وتعد هذه المعجمات الوسيطة تلخيصا وافيا لمحتوى المعجمات التاريخية الكبيرة ومن أشهر هذه المعجمات الوسيطة معجم أكسفورد المختصر ، ويضم فى مجلد ضخم واحد (من ٢٥٠٠ ص) كل سمات المعجم الكبير فى إيجاز وتركيز [2] .

وإلى جانب هذا العمل فان المعجمات الكثيرة العامة التى ألفت للغات الأوربية قد أفادت من هذه الجهود التاريخية ، فأصبحت المعجمات العامة تعنى بالنطق ، وتوضح الأصل الاشتقاقي ، وتميز الدلالات ، وتتابع النصوص بحثا عن كلمات جديدة . وبذلك تعكس هذه المعجمات العامة تأثيرات من المعجمات الكبيرة التاريخية .

وبعد ، لقد تنوعت الاهداف التى تؤلف المعجمات من أجلها فى القرن العشرين تنوعا كبيرا ، وظهرت لذلك أنواع شتى من المعجمات العامة والمتخصصة ، وتكونت فى اعدادها خبرات كبيرة ، وظهرت معجمات كثيرة فى المراكز المعنية بتعليم اللغات ، وفي كل هذا اتجاهات جديدة فى صناعة المعجمات :

خامسا : الأعمال المعجمية الأخرى

١ – قائمة الألفاظ Glossary :

قائمة الالفاظ معجم صغير مرتبط بمجموعة محدودة من النصوص ، وهو عمل ذو هدف تعليمى . فكثير من كتب النصوص تضم قائمة بالالفاظ التى وردت فيها ، نجد هذا فى جهود أوربية كثيرة فى مجال تعليم اللغات بصفة عامة وفى تعليم العربية أيضا ، فالمجلد الواحد يضم النصوص ثم قائمة كاملة بالالفاظ مع الاشارة إلى مواضع ورودها فيها مع دلالة كل كلمة أو دلالاتها بلغة ثانية . وتعد قوائم الالفاظ أقدم أشكال العمل المعجمى الأوربى ، وكثيرا ماكانت قوائم الألفاظ

---

(١) ظهر المعجم بعنوان :

Jacob und Wilhelm Grimm, Das Deutsche Wörterbuch, 1825—1960, 16 Bande.

(٢) العنوان الكامل :

The Shorter Oxford English Dictionary, on Historical Principles, prepared by W. Little, revised and edited by C.T. Onions Oxford,1933

لبنات أساسية فى اعداد المعاجم الكبيرة ، ومازالت لها أهميتها فى مجال تعليم اللغات[1]

٢ ــ المعجمات المفهرسة Concordances

المعجمات المفهرسة معجمات مرتبطة بمجموعة من النصوص ولكنها ليست نصوصا تعليمية محدودة ، بل هى نصوص ذات حجم كبير ، مثل : القرآن الكريم ، أو الشعر الجاهلى ، أو : العهد القديم . والمعجم المفهرس يذكر الكلمة مع كل مواضع استخدامها فى تلك النصوص ، أى أنه يأتى بالكلمة ثم بكل الجمل التى وردت فيها الكلمة فى هذه النصوص ، مع الإشارة إلى مواضع هذه الجمل فى النصوص بذكر الكتاب والصفحة والسطر : وليس من شأن المعجم المفهرس أن يذكر دلالات المفردات ، بل هدفه الحصر الشامل للجمل التى استخدمت فيها الكلمة ، وهو بذلك أداة من أدوات البحث فى الدلالة . وهناك عدة مراكز بحوث لغوية تقوم حاليا بإعداد معجمات مفهرسة عن طريق الحاسب الآلى ، وتكون هذه المعجمات المفهرسة وسيلة من وسائل متابعة التجديد اللغوى ، تمكن من تسجيل الجديد أولا بأول[2] . ومن المعجمات المفهرسة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من إعداد محمد فؤاد عبد الباقى ، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف من إعداد ونسنك ومجموعة من المستشرقين .

٣ ــ المعجمات الفردية :

تقوم على الحصر الكامل لمجموع المفردات التى وردت فى مجموع النصوص التى يعدها المعجم ، وقد أعدت عدة معجمات استوعبت المفردات الواردة فى المؤلفات الكاملة لاحد الاعلام ، فى مقدمتها معجم جوته ويقع فى خمسة مجلدات تعاونت فى اخراجه أكاديمية العلوم برلين الشرقية مع أكاديميتى جوتنجن وهايدلبرج[3] . وثمة معجمات أخرى اقتصرت على حصر

---

(١) تضم كتب تعلم العربية للأجانب بصفة عامة قوائم بالألفاظ الواردة فى النصوص التى يضمها الكتاب ، مثلا :

C. Brockelmann, Arabische Grammatik, Leipzig 1962.

وأفضل كتاب مثل هذا النوع من التأليف المعجمى كتاب :

C. Gordon, Ugaritic Textbook, Roma,1965

فهو يضم النحو والنصوص وقائمة كاملة بألفاظها مرتبة على حروف المعجم ، وتقع فى الصفحات ٣٤٧ – ٥٠٧ .

(٢) أشهر هذه المراكز معهد اللغة الالمانية فى مدينة مانهايم فى المانيا الاتحادية

Intsitut für die deutsche Sprache, Mannheim.

ويقوم قسم الحاسب الآلى بالمعهد المتابعة اليومية والأعداد الحصرى للمفردات الواردة فى النصوص التى يختارها اللغويون من الجديد كل يوم من المطبوعات .

(٣) تام العمل على أساس الحصر الكامل : (ألفاظ جوته)

Fischer, Goethe—Wortschatz, 1929.

وكانت المرحلة الثانية للتحليل الدلالى لمعجم جوته :

Goethe—Wörterbuch, Berlin 1966.

الألفاظ الواردة فى نص أدبى واحد ، فتم إعداد معجم لاحد مؤلفات جوته ، هو آلام فرتر[1] ويدخل فى هذا النوع مجموعة المعجمات التى أعد أكثرها فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ويدرس الواحد منها ديوانا كاملا فيحصر ألفاظه ويحدد دلالة كل منها أو دلالاتها فى النص ، ثم يعرضها مرتبة على حروف المعجم وقد استوعب المشروع فى سنواته الأولى دواوين عنترة ، والمتلمس ، والنابغة وعبيد ، ولبيد ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو ابن قميئة ، وكعب بن زهير . ويمضى العمل الآن لإكمال هذا المشروع للوصول به إلى المعجم الكامل لألفاظ الشعر العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام .

٤ — المعجم السياقى أو معجم الأساليب :

يعد المعجم السياقى من أهم أنواع المعجمات العامة الحديثة . الفرق الأساسى بين المعجم السياقى وغيره أن الأول يعنى بجمع السياقات المختلفة التى تستخدم فيها الكلمة الواحدة فكلمة (ضرب) تأتى فى عدة سياقات : ضرب فلان فلانا ، وضرب ٥ × ٦ = ٣٠ ، وضرب العملة ، وضرب من الرجال بمعنى نوع منهم . ولاشك أن السياقات اللغوية المختلفة توضح اتجاهات دلالة الكلمة . فالضرب المسبب للأذى يختلف عن الضرب الرياضى ، وهما يختلفان عن ضرب العملة والضرب من الرجال . وهذا المعجم السياقى مفيد فى العمل المعجمى بصفة عامه ، ويفيد كذلك فى تعلم مهارة الكتابه بلغة أجنبية ، فكثيرا مايقع شك فى التراكيب ومدى جوازها فى اللغة الاجنبية وهنا يقوم المعجم السياقى أو : معجم الأساليب بإزالة هذا الشك . وقد اتضح فى الأعمال المعجمية اتجاهان فى إعداد المعاجم السياقية ، أحدهما إعداد المعجمات السياقية العامة ، ويضم المعجم الواحد فى مجلد واحد أكثر العلاقات الساقية استخداما مع كل كلمة شائعة من كلمات اللغة[2] ، والاتجاه الثانى اعداد المعجمات السياقية المتخصصة ، ويقوم على مادة لغوية متخصصة ، فالمعجم السياقى لألفاظ السياسة[3] مداخله وعلاقاتها السياقية تختلف عن المعجم السياقى لألفاظ علوم الأرض (الجيولوجيا وغيرها) .

---

(١) انظر : E. Merker, Wörterbuch zu Goethes Werther, 1958ff.

(٢) أهم المعجمات السياقية العامة :

Wörter und Wendungen, Leipzig 1968
Duden Stilwörterbuch, Mannheim 1962

(٣) حول المعجمات السياقية المخصصة ، انظر :

— Dictionaire contextuel d'un domaine de la politique les élections legislatives, CREDIF, Paris Mai 1975.

— J.L. Descamps, Présentation d'un Dictionaire contextuel de Francais pour les Sciences de la Terre. Langue Francaise, Février 1973 p. 111.

وثمة علاقة بين الاتجاهين ، فمن الممكن عن عن طريق المعجمات السياقية المتخصصة التى تغطى مجالات المعرفة والحياة فى تنوعها أن تكون أسسا للمعجم السياقى العام .

٥ ــ الكنز اللغوى :

هو أكبر أنواع المعجمات العامة ، ومن أشهر المشروعات فى هذا الاتجاه :

كنز اللغة الفرنسية

Trésor de la langue francaise

كنز اللغة اللاتينية

Thesaurus Linguae Latinae

وكلا المشروعين ضخم وطموح ، يحاول أن يجمع كل إيجابيات العمل المعجمى بين دفتى عمل واحد ، هدف كل منها أن يقدم ألفاظ اللغة موضع البحث بكل أبعادها ، موثقة بالنصوص الكثيرة المتنوعة لمختلف المؤلفين ، من كل فروع المعرفة مع بيان الدلالات تفصيلا . إنه يريد أن يجمع بين سمات المعجم المفهرس والمعجم السياقى والمعجم (الدلالى) العادى وأنواع المعاجم الأخرى فى عمل معجمى واحد : ولهذا كله فقد يصل هذا المعجم إلى أكثر من مائة مجلد ، وقد شغل حرف واحد فى كنز اللغة الفرنسية ثلاثة مجلدات كاملة ، تمثل الكلمات التى تبدأ بحرف A من المرحلة الحديثة فى تاريخ اللغة الفرنسية (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠) . يبقى بعد هذا أن تعد المجلدات الأخرى لباقى الحروف فى هذه المرحلة الحديثة ، ثم تعد المرحلة الاقدم فى مجلدات أخرى ، وقد بدأ إعداد كنز اللغة اللاتينية سنة ١٨٩٤ ، ولم يكتمل بعد ، أما كنز اللغة الفرنسية فقد بدأ يظهر منذ سنة ١٩٧١[1]

٦ ــ معجمات المراحل :

Period Dictionaries

معجمات المراحل هى معجمات يهدف الواحد منها إلى حصر الألفاظ المستخدمة فى مرحلة بعينها من مراحل تاريخ اللغة مع بيان دلالاتها وأصولها وغير ذلك . ومن ثم تعد معجمات المراحل ضرورية لإعداد المعاجم التاريخية بشكل أفضل[2] ، وقد تمت عدة مشروعات لمعاجم المراحل ، منها :

ــ معجم الانجليزية القديمة

Old English Dictionary

ــ معجم الانجليزية الوسيطة

Middle English Dictionary

ــ معجم بدايات الانجليزية الحديثة

Early Modern English Dict.

وثمة مشروع يتم إنجازه فى كلية الآداب بجامعة القاهرة لاعداد معجم لألفاظ الشعر الجاهلى ، يعد من معاجم المراحل فى تاريخ اللغة العربية .

---

(١) انظر :

Matoré, Histoire des dictionaires Francais, Paris 1968, p. 186.

(٢) حدد ماتوريه اتجاه معجمات اللغة الفرنسية فى المستقبل تحديداً يقوم على معاجم المراحل :

G. Matoré, Histoire des dictionaires francais, Paris 1968., p. 177—182.

٧ — معجمات أصول المفردات (= المعجمات الاشتقاقية) :

Etymological Dictionaries

معجمات أصول المفردات هى المعجمات التى تبين أصول المفردات ، فنى كل لغة من اللغات كلمات موروثة وأخرى دخيلة فنى العربية — مثلا — ألفاظ كثيرة ترجع الى اللغة السامية الأولى ، نجدها فى كل اللغات السامية أو فى أكثرها . وهناك كلمات دخلت قديما من اليونانية والبهلوية وكلمات دخلت بعد ذلك من التركية وكلمات دخلت حديثا من الايطالية والفرنسية والانجليزية ، وهدف معاجم أصول المفردات إيضاح أصل كل كلمة من كلمات المعجم(١) هناك معاجم تختص بهذا العمل ، كما تهتم المعجمات العامة الحديثة بهذا الجانب التأصيلى والمعجم العربى الوحيد الذى يهتم بهذا الجانب هو «المعجم الكبير» الذى يعده مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وتأصيل المفردات من أهم الاضافات فى المعجم الكبير ، ولكن «المعجم الوسيط» لم يهتم بهذا الجانب بينما تهتم المعاجم الاوربية المماثلة به :

٨ — معجمات المترادفات :

تهدف معجمات المترادفات إلى بيان الفروق بين الالفاظ المتقاربة المعنى ، ومنها معجمات قليلة الفائدة تذكر الكلمات ذات المعنى المتقارب دون شرح أو بيان ، ولكن أكثر معجمات المترادفات فائدة هى المعجمات التى توضح عن طريق الامثلة والشرح الفروق السياقية الدقيقة بين هذه الالفاظ التى تبدو متقاربة المعنى (٢) :

(١) هناك معاجم تأصيلية تؤرخ لمفردات أسرة لغوية كاملة ، وهذه المعاجم تضم كلمات اللغات واللهجات المدرجة فى إطار أسرة لغوية واحدة ، أهمها :

Diez, Dictionaire étymologique des langues romanes (1854).

W. Meyer—Lübke, Romanisches Wörterbuch der Französischen Sprache.

وفى مجال اللغات السامية يعد المشروع الذى بدأ منذ سنوات لاعداد معجم تأصيلى مقارن للغات السامية الجهد الوحيد فى هذا الاتجاه ، أنظر .

David Cohen, Dictionaire des racines Sémitiques, Paris 1970 1970.

ومن المعاجم التأصيلية للغة واحدة :

F. Kluge, Etymologisches Wörterbuch der deutschen Sprache, 20 Auflage,1967.
Bloch, Dictionaire étymologique de la langue francaise, avec la collaorabtion de W. von Wartburg (1932).

A Dauzat, Dictionaire étymologiques de la langue francaise 1938.

وفى مجال اللغات السامية نشير بصفة خاصة إلى المعاجم الاتية ذات المحتوى التأصيل :

W. Gesnius, Hebräisches und Aramäisches Handwörterbuch, Berlin,17. Auflage, 1954.

C. Brockelmann, Lexicon Syriacum, Halle 1928.

C. Gordon, Ugaritic Text—book, Roma.

(٢) من أمثلة هذا النوع :

Paul Grebe und Wolfgang Müller,
DUDEN, Vergleichendes Synonymwörterbuch, Mannheim 1964.

٩ – المعجمات المصورة :

المعجمات المصورة هى المعجمات التى تقوم أساسا على الصور ، وثمة فرق بين معجم يقوم على الصور ومعجم آخر يفيد من الصور فى شرح بعض الكلمات :

المعجم المصور يتكون من عدد من اللوحات ، تمثل كل لوحة منظرا للبيت ، أو لحجرة النوم ، أو للشارع ، أو للسيارة ، أو للنباتات ، أو للحيوانات الخ ، ومع كل شى مادى فى الصور رقم ، أما الصفحة المقابلة للوحة الصور فيها أسماء هذه الاشياء بجانب أرقامها .

وهكذا يقوم المعجم المصور على الصور ، ويعطى أسماء الاشياء . وأكبر المعاجم المصورة ما أصدرته موسسة دودن Duden فى المانيا الاتحادية ، وهو معجم ألمانى مصور يقع فى حوالى ٣٧٠ لوحة ، ترجم مع تعديلات إلى اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغة الايطالية واللغة الاسبانية [١] . وثمة معجمات أخرى مصورة أصدرتها موسسة دودن للاطفال (٥٠ لوحة × ١٠ كلمات) وللتلاميذ (١٠٠ لوحة × ٣٠ كلمة) . وقد اهتمت مؤسسة لاروس Larousse باصدار عدة معاجم مصورة للغة الفرنسية ذات مستويات متدرجة ، ترجم بعضها إلى الأسبانية . وهذه المعجمات المصورة مفيدة فى اتجاهين ، فهى تفيد الطالب والباحث أن يفتح الصفحة المناسبة ويجد الكلمة المنشودة ، وهى – من الجانب الآخر – ذات كشافات أبجدية فى آخر المعجم ، يستطيع الطالب البحث فيها فيجد الكلمة ومعها رقم اللوحة ورقم الكلمة فى اللوحة ليعود إليها فيتعرف على الشىء المراد . ولذلك تفيد هذه المعجمات العارف بالكلمة أن يعرف ماتشير إليه كما تفيد من يعرف الشىء ويود معرفة تسميته . وقد ظهر منذ سنوات اتجاه جديد لاعداد معجمات مصورة ذات لغتين ، ولكل منها – بالضرورة – كشافان يضم الواحد منهما كلمات لغة واحدة مرتبة على حروف المعجم . [٢]

١٠ – معجمات المعانى

The Conceptual Dictionaries

معجمات المعانى هى المعجمات التى تصنف فيها الكلمات فى مجموعات دلالية . وقد عرف العرب هذا النوع من المعاجم ، ووصل إلى قمته فى القرن الخامس الهجرى عند ابن سيده فى « المخصص » .

وقد أدرك الأوربيون فى القرن التاسع عشر أهمية هذا الضرب من المعاجم . وأهم المعاجم المصنفة وفق المعانى معجم روجيه Roget للغة الانجليزية ، ثم معجم

(١) العنوان الكامل لهذا المعجم فى اللغة الالمانية :

DUDEN, Bildwörterbuch der deutschen Sprache, Mannheim 1958.

(٢) من أمثلة المعجمات المصورة ذات اللغتين :

Bildwörterbuch Deutsch und English, Picture Dictionary German and English, Leipzig 1965.

دورنزايف Dornseif للغة الالمانية[1] وصعوبة إعداد هذه المعاجم تكمن فى تحديد المعانى التى يدور حولها المعجم ، فليس ثمة تصنيف متداول للمعانى يهتدى الباحث به إلى موقع الكلمة بسهولة . ولهذا السبب فمن الضرورى إعداد كشاف أبجدى يضم الكلمات التى وردت فى المعجم على أن يحدد الكشاف مواقع ورودها فى متن المعجم :

١١ — معجمات النطق

Pronounciation Dictionaries

هى المعجمات التى تعنى ببيان النطق الصحيح للالفاظ . وتحتاجها الجماعات اللغوية فى نزوعها نحو تقنين نطق واضح ومبين ومعترف بصحته لدى جمهور المثقفين ، ينشده كل إنسان يريد لنفسه مكانة اجتماعية مرموقة ، ويلتزم به العاملون فى الإذاعة والتلفزيون[2] . وتعد مشكلة النبر من أهم مشكلات معاجم النطق ، فقد يختلف نبر الألفاظ الأساسية من لهجة لأخرى . فيقوم معجم النطق بالإرشاد إلى النطق المنشود ، ونطق الالفاظ الدخيلة على نحو موحد مقبول عند المثقفين يعد أيضا مما ينشده القارئ فى معاجم النطق .

١٢ — المعجمات الاملائية

Orthographic Dictionaries

هذه المعجمات تهدف إلى ضبط الأشكال الإملائية على نحو مقنن لا خلاف فيه[3] ، وقد ظهرت فكرة المعجمات الإملائية حلا لمشكلة اختلاف أبناء الجماعة اللغوية الواحدة فى تدوين الكلمة الواحدة وحلا لمشكلة تدوين الأصوات الأجنبية والكلمات الأجنبية بصفة عامة . وفى تدوين العربية تعد قضية تدوين الهمزة — وما أكثر كلمات العربية ذات الهمزة — وقضية الألف المقصورة وقضايا تدوين الأصوات الأجنبية على نحو مقنن معترف به لدى جمهور المثقفين[4] ، من أهم القضايا التى

---

(١) انظر عن محاولات شبيهة بالنسبة للغة الفرنسية :

Georges Matore, Histoire des dictionaires francais p. 170.

(٢) أهم معجمات النطق :

Th. Siebs, Deutsche Hochprache, Bühnenaussprache, 18 Auflage 1961.

وهو معجم يعتمد النطق المثالى المعترف به للالقاء والتمثيل على المسارح الألمانية ، وهو النطق الذى أخذت الاذاعات الألمانية به مذيعيها ودربتهم عليه وألزمتهم به فصار مألوفا لدى المثقفين .

وبالنسبة للغة الانجليزية ، انظر معجم :

D. Jones, English pronouncing dictionary, London 1907.

(٣) نشأت ضرورة إعداد هذه المعجمات فى أوربا بسبب البون الشاسع بين الاملاء والنطق فى عصر النزوع إلى نشر المعرفة عند كل الطبقات فلا تقتصر القراءة والكتابة على الفئات الميسورة . فالصوت الشفوى الاسنانى المهموس (ف) يكتب فى الألمانية — مثلا — على ثلاثة أنحاء (V) , (Ph) , (F) ، ولذا يقدم المعجم الارشاد عند الحاجة .

(٤) يكتب صوت الجيم الشديدة على عدة أشكال ، فهى (غ) فى معربات القرن التاسع عشر (ق) فى تونس ، (ج) فى مصر ، (گ) فى العراق .

لاتحل بقاعدة نظرية بل بتطبيقها فى معجم يضم هذه الكلمات مدونة بالشكل المقنن المعترف بصحته فى المشرق والمغرب .

١٣ — المعجمات التخصصية :

المعجمات التخصصية هى المعجمات التى تقدم الألفاظ الخاصة بفرع من فروع العلم(١)، وثمة معجمات تخصصية من أحجام مختلفة بعضها كبير شامل لمصطلحات الفرع كله ، وبعضها وسيط انتقائى . وبعضها أساسى يقتصر على المصطلحات الأساسية فى ذلك الفرع من العلم . وهناك معجمات تخصصية أحادية اللغة ، وبعضها ثنائى اللغة ، وقد زاد فى السنوات الماضية اتجاه إعداد هذه المعجمات متعددة اللغات . ويفرض عدد اللغات فى المعجم طريقة ترتيب المداخل ، فالمعجم الأحادى اللغة والثنائى اللغة يرتب هجائيا ، أما المعجم المتعدد اللغات فيرتب على موضوعات العلم، وتذكر كلمات كل موضوع جزئى بداخله، ثم توضع كشافات أبجدية فى آخر المعجم ، و بكل لغة من لغات المعجم ترشد إلى الكلمة فى متن المعجم .

وقد تخصصت عدة مؤسسات لغوية فى إعداد المعجمات المتخصصة ، ففى فرنسا يقوم المجلس الدولى للغة الفرنسية :

Conseil International de la langue francaise

بإصدار معجمات متخصصة متعددة اللغات(٢)، وفى الوطن العربى يقوم مكتب تنسيق التعريب بالمغرب بمهمة إصدار معجمات تخصصية يعدها اللغويون والمتخصصون فى كل الدول العربية ويناقشها أصحاب التخصص مع اللغويين فى مؤتمرات التعريب(٣)

١٤ — معجمات الألفاظ الأساسية :

معجمات الألفاظ الأساسية هى المعجمات الهادفة إلى تقديم الألفاظ الأكثر شيوعا فى

---

(١) حول مشكلات المفردات التخصصية ودرجة عموميتها فى فروع العلم وخصوصيتها فى فرع بعينه، هناك دراسات كثيرة :

— Heinrch Erk, Zur Lexik wissenschafticher Fachtexte, Goethe Instiut, München 1972.

— Louis Guilbert et Jean Peytard, Les vocabulaires techniques et scientifiques, Langue Francaise, Février 1973.

(٢) من أمثلة المعجمات المتخصصة التى أصدرها المجلس الدولى للغة الفرنسية معجمات تتناول المجالات الآتية : التصوير السينمائى ، الإدارة ، الأذاعة ، الطب ، البيئة ، الأعلام ، الغابات ، علم المحيطات .

(٣) تم إنجاز معجمات : الكمياء ، الفيزياء ، والجيولوجيا ، والرياضيات ، والنبات ، والحيوان ، بشكل نهائى . وهناك معاجم تنشر بوصفها بحوثا فردية فى مجلة « اللسان العربى » ، منها : معجم الإدارة ، معجم الاقتصاد .

لغة من اللغات [1] : وقد اتضح أثناء إعداد قوائم الالفاظ الاساسية ضرورة مراعاة الموضوعات والمواقف، وجمع المادة في إطار الموضوعات والمواقف ، فالشيوع ليس مطلقا وهو مرتبط بالموضوع [2] . ومن ثم فقد تغيرت الاتجاهات — أخيرا — لتجعل الألفاظ الأساسية تتحدد على أساس الموضوعات وفى إطارها . والمشكلة الأساسية التى تواجه الحل الواضح لمنهجية البحث فى هذه الألفاظ فى العربية هى قضية الفرق بين لغة الكتابة الفصيحة ولغة الحديث التى تسودها العامية فى كل اقليم عربى . وعلى الرغم من هذا ، فثمة جهود تبذل للوصول إلى تحديد للالفاظ الاساسية فى العربية على أساس المنطوق والمكتوب . ونجاح هذه الجهود يعود — دون شك — بالفائدة على برامج تعليم العربية .

وهكذا تنوعت المعجمات الحديثة تنوعا كبيرا ، وقد ذكرنا المعجمات العامة ثم المعجمات التاريخية وأضفنا إليها أربعة عشر نوعا آخر من المعجمات . وأكثر هذه المعجمات ذات صلة وثيقة بالترجمة والتثقيف وتعليم اللغات . إن معجمات الألفاظ الأساسية أداة من أدوات المقرر الأساسى فى تعليم اللغات . والمعاجم التخصصية وقوائم الألفاظ تلبى حاجة المقررات المختلفة بعد ذلك . والمعاجم السياقية أساس كل عمل معجمى يحاول أن يقدم مع الكلمة دلالتها بدقة ومواضع استخدامها ، وهى أيضا ذات فائدة كبيرة فى الارشاد إلى الاستخدام الصحيح للكلمة وتحقق بهذا هدفا تعليميا .

معجمات المترادفات ذات هدف عملى أيضا ، فهى تساعد متعلم اللغة من غير الناطقين بها على تبين الفروق بين المفردات ، فتمكنه من الاستخدام الدقيق لكل كلمة منها . والمعجمات المصورة وسيلة للتعرف على التسمية المقبولة للأشياء المادية من جانب

---

(١) أشهر هذه الجهود ما قام به اللغوى البريطانى أوجدن :

Ogden, Basic English, International Second Language,

وقد قام على أساس تحديد الحاجات الاساسية والتعبير عنها ٨٥٠ كلمة مختارة من الالفاظ المستخدمة فى الإنجليزية .

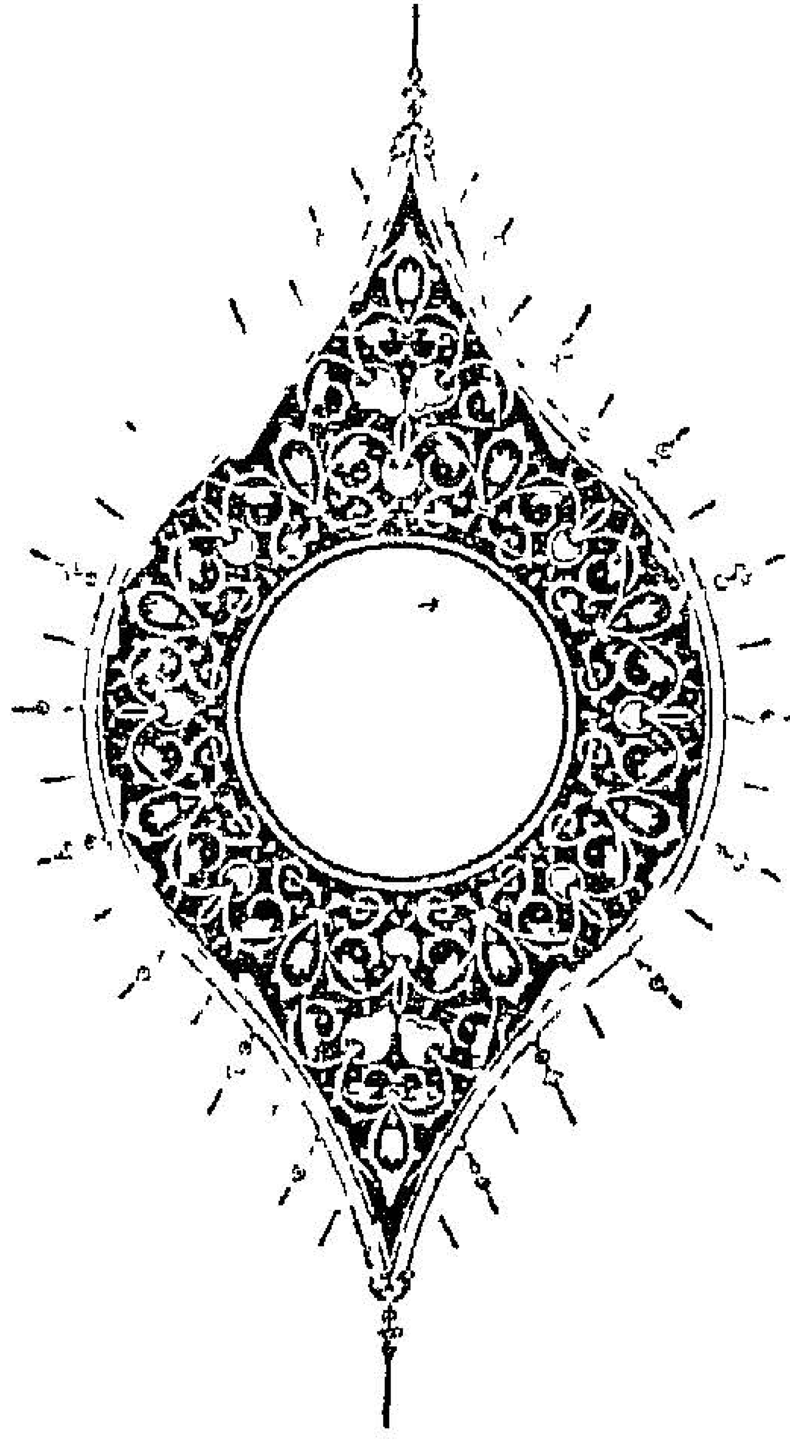
(٢) حول هذا الاتجاه ، انظر :

Wolfgang H. Klein, Methoden und Probleme der Textsortendifferenzierung,in : Beiträge zu den Sommerkursen 1975, Goethe—Institut, München.

ولمعرفة دلالة كلمات كثيرة خاصة بأشياء مادية .

ومعجمات النطق ذات فوائد واضحة في تبين النطق الصحيح للكلمات ومعجمات الاملاء توضح كيفية كتابة المفردات مما يقنن التدوين وييسر الثقافة والترجمة ، وإلى جانب هذا كله فان المعجمات العامة تكون فى أحوال كثيرة جامعة لفضائل أنواع أخرى من المعجمات ذات الأهداف النوعية . وفى كل هذا فإنه من الضرورى أن تعد هذه الأعمال المعجمية بمستوى من الدقة والواقعية وأن يكون إخراجها بمستوى العصر حسنا ووضوحا وتحقيقا للفائدة .

محمود فهمى حجازى



التعاقب والمعاقبة
من الجانب الصوتى الصرفى

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

مقدمة :

علم الأصوات Phonetics قديم ضارب فى القدم ، عرفه الهنود والإغريق والرومان والعرب ، وبذلوا فيه جهودا مشكورة ، ثم أهملت بعد ذلك تلك الدراسات حتى أشرق العصر الحديث فهيأ للدارسين وسائل البحث من التجارب العملية والآلية ، كما يسّر الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء والتشريح والفيزياء . وربما كان من أسباب إهمال تلك الدراسات فى الفترة الوسطى عدم إقبال الباحثين عليها ؛ لأن جل اهتمامهم كان منصبا على الدراسات النحوية والصرفية ، وهما محور أسرار اللغة ، كما يظنون ، أما الدرس الصوتى فكان نافلة وترفا (١)،

وعلماء القراءات القرآنية فى العالم الإسلامى هم الذين حملوا على أكتافهم عبء هذه الدراسات الصوتية ، وكانت جهودهم موفقة ، ونتائج بحوثهم دقيقة على الرغم من نقص وسائلها ، وإن كانوا لم يقصدوا تلك الدراسات لذاتها ، وإنما أوحى إليهم ضبط القرآن وترتيله بهذه الأبحاث . ونحن نؤمن الان أن أن كل دراسة صرفية أو نحوية لاتقوم على أساس صوتى مصيرها الفشل ، لأن العلاقة وثيقة بين علم وظائف الأصوات Phonology وبين الدرس الصرفى والنحوى. ومن أخطر المزالق ما وقع فيه علماء العربية حيث اهتموا بالأصوات الصامتة وبنوا عليها دراسة التصريف

---

(١) انظر أمثلة لذلك فى : علم اللغة العام القسم الثانى ٢٤٤ . د . كمال بشر . دار المعارف . القاهرة .

والاشتقاق دون ذكر للحركات ،وأعانهم على ذلك وجود رموز للحروف العربية مستقلة دون الحركات التى لم تظهر إلا على يد الخليل بن أحمد الفراهيدى ، مع أن للحركات خطورتها فى تنويع أصل كل معنى ، وعن طريق الحركات يتحقق تغاير المعنى الصرفى ، والدور البنائى الوظيفى ، فهم عنوا بالمكتوب ولم يعنوا بالمنطوق ، ولهذا وقعوا فى أخطاء لا حصر لها فى الدرس الصوتى الصرفى والنحوى ، فالكتابة هى التى صرفت علماء العربية عن أهمية أصوات اللين ، فضاعت دراسة المقاطع من بين أيديهم ، إذ الحركة القصيرة تكوّن مع الحرف الساكن مقطعا مستقلا فهى تكوّن قمم المقاطع العربية ، ولما أهملوا الحركات ، أهملوا كذلك حروف المدّ واللين ، فكانت إشارتهم إليها سطحية وكثيرا ما أهملوها فى الكتابة ، إلا أننا يجب أن نذكر ابن جنى عالم العربية الفذ حيث أشار إلى هذه الحركات وعلاقتها بحروف المد واللين وإن كانت إشارته يحيطها بعض الغموض ، فقال « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد ، وهى الألف والواو والياء ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث ؛ وهى : الكسرة والفتحة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة : الألف الصغيرة والكسرة : الياء الصغيرة ، والضمة : الواو الصغيرة ، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة [1] » فابن جنى لحظ بأنه لا فرق بين الحركات وأصوات المد واللين إلا فى الكم وإن كان لم يحدد الفرق بين الحركة والمدّ فى قوله «الحركات أبعاض حروف المد » .

فالحركة الطويلة تساوى حركتين قصيرتين ، عند علماء اللغة المحدثين . فإذا أضفنا إلى ذلك أن حروف المدّ أوضح فى السمع ، وهى مجهورة ، والمجهور أقوى جرساً ظهر لنا مقدار مكانها فى الحقل الصوتى ، كما لحظ العروضيون أهميتها فى موازين الشعر

---

(١) سر صناعة الإعراب ١٩/١ لابن جنى . ط أولى ١٩٥٤

وموسيقاه، ثم هى تمثل علامة الإعراب فى كل من : المثنى وجمع المذكر السالم وملحقاته ، والأسماء الخمسة ، وأخيراً « تعتبر من العناصر الضرورية فى بناء نظامى النبر فى الصرف، والتنغيم فى النحو »[1]

وهذا البحث يتصدى لأصوات العلل ، ويختار من بينها : الواو والياء ليحدد زاوية واحدة يقوم بفحصها ودرسها ، وحسبه ذلك .

تلك الزاوية محل الدراسة ، هى تعاقب[2] الواو والياء على الصيغة ، وحرف العلة إذا كان متحركاً سمى علة لاغير مثل : عوَض ، حيَل ، سوَر ، وإذا كان ساكناً وقبله حركة مجانسة سمى علة ومدا مثل : نُور. عيد . دار وإن سكن وانفتح ماقبله سمى : ليناً مثل توْب ،سيْف . وقد رمز علماء العربية لحروف العلة والمد واللين برمز واحد ، وهو إما الواو ، وإما الياء ، وإما الألف ، وكان هذا من الأسباب التى أوقعت فى اللبس والخلط ، فلا فرق عندهم بين : وَجد ، ويُوجد فيرمزون لهما بالواو ، ويرمزون بالياء فى يلد ، ويَرْمى . على الرغم من الفرق بينهما ، أما المصطلحات العلمية فقد فرقت بينهما : الواو الحرف : w والواو الحركة : o والياء الحرف : y والياء الحركة : i وبهذا يكون لكل من الواو والياء مدلولان مختلفان فى الأبجدية ، وقيمتان صوتيتان . كونهما صوتين صامتين ، وكونهما حركتين[3] . وقد تسمى الواو والياء فى الحالة الأولى (بأنصاف الحركات) أو تسمى (أشباه أصوات اللين) ، ذلك لأن لهما جانباً يشبه أصوات اللين ، وجانباً آخر يشبه صفات الأصوات الصامتة .والمعروف أن هذه الأصوات تتأثر بما يجاورها من أصوات فتتغير صفاتها لتصبح مفخمة أو مرققة ، أو بين التفخيم والترقيق .

وهناك مشابه بين صوتى المد واللين -- الواو والياء جمعتها من التراث -- عدا

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٧٢ دكتور تمام حسان . الهيئة العامة للكتاب .

(٢) لابن جنى كتاب سماه (التعاقب) وهو مفقود حتى الآن ، وقد أشار إليه ياقوت فى كتابه . معجم الأدباء ، ترجمة أبى الفتح عثمان بن جنى ج ١٢ص ١١٠ وأرجح أن ياقوتا رآه بدليل قوله« وأطرف به ! وحجمه مائتا ورقة» وانظر الأشباه والنظائر للسيوطى ١٢٩/١ حيث أشار أيضا إلى هذا الكتاب ونسبه لابن جنى .

(٣) دراسات فى علم اللغة ١٣٠ . القسم الأول . د . كمال بشر . ط الثانية . دار المعارف

ماسجله علماء التصريف من قلب أحد الصوتين إلى الآخر ، وذلك فى بابى الإبدال والإعلال ، وإليك جوانب منها :

١ - أن كلا من الواو والياء من أصوات اللين الضيقة ، بخلاف الألف .

٢ - أن الواو امتداد للضم مع فرق يسير فى وضع اللسان ، والياء امتداد للكسر مع نفس الفرق فى وضع اللسان

٣ - الواو أخت الياء ، والضم أخو الكسر ، والدليل على ذلك أنهما - يجتمعان فى الردف . يقول زهير :

ولا تكثر على ذى الضغن عتباً
ولا ذكرَ التجرّم للذنوب
ولا تسأله عما سوف يبدى
ولا عن عيبه لك بالمغيب
متى تك فى صديق أو عدوٍّ
تخبرك العيونُ عن القلوب(١)

فجاء : بالمغيب مع القلوب .

وقول أبي نواس(٢) :

أجارةَ بيتينا أبوك غيورُ
وميسور مايرجى لديك عسيرُ

فجاء بغيور مع عسير .

وكقول الشاعر :

دع الأطلال تسفيها الجنوب
وتُبلى عهد جدّتها الخطوبُ
وخلِّ لراكب الوجناء أرضاً
تخبُّ بها النجيبة والنَّجيبُ

ويقول ابن جنى : ألا تعلم كيف استجازوا الجمع بين الواو والياء ردفين نحو : سعيد ، وعمود(٣) ، وأرجح أن تلك الظاهرة كانت موجودة فى الشعر البدوى القديم كقول امرىء القيس :

قد أشهدُ الغارة الشعواء تحملنى
جرداءُ معروقةُ اللَّحْيَيْن سُرْحوبُ

ثم قال فيها :

كالدلوِ بُتّتْ عراها وهى مثقلةٌ
وخانها وَذَمٌ منها وتكريبُ

فقد استعمل امرؤُ القيس كلمة (سرحوب) ثم (تكريب) . ولكن هذه الظاهرة تقل أو تمحى فى البيئات المتحضرة ، يؤكد ذلك أننا لانجد

---

(١) أسرار العربية ٣١٦ لابن الأنبارى . ط دمشق .
(٢) ديوانه ٤٨٠ مطبعة مصر .
(٣) الخصائص ١/٨٦ الهلال .

+ نثراً منتقاً فى شعر شاعر كابن الرومى

مثلا .

٤ - كما سلكت الواو والياء مسلكاً واحداً فى حالة الوقف ، حيث تحذف الكسرة والضمة وتبقى الفتحة فتقول : هذا يزيدْ . ومررت بيزيدْ ، ثم تقول : رأيت زيداً .

٥ - أن قبيلة طيىء كانت تقف على الألف المتطرفة بالواو حينا وبالياء حينا آخر فكانوا يقولون فى : أفعَى : أفعوْ . وأفعىْ . ولعل السبب فى هذا أنك إذا وقفت على الألف خفيت غاية الخفاء . فأبدلوا منها ياء أو واوا ؛ لا تخفى أن الواو والياء أظهر من الألف.

٦ - جعل التنوين واوا بعد الضمة ، وياء بعد الكسرة ، وذلك أن أزد السّراة كانوا يقولون :جاء زيدو ،مررت بزيدى[2] ولعلهم فعلوا ذلك حرصاً على بيان الإعراب عند الوقف ، إذ الإعراب غالباً مايزول فى حالة الوقف .

٧ - أن العرب تسقط الياء اكتفاءً بالكسرة ، كما تحذف الواو اكتفاءً بالضمة قبلها ، فمثال حذف الياء قول الشاعر :

كفَّاكَ كفٌّ مـا يليق درهما
جودا وأُخرى (تعط) بالسيف الدما[3]

وهى لهجة هذيل .

وأن الياءات المتطرفة كقوله تعالى : « الداع . . و . . . الجوار ، و . . . يأت ، والليل إذا يسْر .

- من القراء من يحذف هذه الياءات ، وهى لغة هذيل[4] .

ومثال حذف الواو ما أنشده الكسائى :

متى (تقولُ) خلتْ من أهلها الدار
كأنهم بجناحىْ طائرٍ طاروا

وهذه الظاهرة فى هوازن وقيس .

كما كانت مناطق جغرافية شاسعة يسكنها قبائل قيس وأسد - تحذف الواو

---

(١) شرح الحماسة ٢/٨٢٩ للمرزوقى ، والهمع ٢/٢٠٦ للسيوطى .
(٢) أمالى شجرية ١/٣٨٠ . وشرح الشافية ٢/٢٧٤ ، وانظر : كتابنا : اللهجات العربية فى التراث ٣٩٢ مصورة الهيئة العامة للكتاب . القاهرة .
(٣) البحر المحيط ٥/٢٦١
(٤) إتحاف فضلاء البشر ١١٣

والياء وهما علامة المضمر ، فقد سمع سيبويه بعضهم ينشد :

١ – طافت بأعلاقه خودٌ يمانيةٌ
تدعو العرانين من بكر وماجمع

٢ – وقول عنترة :

(يادار عبلة بالجواء تكلمْ)[1].

والأصل فى البيت الأول : وما جمعوا . والثانى : تكلمى .

وظاهرة الحذف السابقة أكدتها قراءات قرآنية ، حتى لا يظن ظان أن هذا الحذف للضرورة الشعرية[2] .

فهذه الأشياء السابقة شركة بين الواو والياء وهى تؤكد التشابه بينهما وذلك يزكّى انتقال وتعاقب كل منهما ، من مخرجه إلى مخرج الآخر .

— ٢ —

وقد أمدتنا المصادر العربية بأمثلة للتعاقب ، التقطناها ، وقمنا بتنظيمها ، واستنتجنا منها قضايا ومسائل :

١ – فى الأفعال : « قد دّوخوا الرجل وديخوه ، وقد تحيزت إلى فئة ، وقد تحوزت ، وساغ الرجل طعامه يسيغه ، وبعضهم يقول : يسوغه[3] » .

٢ – فى العين : « إن فلانا سريع الأوبة والأيبة[4] » . والمواثق والمياثق .

٣ – وتكون المعاقبة (*) فى اللام : «كنوت الرجل وكنيته ، وعزوت الرجل – وعزيته[5] – إذا نسبته إلى أبيه .

٤ – وتكون المعاقبة فى التثنية : نسيان ونسوان ، ورحوان ورحيان[6] .

٥ – وتكون المعاقبة فى الجمع : هو ذو دغيات ودغوات [أى أخلاق رديئة] .

٦ – وتكون المعاقبة فى صيغة فعول : هو الكذاب الأثوم والأثيم[7] .

٧ – وقد تعتقب الياء والواو زائدتين من بنات الأربع ، روى ابن السكيت :

(١) سيبويه ٢/٣٠٢ ط بولاق .
(٢) اللهجات العربية فى التراث ٥٥٨ .
(٣) أدب الكاتب ٣٦٥ لابن قتيبه ط السعادة . تحقيق محيى الدين ، والمخصص ١٤/٢٠
(٤) أدب الكاتب ٤٥٩ واللسان ٢/٣٢٥
(٥) المزهر للسيوطى ٢/٢٧٩ ، أدب الكاتب ٣٦٤
(٦) المخصص ١٤/٢٥
(٧) المخصص ١٤/٢٥
(*) تقول المعاجم : عاقبته فى الراحلة إذا ركبت أنت مرة وركب هو مرة . وهما يتعاقبان كالليل والنهار . وقال ابن فارس : الباب كله يرجع إلى أصل واحد هو : أن يجىء الشىء بعقب الشىء ، أى : متأخرا عنه . وفى المعاجم أيضا : نخل معاقبة : تحمل عاما وتخلف آخر . والتعاقب والاعتقاب : التداول (اللسان والمصباح ومختار الصحاح) فمعنى المعاقبة عند علماء اللغة يرتبط بمعناها الخاص وهو قلب الحجازيين الواو ياء .

« جعلته على حنديرة عيني وحندورة عيني . أي نصب عيني [1] .

وقد يرد سؤال مؤداه . هل يمكن أن نضع نظامًا للقبائل تسير عليه فى هذه الظاهرة ؟ كأن ندعى مثلا أن قبيلة عربية ، أو مساحة جغرافية من البشر تؤثر نظامًا من المعاقبة تتخالف به مع غيرها .

أرى أنه لايمكن أن نحسم برأى ، حتى نعرض لنصوص لغوية من شأنها أن تساعدنا فى استنباط حكم ، وإليك بعضها :

١ ــ ما روى عن الأصمعى من قوله : سألت المفضّل عن قول الأعشى :

لعمرى لمن أمسى من القوم شاخصًا

لقد نال خيصًا من عفيرة خائصا

فقلت : ما معنى خيصًا خائصا ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص العطاء فى بنى فلان ــ أى يقلّله فكأن خيصا شىءٌ يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصا ــ قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوْصًا ، إذ هو من قولهم : هو يخوِّص العطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهى لغة لأهل الحجاز [2] » . وزاد اللسان « وأهل الحجاز يسمون : الصوّاغ = الصّياغ ، ويقولون : الصيّام : للصوّام ، ومثله كثير [3] . كما عزا الفراء الصيغة اليائية إلى الحجاز [4] ، ومثل ذلك فعل ابن جنى فى محتسبه [5] ، وابن خالويه فى شواذّه [6] ، وابن السكيت فى إصلاحه [7] ، وابن سيده فى مخصصه [8] ، وابن جرير الطبرى فى تفسيره [9] ، وأبو الطيب اللغوى فى إبداله [10] .

وأرجح أصالة الصيغة الواوية لسببين :

أولهما : كثرة استعمال الصيغة الواوية .

ثانيهما : أن اشتقاق الصيغ من الواوية [11] .

(١) المخصص ٢٥/١٤
(٢) المخصص ١٩/١٤
(٣) اللسان ٣٠٠/٨
(٤) معانى القرآن ١٩٠/١ للفراء .
(٥) المحتسب فى شواذ القراءات ١٧٥/١ مخطوط بالتيمورية بدار الكتب المصرية .
(٦) مختصر شواذ القرآن ١٩ لابن خالويه .
(٧) إصلاح المنطق ١٣٧ لابن السكيت
(٨) المخصص ٣١/١٢ ، ٢٢/٣ ، ٦٢/٨
(٩) تفسير الطبرى ١٦٠/٦ ط دار المعارف .
(١٠) الإبدال ٤٧٨/٢ / لأبى الطيب . ط دمشق .
(١١) يؤكد ذلك ما جاء فى اللسان ٣٢٥/٢ من قول الشاعر يدعو الإبل إلى الماء (جاوتها فهاجها جواته) ورواه بعضهم : جايتها . وهذا إنما هو على المعاقبة . أصلها : جاوتها ؛ لأنه فاعلها من : حوت جوت . وطلب الخفة فقلب الواو ياء ، ألا تراه رجع فى قوله : فهاجها جواته ــ إلى الأصل الذى هو الواو .

٢ ـ ما جاء عن أبى على :

ليثٌ عليه من البردى هبريةٌ

كالمزبرانىّ عيّار بأوصال[١]

ويروى : عيّال وعوّال ، فأما : عوال فمن عال عولا ، وأما عيال ـ فلا أعرف ما هى : إلا أن يكون على المعاقبة التى بين الياء والواو بغير علة ـ وهى حجازية[٢] .

٣ ـ كما روى عن تميم أنهم يقولون : القنوة ، والحجاز تقول : القنية[٣] .

٤ ـ وفى اللسان : أن (حوث) بالواو لغة تميم[٤] .

٥ ـ وأن تميما تقول : قلنسوة ، على حين تنطقها الحجاز : قلنسية[٥] » « ويقال : قنوت وقنيت :عزيت الأولى الواوية لتمم ، واليائية للحجاز[٦] .

ومن هذا العرض نقترح أن الحجاز آثرت الياء ، وأن تميما آثرت الواو .

ولكن قد تقف بعض الشواهد لتحول بين نتيجتنا السابقة ـ وأهمها :

١ ـ ما رواه أبو هريرة أن قوما يتعادون فقال مالهم ، فقالوا : خرج الدجال : فقال : كذبة كذبها الصيّاغون . وروى الصواغون : أى اختلقها الكذابون[٧] .

٢ ـ جاء عن ابن منظور فى حديث على ـ رضى الله عنه ـ : « واعدت صوّاغا من بنى قينقاع[٨] .

والمعروف أن المتكلم فى النص الأول هو الرسول صلى الله عليه وسلم . والشاهد الثانى علىّ ، وكلاهما قرشيان . وكان يجب أن تكون الرواية بالياء فى «صواغا» و« الصواغون » حتى يستقيم ما سبق أن قررناه ، وأرجح أن رواية الحديث الأولى بالياء ، بدليل ما جاء من رواية أخرى بالياء فيه ، وإنما جاءت رواية الواو ؛ لأن الحديث ربما روى على لهجة رجل من لغته إيثار الواو على الياء ، وأما ما جاء عن ابن

(١) المزبرانى ـ شعر مجتمع على موضع الكاهل . المخصص ٦٢/٨

(٢) المخصص ٦٢/٨ (٣) المزهر ٢٧٦/٢ للسيوطى

(٤) اللسان ٤٤٥/٢ (٥) المزهر ٢٧٦/٢

(٦) المزهر ٢٧٦/٢ وقارنه بما جاء فى قصيدة ابن مالك فى الأفعال الواوية واليائية . فى المزهر ٢ / ٢٧٩ .

(٧) اللسان : ٣٢٥/١٠

(٨) المرجع السابق

منظور فإننى أشك فيه ، والروايات اللغوية كثيرا ما حرفت وصحفت ، ومنها جاء البلاء .

٣ ـ جاء عن ابن السكيت قوله : يقال فلان ذو دغوات ودغيات ، ولم يسمع دغيات إلا فى بيت رؤبة فإنهم زعموا أنه قال « نحن نقول : دغية وغيرنا يقول دغوة . وأنشد : (ذا دغيات قلبا لأخلاق[1]) ورؤبة هذا من تميم ، وآثر الياء على الواو ـ والجواب على هذا الإشكال : أن شاهد رؤبة السابق روى فى إبدال أبى الطيب[2] بالواو وكذلك فى اللسان[3] ، وبالرجوع إلى ديوانه وجدتها بالواو أيضا « ديوان رؤبة ١٨٠ » فيكون هذا مما يؤيد رأينا ،

وثانيا : أن قول ابن السكيت السابق حاكيا رواية الياء لرؤبة تجعلنا نقف موقف الشك منها لقوله « فإنهم زعموا » فكأن الرواية لم تفارق منطقة الزعم إلى حدود التأكيد والتأييد .

وهب أن رؤبة قالها بالياء فهل يكفى شاهد واحد ـ لنقض عدة شواهد متتالية متواترة ؟!

وبعد أن وضح ما أوردناه فى منطق الحجاز ، وتميم . أريد أن أعرض جوانب أخرى فى بقاع جغرافية لنرى اتجاهات بقية اللهجات العربية فى تلك الظاهرة :

١ ـ حكى الفراء عن بعض بنى كلب « عنيان الكتاب » فى « عنوانه وعاوانه[4] »

٢ ـ شذ فى تثنية الممدود خمسة أشياء منها « حمرايان . وحكى بعضهم أنها لغة فزازة[5] « وقياسها حمراوان[6] » .

وجاء فى اللسان عن أبى زيد « سمعت بعض فزارة يقول : هما كسايان وخبايان وفضايان ، فيحول الواو إلى ياء[7] ، وقد حكم النحاة بشذوذ لهجة فزارة السابقة[8] ، ولكن الكوفيين قاسوا عليها[9] ، ومنع ذلك غيرهم .

---

(١) المزهر : ١/٢٥٤ والمعنى : ذو أخلاق رديئة متلونة .
(٢) إبدال أبى الطيب : ٢/٥١٩
(٣) اللسان ١٨/٢٨٨
(٤) إبدال ابن السكيت : ٨
(٥) الأشمونى : ٤/١١٤
(٦) الهمع : ١/٤٤
(٧) اللسان : ١/١٣
(٨) التصريح : ٢/٢٩٥ ، والأشمونى : ٤/٢١٢
(٩) الهمع : ١/٤٤

٣ – جاء فى الغريب المصنف أن الكسائى سأل بنى سليم عن « نما ينمو » – فلم يعرفوه بالواو[١] ، ومعنى هذا أنهم عرفوه بالياء ، ويلاحظ على هذه النصوص أنها آثرت الياء كلهجة الحجاز ، فهل هناك علاقة بين هذه القبائل وبين الحجاز ؟ .

أما « كلب » فقد تأثرت بالحجاز ؛ لأنهم عاشوا على الطريق الذى كان يسلكه الحجازيون فى تجارتهم إلى حدود الشام[٢] ، وأما فزارة فكانت بطونها تسكن منطقة الحجاز ، وإن كانت قيسية ، وأما سليم – فقد كانت على صلة وثيقة بقريش[٣] .

فعلاقة هذه القبائل كما نرى – وثيقة الصلة بالحجاز ، فإذا عرفت أن الحجاز يغلب عليها طابع الحضارة ، وقد شاركتها القبائل السابقة – أمكننا أن نرجح أن القبائل المتحضرة آثرت الياء .

وإذا كان هذا هو موقف القبائل – المتحضرة – فإننى أعرض الآن نموذجًا جديدا لقبائل أخرى لها وضع مميز فى هذه الظاهرة وهى :

١ – جاء فى مجالس ثعلب :

تحنُّ إلى الفردوس والشّبير دونها
وأيهات عن أوطانها حوث حلَّت

قال أبو العباس : هذه لغته وهو رجل من طيىء .

٢ – قال عياض بن أم درة[٤] :

حمىً لا يُحلّ الدهرَ إلَّا بإذننا
ولا نسأل الأقوام عهد المواثق[٥]

« ورواه ثعلب عقد المياثق » .

٣ – حكى ابن السكيت عن بعض الطائيين أنهم يقولون « أونق » ثم قلبها بعض العرب ياء تخفيفًا فصار « أينق »[٦] ، وكما حكاها عن طيىء ابن السكيت فقد حكاها عنهم يعقوب[٧] .

---

(١) الغريب المصنف : ٥٠٢ مخطوط رقم ١٢١
(٢) فى اللهجات العربية : ٥٨ دكتور أنيس .
(٣) تاريخ العرب : ١٧٦/٤ جواد على .
(٤) قال أبو سعيد : حفظنى عياض بن درة : نوادر أبى زيد ٦٤ .
(٥) نوادر أبى زيد : ٦٤/٦٥ ، شرح الشافية : ٢١٠/١
(٦) شرح المفصل : ١٢٩/٨ ، إصلاح المنطق : ١٤٤
(٧) اللسان : ٢٤١/١٢

٤ - وجاء فى المخصص عن صاحب العين : وطيىء تقول : محيته محيًا ، ومحوًا[1] » .

٥ - جاء فى إصلاح المنطق عن الفراء : ضاره يضيره قال : وزعم الكسائى أنه سمع بعض أهل العالية يقول : لا ينفعنى ذلك ولا يضورنى[2] .

٦ - حكى ابن سيده عن العرب يقولون : ما أعيج من كلامه بشىء - أى : ما أعبأ به ، وبنو أسد يقولون : ما أعوج[3] ، كما روى ابن السكيت عنهم « عزيته إلى أبيه ، وبنو أسد يقولون : عزوته إلى أبيه »[4] .

٧ - جاء عن أهل نجد قولهم : لهوت عنه ألهو - وغيرهم « لهيت »[5] .

٨ - سمع أبو زيد الأنصارى رجلا من بنى عقيل يقول : هم اللذون قالوا ذاك »[6] وفى الفصحى بالياء .

وبالنظر إلى هذه النصوص نرى أن طيئا ، وقبائل أسد ونجد وعقيل آثرت الواو فى تلك الروايات باستثناء الشاهد الثانى الذى ورد مرة بالياء وأخرى بالواو ، ولكنى أرجح رواية الواو لطيىء . ومما يؤكد رواية الواو - قول ثعلب عنها « وهى أجود وأشهر »[7] ثم إن صاحب رواية الواو هو عياض بن درة - وهو من طيىء . وإذا كانت هذه القبائل قد آثرت الواو كتميم فما العلاقة بينها وبين تميم ؟ لا علاقة بينها إلا أنها قبائل بدوية - فكأن البدو قد مالوا إلى الواو فى تلك الصيغ .

ولكن ألا ينقض هذا التقسيم - ماعثرنا عليه من روايات تسند الكلمة الواحدة وقد وردت بالياء والواو لقبيلة بعينها ؟ فقد ورد فى المخصص عن أبى صخر الهذلى :

فإن يعذر القلب العشية فى الصبا
فؤادك لا يعذرك فيه الأقاوم[8]

(١) المخصص : ٧/١٣
(٢) إصلاح المنطق ١٣٦ ، المخصص : ٢١/١٤
(٣) المخصص : ٢١/١٤ ، إصلاح المنطق : ١٣٦ اللسان : ٨٦٢/٣
(٤) المخصص : ٢٣/١٤
(٥) نوادر اللغة لأبى زيد : ٨٩
(٦) المصباح : ٨٦٢/٢
(٧) نوادر اللغة لأبى زيد ٦٤ - ٦٥
(٨) المخصص : ٢٢/١٤ .

وقد روى « الأقايم » يريد القوم .

وبما أن صخرا هذا من هذيل ، وهذيل تقع فى منطقة الحجاز ، وكان المفروض أن تقول (الأقايم) بالياء ، إلا أنها وردت بالياء مرة والواو مرة أخرى ، وأرجح أن هذيلا وإن كانت تسكن مناطق الحجاز إلا أن جزءًا منها كان بدوًا يعيش على قنن الجبال ومسارب المياه ، وكان عملهم إثارة الرعب ، ونهب القوافل ، والصعلكة التى تتمثل فى مجموعة من شعرائها وعدائيها - وهنا نرجح أن الصيغة الواوية للبدو منهم ، واليائية للحضر ، وعلى النظرة إلى المجتمع يمكن أن نحلّ المشاكل التى تعترضنا ، فإذا ماعزا صاحب الجمهرة صيغة : يأتو - بدل : يأتى فى قول خالد بن زهير :

ياقوم مالى وأبا ذويب

كنت إذا أتوته من غيب[1]

إلى هذيل ، وسار على هذا ابن سيده فى مخصصه[2] ، وأبو على فى أماليه[3] ، ثم يعرض يونس بن حبيب نصا مخالفاً يقول فيه « أجويت القدر » - وهذيل تقول أجييتها[4] . فكأن هذيلا نطقت مرة بالواو ، ومرة بالياء ، وإذا عزى الحميرى - الكلوة - على أنها لغة اليمن فى الكلية »[5] . فإننا لا نرى أن اليمن كلها كانت تنطق بالواو فى مثل هذا - بل أرجح أن المجتمع البدوى منهم كان ينطق ذلك بالواو فقط ، وخير من يمثلهم قبائل : خثعم وزبيد.

وهذه المعاقبة بين الواو والياء كما كانت فى العربية - حدثت فى أخواتها ، فقد حدث ذلك فى الآرامى ، وفى العاميات[6] .

— ٣ —

وهناك صيغ يظنها الباحث من المعاقبة وليست منها :

أولا ١ - من ذلك قولهم : هو يأتيك فى الغدايا والعشايا »[7] فإن أفردوها

(١) الجمهرة : ١/١٧٠ ، ديوان الهذليين : ١/١٦٥ ط دار الكتب .

(٢) ١٤/٢٨ (٣) أمالى القالى : ٢/٢٠٩ .

(٤) ما تفرد به بعض أئمة اللغة : القسم الثانى مما تفرد به يونس بن حبيب : خط دار الكتب رقم : ٤١٨

(٥) شمس العلوم للحميرى : ٩٣

(٦) من ذلك ماورد فى تكملة إصلاح ماتغلط فيه العامة للجواليقى ص ٣٣ من قولهم : منيار - الذى يستصبح به على أبواب الملوك ، والصواب : منوار ؛ لأنه مأخوذ من : النور أومن : النار ، وكلاهما من : الواو. ولوبنيت مفعالا من : النور و القول لقلت : منوار ومقوال بالواو ، ولم تقله بالياء . ويبدو : أن مافى لهجتنا المصرية . عاوز وعايز من هذه المعاقبة الحجازية. (٧) أنظر أمثلة فى : درة الغواص ٧٩

قالوا : الغدوات . فليست : الغدايا . معاقبة ، لأن الذى أوجب تلك الصيغة الحفاظ على الموازنة فى الألفاظ وتعادلها ، فهم قد غيروا الواو فى (الغدوات) إلى الياء فى (الغدايا) للازدواج وحده .

٢ ــ ومن ذلك ماجاء فى الحديث النبوى فى عذاب القبر : « لا دريت ولا تليت ولا اهتديت » والأصل : تلوت ــ فأبدل واوها ياءً اتباعاً لياءى الفعلين قبله وبعده . ولو أفردها لقال : تلوت .

٣ ــ ومن ذلك قولهم للشجاع الذى لايزايل مكانه (هو أهْيس أليس) والأصل : (الأهوس) بالواو ؛ لاشتقاقه من (هاس يهوس) إذا دقّ ، فعدلوا به إلى الياء ليوافق لفظ (أليس) ، فهو ليس من من المعاقبة فى شىء ، وإنما جىء به للانسجام وتوافق النسق الصوتى بين أصوات اللين ، وهو نوع من (تقريب[1]) الأصوات ، أو (مضارعتها)[1] أو (تماثلها) : Assimilation ، وقد يسمى « المماثلة بين أصوات اللين » ، أو Vowelharmony

٤ ــ وأنشد أبو زيد :

(عيناءُ حوراءُ من العين الحِيَرْ) .

وفى قوله تعالى «وزوجناهم بحورعين»[2] قال ابن خالويه : حكى الفراء[3] : بحير عين ، وقرأ بها النخعى[4] . وأرى أنها ليست من المعاقبة ؛ لأن قلب الواو ياء فى فى (الحير) وأصلها : الحور جاء نتيجة كسر الحاء ، والمعاقبة تكون بغير علّة ، أما هنا : فصيغة : الحير : للمعادلة والموازنة والمماثلة مع : العين . فالموازنة فى هذه الأمثلة لسبب خارجى ، ومن ذلك ما كانت تقوله العرب للرجل إذا قدم من سفر : أَوْبةً وطوْبةً[5] » أى : أُبْت إلى عيش طيب ومآب ، طيّب ، والأصل : طيْبة ، فجاءوا بالواو لمساوقة الأسلوب ومحاذاته .

---

(١) سماه سيبويه فى : الكتاب ٢٥٩/٢ التقريب ، كما سماه : المضارعة : الكتاب : ٤٢٦/٢

(٢) الطور ٢٠

(٣) مختصر شواذ القرآن ١٤٥ ، لابن خالويه..

(٤) البحر المحيط ٢٠٦/٨

(٥) المزهر : ٣٤٠/١ للسيوطى .

٥ ـ ومن ذلك : أن الصيغة ربّما تلكأت على سلم التطور فتقوقعتْ فى مرحلة التهذيب كقول الشاعر :

عدينى أن أزورك أمّ عمرو

(دياوين) تشقّق بالمداد

وعند ما بلغ التطور مداه ونهايته فى الفصحى أصبحت (دواوين) جمع : ديوان .

ثانياً : وليس من المعاقبة ماجاء من باب توهم أصالة الحرف فى مثل قول الشاعر :

١ ـ ولقد رأيتك بالقوادم مرةً

وعلىّ من سدف العشى رياح[(١)]

فالقياس : رواح ؛ لأنه من راح يروح ، لكنه لما كثر قلب هذه الواو فى تصريف هذه الكلمة ـ ياء ، نحو : ريح ورياح ، ومريح ومستريح ، وكانت الياء أيضاً عليهم أخفّ ، تدرجوا من ذلك إلى أن قلبوها فى (رَيَاح) مع زوال الكسرة التى توجب القلب ، وكأنهم توهموا أن الياء ـ أصلا فى ذلك ، أى ظنوها أصلية وليست منقلبة عن واو . وقد أنكر أبو حاتم السجستانى على عمارة بن عقيل ـ ـ وهو من شعراء البادية فى القرن الثالث الهجرى ـ حين ذكر فى شعره (الأرياح) جمع : ريح فقال له أبو حاتم : هى : الأرواح ، فقال عمارة معتذراً : جذبنى إليها طبعى . أى إلى (أرياح) ؟ أماتسمعهم يقولون : رياح

ومن ذلك قولهم : أعياد ـ فى جمع عيد . والقياس أن يقال : أعواد ؛ لأن أصل عيد (عود) لكن العرب توهمت أصالة الياء فى : عيد ، فجمعوها (أعياد) .

٢ ـ ومن هذا قول الراجز :

هو الجوادُ بنُ الجوادُ بن سَبَلْ

إن دوّموا جادَ وإنْ جادوا وَبَلْ[(٢)]

فالواو فى دوّموا ـ أصلية ، لأنها مشتقة من الدوام ، لكن رواه ابن قتيبة فى كتاب (أدب الكاتب) بلفظ (ديّموا) بالياء ، وهذا شاذ ؛ لأن : الدِّيمة ـ أصل الياء فيها

(١) الخصائص ١/٣٥٠ لابن جنى ، وانظر : مجالس العلماء ١٩٣ للزجاجى .

(٢) التصريف الملوكى ٣٣ لابن جنى ط الثانيه ١٩٧٠ دمشق ، والبيت لمدح رجل وتفضيله على غيره فى الكرم .

واو ، لأنها من الدوام ، لكن الواو — لما سكنت وانكسر ما قبلها قلبت ياء ، فكان ينبغى حين ذهبت الكسرة الموجبة لانقلاب الواو ، أن ترجع إلى أصلها — فيقول (دوَّموا) ، ولكن هذا من البدل الذى يلتزمونه مع ذهاب العلة الموجبة له .

ثالثًا :

— ولا معاقبة بين الواو والياء فيما جاء عن السّهو والغلط ، وذلك كقراءة الحسن البصرى « وما تنزَّلتْ به الشَّياطون » قال ابن جنى فى المحتسب[1] : والشياطون غلط » وقال غيره :لحن فاحش . وكذلك قال الفراء . وقد سمع مثل ذلك عن العرب . ففى كتاب : عبث الوليد ، لأبى العلاء المعرى قول أعرابى : هذه بساتون[2] بنى فلان » ومثل ذلك قراءة الكسائى وكان يصلى بهارون الرشيد فقرأ « لعلّهم يرجعين » فى قوله تعالى « لعلهم يرجعون » فلما سلمت قال يا كسائى : أى لغة هذه ؟

قلت : يا أمير المؤمنين. قد يعثر الجوادُ

فقال : أما هذه فنعم[3] !

رابعًا :

١ — ومن خلال الشواهد لمحنا فى المعاقبة (وَحْدة) المعنى بين الصيغتين الواوية واليائية .، فلا معاقبة فيما جاء عن ابن السكيت عن أبى عمرو الشيبانى : الكور — المبنىّ من الطين ، والكير : الزقّ الذى ينفخ فيه[4] .

٢ — وقولهم : قلوت وقليت : تقال لقلْى البُسْر والبرّ ، وكل شيء يقلى بالواو والياء ، ولا يكون فى البغض إلا قليت . وقولك : وجه صبوح ، وصبيح ، لا يصلح للمعاقبة ؛ لأن الصّبوح : ماحلب من اللبن بالغداة ، أما الصبيح ، فهو الوصف من الصباحة بمعنى الجمال والبهاء ، فالكلمة بالياء لا غير .

وقولهم : ضاع يضيع . من الضياع[5] ، فالألف منقلبة عن ياء ، وضاع يضوع :

(١) ٢/١٣٣ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩ . القاهرة . وانظر تفسير القرطبى ١٣/١٤٠ ، ونهاية الأرب ٣/٣٩٢ ط القاهرة ، ومختصر شواذ القرآن ١٠٨ لابن خالويه .

(٢) عبث الوليد ٢٢٦ للمعرى . دمشق ١٩٣٦

(٣) إنباه الرواه : ٢/٢٦٢

(٤) المزهر ٢/٢٩٠ ، ٢٩٨

(٥) الإبدال ١/٤٥٥ لأبى الطيب اللغوى .

الألف منقلبة عن الواو . والمعنى مختلف ، إذ الأولى من : الضياع ، والثانية من : ضاع ، إذا ظهر. فلا معاقبة بين الصيغتين.

ومن هذا : البيْن ، فأصله الظرف المكانى بيْن – ثم انتقل إلى : الفراق والبعد والوضوح ، وأصلها : الظرف (بَيْن) ثم قالوا : بان يبين – وفرقوا فى المصدر فقالوا للبعد : البيْن ، وللوضوح : البيان ، ثم قالوا : بَوْن للمسافة بين الشيئين . فالعربية هنا قد اتخذت من الياء والواو وسيلة لصرف الألفاظ إلى معان مختلفة . كقولنا : الغيث : للمطر ، والغَوْث لمعنى جديد وهو المساعدة والنجدة[1] وهذا التباين يمكن أن يسمى بالقيم – الخلافية : differential Values

٣ – ولا معاقبة فى قراءة الجمهور « كذّبتْ ثمود بطغواها » مع أنها من [الطغيان] لأنهم يفرقون بين الاسم والصفة ، فتقلب فى الاسم واوًا ، كما هنا . وتبقى فى الصفة كما قالوا : امرأة صديا وخزيا (أنظر البحر٨/٤٨١) . هذا . وقد نقل بعضهم أن طغى – قد يستعمل واويًا ويائيًا مثل : طغيت طغيانًا وطغوت طغوانا ، وعلى هذا الأخير تكون معاقبة .

— ٤ —

ومن طريقتنا فى الدرس اللغوى أن نعرض مباحثنا فيه على القرآن الكريم لنرى تصويره للظواهر اللغوية ، وفى جولة أعرض من خلالها تصويره للمعاقبة من خلال قراءاته المختلفة :

١ – أن عمر بن الخطاب قرأ « الله لا إلٰه إلا هو الحى القيّام[2] » وأصله : القيْوَام ، فلما التقت الواو والياء وسبقت الأولى بالسكون ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها الياء[3] ، وعمر قرأ على منطق الحجاز لأنه قرشى .

٢ – وقوله سبحانه « لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديارا[4] » وهو : دوار :

---

(١) النحو العربى ٢٠٧ د . إبراهيم السامرائى . ط بيروت .

(٢) البقرة ٢٥٥

(٣) تفسير الطبرى ٦/١٥٥ ط دار المعارف ، والمحتسب ١/١٧٥ مخطوط بالتيمورية – القاهرة ، مختصر شواذ القرآن ١٩ لابن خالويه ، معانى القرآن ١/١٩٠ للفراء .ط دار الكتب المصرية ، ديوان الأدب ورقة ٣٣٠ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٣ لغة تيمور

(٤) نوح ٢٦

فعال من دار يدور ، فالآية نزلت بلهجة الحجاز ، وأُقرّتْ كذلك فى المصحف ، ورسم المصحف يعتبر مرشدًا إلى حدّ كبير للهجة الحجاز .

٣ـ وقوله جل شأنه : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً »[١] والأصل قواماً ، فحولت واوها ياء ، والدليل على هذا ماجاء من كلام العرب مقولا على أصله ـ من قول حميد الأرقط :

(قِوامُ دنيا وَقِوَامُ دين[٢])

وبعض القراء قرءوا فى الآية السابقة : « قوامًا للناس » .

٤ـ وفى قوله تعالى : « وعلى الذين يُطيقونَهُ فديةٌ »[٣] . قرأ ابن عباس وعائشة وعكرمة وأيوب السخْتيانى وعطا (يُطوَّقونَه) . كما قرأ آخرون (يُطيَّقونه)[٤] .

٥ـ وفى قوله تعالى: «فادع لنا ربك[٥] » وأصلها من : دعا يدعو ، إلا أن لغة بنى عامر (فادع)[٦] بكسر العين ، وهى عندهم من ذوات الياء (دعا يدعى).

٦ـ وفى قوله عزّ اسمه : « أو جاء أحدُ منكم من الغائط[٧] » قرأ الزهرى وابن مسعود : من غَيْط . » وأصله : غوْط على فعْل . قلبت الواو للتخفيف ـ ياء ، أو قلبت استحساناً مثل : العلياء ، وهى من[٨] علوت ، والعيْصاء بمعنى العَوْصاء (هى الكلمة الغريبة ، ومن الدواهى : الداهية الشديدة) .

٧ـ وفى القرآن : « قنوان دانية »[٩] وحكى الفرا لغة رابعة وهى (قُنْيان) بالياء[١٠] .

---

(١) المائدة ٩٧

(٢) تفسير الطبرى ٩١/١١ ط دار المعارف .

(٣) البقرة ١٨٤

(٤) مختصر شواذ القرآن ص ١١ : والبحر المحيط ٣٥/٢ والمحتسب ١٢٥/١ مخطوط بالتيمورية .

(٥) البقرة ٦١ (٦) البحر ٢٣٢/١

(٧) النساء ٤٣

(٨) المحتسب ١٩٠/١ ط المجلس الأعلى بالقاهرة .

(٩) الأنعام ٩٩

(١٠) مختصر شواذ القرآن ص ٣٩ لابن خالويه .

وإذا وسّعنا الدئرة قليلا ، وخرجنا من حقل المعاقبة إلى حقل آخر ، وجدنا مارأيناه آنفا قد التزم فى عدة ملامح من ظواهر العربية ، من ذلك أن الكسائى وهشاما قرءا قوله سبحانه : « وقيل ، وغيض ، وحيل ، وجيء ، وسيق - بالواو بدل الياء (البحر ج ١ ص ٦١) كما قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرِّف فى سورة هود . آية ٧٧ قوله تعالى : « سوءبهم » بالضم والواو (البحر ج ٧ ص ١٥١) وقد عزيت الصيغ اليائية لقريش ومن جاورها من كنانة (البحر ج ١ ص ٦١) كما عزيت الصيغ الواوية إلى قبائل قيس وعقيل ومن جاورهم ، وعامة أسد ، وإلى دُبَيْر وفَقْعس (شرح ابن عقيل ١/ ٤٢٦) .

ويلاحظ أن الصيغ اليائية معزوة لقبائل الحضر كقريش وكنانة ، على حين آثرت القبائل البدوية كأسد وقيس وعقيل ، ودبير وفقعس (وهما بطنان من أسد) الصيغ الواوية .

ربما كانت المعاقبة بين الواو والياء ؛ لكثرة شيوعهما فى النسيج العربى ، وقد دلت التجارب العلمية على أن نسبة ورود الكسرة التى هى بعض الياء ١٨٤ فى الألف ، والضمة ١٤٦ فى الألف[1] وقد قام أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس بإحصائية فى القرآن الكريم أقتطف منها مايؤيد وجهة نظرى فى شيوع صوتى الواو والياء :

نسبة شيوع الواو ٥٢ مرة فى كل ألف ، والياء ٤٥ مرة فى كل ألف .

على حين وقعت القاف ٢٣ مرة ، وكل من السين والدال ٢٠ مرة ، والجيم ١٦ مرة ، والخاء ١٠ مرات[2] . ولم يتقدم على (الواو والياء) فى نسبة شيوعهما غير : اللام والنون والميم ؛ لأن هذه الثلاثة تعدّ من الناحية الصوتية : أشباها لأصوات المدّ اللّين ، ونظرية الشيوع تقرر أو تنادى بأن الأصوات

(١) الألسنية العربية (٢) ص ٢٩ . ريمون طحان . دار الكتاب اللبنانى - بيروت .

(٢) الأصوات اللغوية ١٧٣ د . إبراهيم أنيس ط الثانية . نهضة مصر .

التى يشيع تداولها فى الاستعمال ، تكون أكثر تعرضا للتطور من غيرها ، وكان صاحب هذه النظرية Vilhelm Thomsen وتبعه كثير من علماء اللغة المحدثين .

وإنما تحولت الواو إلى الياء ؛ لأن الياء أخف من الواو ، والضم وهو الواو الصغيرة كما يرى علماء العربية القدامى - يحتاج إلى جهد عضلى [1] أكثر ، لأنه يتكون بتحرك أقصى اللسان ، على حين يتكون الكسر بتحريك أدنى اللسان ، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه . ولهذا تميل البيئات المتحضرة إلى الكسر ، فهو يشير إلى الرقة ، والكسرة رمز المؤنث ، والتصغير فى العربية - بالياء ، والكسرة كما يقولون : هى الياء الصغيرة .

موسيقية المعاقبة :

على أن (المعاقبة) تمثل جانبا من المرونة اللغوية ، وبذلك يتحقق لها نوع من الموسيقى الظاهرية ، فالصرفيون يرون أن الواو إذا وقعت عينا لجمع على فُعَّل - فالقياس هو الإعلال (صيَّم ونيَّم) ثم نسمعهم يقولون إن الأكثر هو التصحيح (صُوَّم ونوَّم) ، كما يرون أن الفعل الثلاثى المفتوح العين الواوى اللام تصح لامه فى اسم المفعول مثل : معدوّ ومرجوّ ، ولكن وجدنا نغمة أخرى فى التراث كقول عبدالغوث بن وقاص الحارثى :

وقد علمت عُرْسى مليكة أننى
أنا الليث معديًّا عليه وعاديا

وهذه المراودة بين الواو والياء تحقق نسقاً صوتيا وظلالا موسيقية ذات ألوان .

أحكام على المعاقبة :

١ - يقول سيبويه فى الكتاب ٢ - ٣٨٢ س ٥ - ٦ « وقالوا مرضىّ ، وإنما أصله الواو ، وقالوا مرضو ، فجاءوا به على الأصل والقياس »

٢ - ويقول الفراء فى كتاب المنقوص والممدود ص ٣١ : الرحى بالياء والألف ؛

(١) انظر : الإنصاف ١/١٤ ط السعادة الرابعة . حيث يرى أن الياء أخف من الواو ، وانظر : أسرار العربية ٣١٦ لابن الأنبارى ط دمشق ، ويقول صاحب التصريح ١/٥٩ « أقوى الحركات الضم ويليه الكسر ثم الفتح » .

وقدم ذكر الياء ؛ لأنها أعلى . ففى اللسان : تثنيتها : رحوان ، والياء أعلى .

٣ ـ قال القزاز فى الجامع ، وابن القطاع فى أفعاله : بروت العود والقلم بروا ، وبريته بريًا . قال القزاز : والياء أعلى. القزاز القيروانى ص ٩١ . ط تونس .

٤ ـ يقول ابن عصفور ؛ فأما فُعَّال نحو : صُوام فلا تقلب الواو فيه ياءً لبعدها من الطرف ، وقد جاء حرف واحد شاذ ، وهو قولهم : فلان فى صُيَّابة قومه ، يريدون : صُوَّابة . أى : صميمهم وخالصهم . « ابن عصفور والتصريف ص ١٥٠ تأليف : قباوة » .

٥ ـ وفى المخصص لابن سيده (١٤/ ٢٥) : وجعلته على حنديرة عينى ، وحندورة عينى ، يقول أبوعبيد : والحنديرة ؛ أجود . وأرى أن هذه الأحكام تمثل وجهة النظر المعيارية من جانب علماء العربية الأقدمين .

المعاقبة والمجتمع :

وتطور الصيغة من صوت إلى آخر يحقق مع الجانب الموسيقى كما رأيت ــ جانبا آخر يتلخص فى أن الصيغتين الواوية واليائية يمكن أن تصور كل منهما ما عليه المجتمع من مستوى متخلف أو متقدم ، حضرى أو بدوى ، إذ اللغة نموذج لحياة الشعوب تقدما وتخلفا خذ مثلا ماجاء فى طبقات الزبيدى[1] حين عزا إلى قبيلة (بنى عامر) صيغة (ما سيَّدتك العرب) وقياس هذا الفعل كما تعلم من باب : فعل بفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع (سوَّدتْك) . وأرجح أن (بنى عامر) كلها لم تنطق هذا الفعل بالياء ــ بل الذين نطقوه منهم كذلك هم الحضر ، ومما يرجح هذا أن منازل (بنى عامر) بعضها كان فى نجد ، والآخر كان فى الطائف ، ولا شك أن القاطنين منهم فى الطائف كانوا حضرا ، وأن ساكنى نجدا كانوا بدوا . كما أحب أن أشير إلى أمر هام ، وهو أن المعاقبة ليست لازمة فى لهجات الحجاز ، ومن سار سيرها ، وإلا

(١) طبقا النحويين واللغويين ٢٩٥ للزبيدى ط الخانجى . القاهرة .

لخلتْ من منطقهم الواوات ، وهذا ما لم ألاحظه ، فالمعاقبة إذن ليست مطردة فى كلامهم .

اقتراح :

أرى أن توسع أبعاد المعاقبة اللغوية فلا تقتصر على تعاقب حرفى الواو والياء كما رأى علماؤنا القدامى ، بل يمكن أن نبسط حدودها ، وننشر أبعادها فتشمل التعاقب بين حركتى الضمة والكسرة ، « وقد كان متقدمو النحاة يسمون الضمة الواو الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة[١] » لأن الواو ليست فى الحقيقة إلا امتدادا للضم مع فرق يسير فى وضع اللسان ، وأن الياء امتداد للكسرة مع فرق يسير فى وضع اللسان أيضاً ، ولقد جمعت قدرا صالحا من التعاقب بين الكسرة والضمة ، فكانت نتيجة هذا العمل أن سار فى خط واحد مع تعاقب الواو والياء حيث عزيت صيغ الضم إلى القبائل البدوية ، والكسر إلى القبائل القارية ، تماما كالواو والياء .

وذلك يتفق وما أراه من توسيع أبعاد (المعاقبة) لتشمل الواو والياء ، والضمة والكسرة ، فمن ذلك :

(ا) أن تميما تضم أوائل (عدوة ، وعشوة ، وأسوة ، وقدوة) والحجاز تكسر .

(ب) ضم الراء من (رضوان) لغة قيس وتميم[٣] والكسر لغة أهل الحجاز[٤] .

(ج) ضم الصاد من (صنوان) لغة تميم وقيس ، وبالكسر لغة أهل الحجاز[٥] .

(د) ضم القاف من (قنوان) لغة قيس ، وبالكسر للحجاز[٦] ، وفى اللسان أن الصيغة بالكسر معزوة إلى قبيلة كلب . وبيئة هذه القبيلة ليست إلا امتدادا للبيئة الحجازية المتحضرة كما سبق فى هذا البحث

---

(١) سر صناعة الإعراب ١٩/١ لابن جنى . ط أولى

(٢) المزهر ٢٧٧/٢ ، إبراز المعانى ٣٤٤ وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢٥٤

(٣) المصباح ٣٥٢/١

(٤) إبراز المعانى ٢٦٧

(٥) البحر المحيط ٣٥٧/٥

(٦) المصباح ٢٩٨/٢

(هـ) كسْر الشين من (شواظ) لغة الكلابيين ، وبعضهم حضر ، على حين ضم غيرهم من البدو ، كما وردت قراءة ابن كثير وابن محيصن بكسر الشين. وابن كثير مكى ، وابن محيصن قرشى ، فهما يمثلان لهجة الحجاز الحضرية التى تجنح إلى الكسر .

(و) (قبلاً) بالضم لتميم ، وبالكسر لكنانة[1] وكنانة من الحضر .

(ز) (Suhru) فى الآشورية بالضم ومعناها : صغير ، وهى تقابل (Sehru) فى البابلية بالكسر بالمعنى السابق ، والعلاقة واضحة بين الآشورية وبين اللهجات الشرقية والتى تؤثر الضم ، كما أن العلاقة واضحة كذلك بين البابلية وبين اللهجات الغربية والتى تؤثر الكسر .

(ح) (أمّو) فى الآشورية ، بالضم ، ويقابلها فى البابلية (إمو) بالكسر ، وفى العبرية עִם

فإذا نظرنا إلى المقارنات السامية وجدنا أن الضمة والواو فى العربية يتعاقبان فى كثير من الصيغ مع الكسرة والياء فى العبرية . وعلى سبيل المثال :

فى العربية	فى العبرية	
وَلَدٌ	יֶלֶד	اسم
وَلَدَ	יָלַד	أفعال
وَرِثَ	יָרַשׁ	
وَعَدَ	יָעַד	
أَنْتُمْ	אַתֶּם	ضمائر منفصلة
أَنْتُنَّ	אַתֵּן	
هُمْ	הֵם	
هُنَّ	הֵן	
. . . تُمْ	־תֶם	ضمائر متصلة
. . . . تُنَّ	־תֶן	

(١) كتاب اللغات فى القرآن ص ٢٦ .

وفي النهاية يؤكد هذا العمل وحدة الظاهرة ، وهذا يقودنا إلى وحدة الحكم بينهما كما رأيت . ولكن لماذا آثرت القبائل البادية صوت الواو أو الضمة ، والحاضرة صوت الياء أو الكسرة ؟ ربما مالت القبائل البادية إلى الضمة ، وهو مقياس لين خلفي ؛ لأن الضم مظهر من مظاهر الخشونة البدوية وطبع الجفاة من العرب ، كما مالت القبائل القارية (المستقرة) إلى الكسر ؛ لأن الكسر دليل التحضر والرقة في معظم البيئات اللغوية .

وإنما وقع التعاقب بين صوتي الواو والياء والضمة والكسرة ؛ لأنهما متشابهان من الناحية الصوتية ؛ فكلاهما من أصوات اللين الضيقة .

كما نراهما في العربية الشمالية والجنوبية والساميات كعلامة إعراب . فالمثنى يعرب بالياء والنون في حالتي النصب والجر في اللغتين الأكدية والبابلية القديمتين ، والجمع المرفوع في تلك اللغات بالواو ، وهي علامة الجمع المرفوع في كل اللغات السامية تقريبا ، كما ينتهي بياء في حالتي النصب والجر .

وعلى كل فالعربية الفصحى تميل إلى لهجة الحجاز ، حيث أن الفصحى تميل نحو الكسرة كلما كان لها أن تختار بينها وبين الضمة ؛ مما يدل على أن الواو أثقل من الياء ، كما أن الواو خلفية في مستوى الحلق ، والاستدارة في مستوى الشفتين ، الأمر الذي يجعل نطقها أثقل من نطق الكسرة أيضاً ، ويؤكد هذا ماورد في كتاب الإنصاف لابن الأنباري ج ١ ص ١٤ ط السعادة . قالوا : طويت طياً ، ولويت لياً ، وشويت شياً . والأصل فيه : طوْيا ولوْيا وشوْيا ، إلا أنه لما اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبوا الواو ياء ، وجعلوهما ياء مشددة ، وإنما وجب قلب الواو إلى الياء دون قلب الياء إلى الواو ؛ لأن الياء أخف من الواو ، فلما وجب قلب أحدهما إلى الآخر كان قلب الأثقل إلى الأخف أولى من قلب الأخف إلى الأثقل » .

هذا . ومما تجب الإشارة إليه أن ابن مالك نظم الأفعال التي جاءت لاماتها بالواو

والياء ، كما عقد لها ابن السكيت بابا فى إصلاح المنطق[1] ، وابن قتيبة باباً فى أدب الكاتب[2] .

وأول قصيدة ابن مالك .

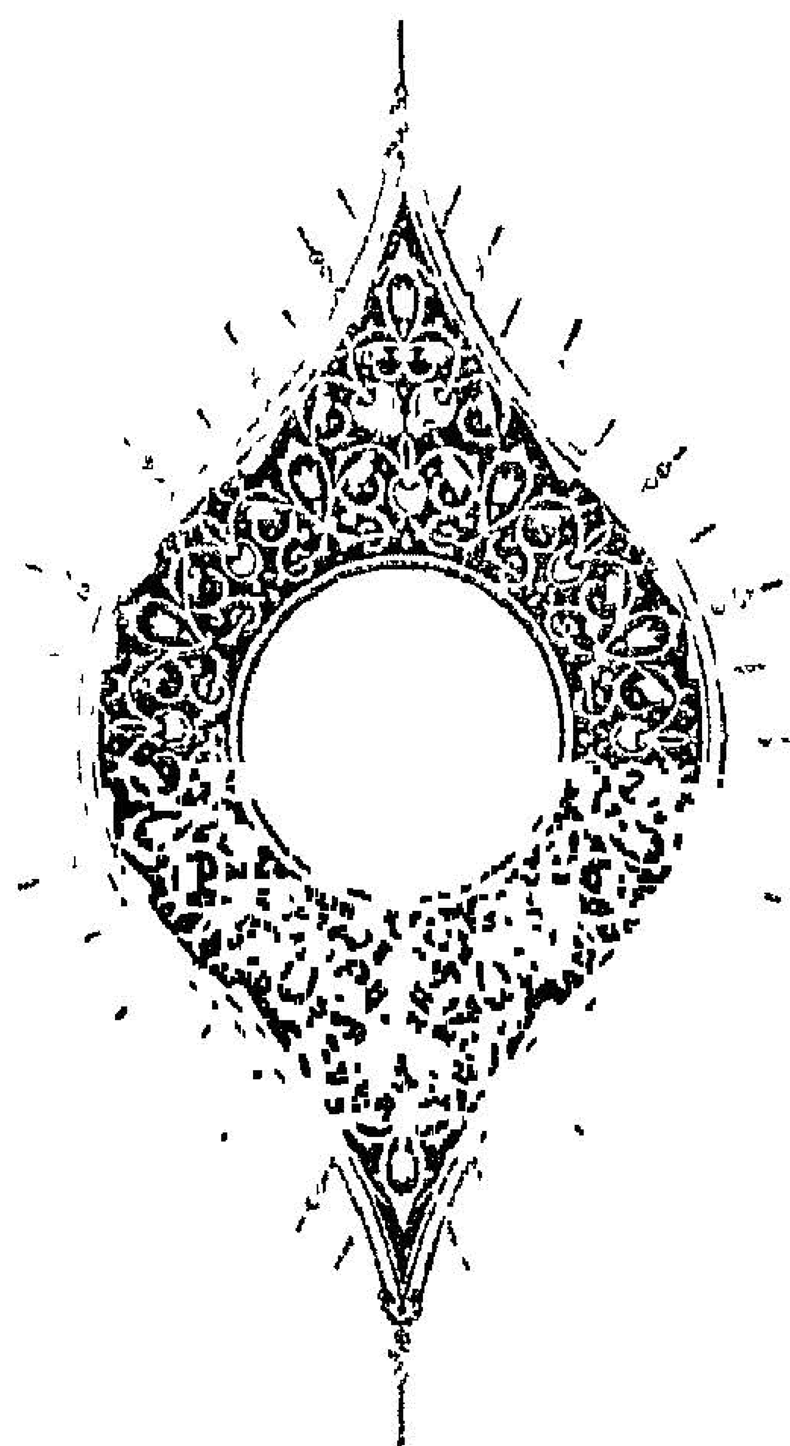
قل إن نسبت عزوته وعزيته
وكنوْت أحمد كنية وكنيْته

وطغوْت فى معنى طغيت ، ومن قنى شيئا يقول : قنوته وقنيْته

وبلغت القصيدة تسعة وأربعين بيتا كما فى رواية السيوطى[3] ، وآخر أبياتها :

عينى همتْ تهمو وتهمى دمعها
وحموْته المأكول مثل حميْته

احمد علم الدين الجندى



(١) ص ١٣٨

(٢) ص ٣٦٤ / ٤٥٩ .

(٣) المزهر ٢/٢٧٩

إشباع حركات الأبنية فى الشعر ومَوقف النحاة منه

للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف

تَعَرُض

الأبنية فى الشعر لتغييرات تتناول إطالة بعض الحركات فيها أو تقصيرها وهذا الضرب من التغيير هو الذى يناسب الشعر ، لأن وزن الشعر — فى العربية — يقوم أساساً على ترتيب متوازن بين الحركات والسكنات «والوزن هو أن تكون المقادير المقفاة تتساوى فى أزمنة متساوية لاتفاقها فى عدد الحركات والسكنات والترتيب[1]» — كما يقول حازم القرطاجنى — وعندما تشبع حركة قصيرة يتولد عنها حرف ساكن فى نظر العروضيين العرب ، لأنهم لايفرقون بين الحرف الصامت الخالى من الحركة ، وحرف المد ، أى لايفرقون من حيث الوزن الشعرى بين « من » بسكون النون و «ما» فالنون والألف كلاهما حرف ساكن .

ويمكن القول إجمالا بأن البنية فى الشعر تخضع لظروف خاصة قد تزيد فيها ، وقد تنقص ، وقد أجمع النحاة على أن الشاعر يجوز له أن « يحذف مالايجوز حذفه فى الكلام لتقويم الشعر كما يزيد لتقويمه[2]» كما أن الشعراء « يبدلون الحرف من الحرف فى الشعر فى الموضع الذى لايبدل مثله فى الكلام لمعنى يحاولونه من تحريك ساكن أو تسكين متحرك ليستوى وزن الشعر به[3]» وأنهم « إذا استكرهوا فى الشعر لإقامة الوزن خلّطوا فيه»[4] فلم يلتزموا بإيراد البنية الصرفية كما عرفت ، لذلك يرى ابن جنى أن مد المقصور وقصر الممدود والإشباع والتحريف لاتعتد أصولا ولاتثبت بها مثل موافقة ولا

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ٢٦٣ وانظر ص ٢٦٥ أيضا .

(٢) شرح السيرافى لكتاب سيبويه ١ — ٢١٥ (مخطوط)

(٣) السابق ١ — ٢٣٢ .

(٤) الخصائص لابن جنى ٣ — ٢٠٨

مخالفة (١) ومعنى هذا أنه يرى عدم الاعتماد على الشعر فى استخراج القواعد منه ، لأن له نظاما خاصا فى صرفه ، إذ تتعرض فيه الصيغ لما لا تتعرض له فى النثر .

وسوف أعرض أمثلة للإشباع قال عنها النحاة إنها من ضرورة الشعر ، وأرجو أن يكون فى الحسبان أن ماكان له نظائر فى القرآن الكريم وقراءاته ، أو الحديث النبوى الشريف ، أو ماكان لهجة لقبيلة معينة لن نعتد به ضرورة ، لأن وجود نظائر له فى القرآن والحديث يخرجه عن الضرورة ، ووجوده فى لهجة من اللهجات يخرجه أيضا عن إطار الضرورة اعتمادا على ماقرروه من أن اللغات كلها حجة ، والذى دفع النحاة إلى القول بأن مثل هذا ضرورة — حينئذ — هو محاولة طرد القاعدة . وأما ماكان غير ذلك فهو الذى نعده صورة خاصة للاستعمال الشعرى بوصفه مستوى خاصا ينبغى أن يفصل عن غيره .

لقد أجاز النحاة للشاعر فيما سموه بالضرورة أن يشبع الحركة القصيرة أو يمطلها أو يبسطها — كما يرى بعضهم — سواء أكانت الفتحة أم الكسرة أم الضمة . وإشباع الحركة يتولد عنه — فى رأيهم — حرف مد ولين ، وهم يفرقون بين الحركة القصيرة كالفتحة مثلا ومايتولد عنها من إطالتها أو مطلها وإشباعها أو بسطها على حد تعبير ابن فارس ، فيسمون الحركة الممطولة أو المتولدة عن إشباعها « ألفا » وكذلك الضمة والكسرة حيث يتولد عن إشباع الضمة « واو» ويتولد عن إشباع الكسرة « ياء » .

ولعل فقدان الرموز المستقلة للحركات الطويلة ، واستعمال الواو والياء أصوات مد تارة وأصواتاً صحاحاً تارة أخرى ، وفكرة الأصول الثلاثية ، هى التى أوقعت فى هذا اللبس ، فاللبس هنا آت من التأثر بالرمز الكتابى وثلاثية الأصول حيث لا يقولون إن « قال» مثلا مكونة فى أصولها من القاف واللام فقط .

وتنبغى الإشارة هنا إلى أنهم كانوا — مع هذا — يدركون بوضوح وفهم أن الحركات أخوات لأصوات المد واللين «وليس حرف (كلمة) يخلو منها أو من بعضها، وبعضها حركاتها(٢)»و« أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهن الألف والياء والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو»(٣) ويقول أبو الفتح ابن جنى « وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ،

---

(١) انظر السابق ٣/٢١٣ (٢) الكتاب لسيبويه ١ — ١٦٥ .

(٣) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ — ١٩ .

والضمة الواو الصغيرة ، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة[1] ويؤكد أبو الفتح هذه الحقيقة بقوله : « ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن ، حدث بعدها الحرف الذى هي بعضه »[2] ولعل هذه الملاحظة هي التي جعلت بعض النحاة يذهبون — وهم على حق — إلى أن إعراب الأسماء الستة إنما هو بالحركات على الحرف الصحيح منها كالباء في (أبوك) وإنما الواو والألف والياء نشأت عن إشباع الحركات[3] ولكن ابن جني بعد أن يؤكد أن الحركات أبعاض حروف المد واللين يخلط في هذه الملاحظة ، إذ يخلص منها إلى نتيجة مختلفة تماما هي أن الحروف تجرى مجرى الحركات في الإعراب كالأسماء الستة والمثنى وجمع المذكر السالم وثبوت النون علما للرفع في الأفعال الخمسة وحذف الواو والياء والألف للجزم[4] ومظهر الخلط هنا أنه جمع بين هذه الحركات الممطولة والنون في رفع الأفعال الخمسة والألف في المثنى المرفوع وحذف حروف العلة في المضارع الناقص المجزوم .

ومهما يكن من أمر فإن الذى يعنينا — هنا — ما أجازوه للشعراء من مطل هذه الحركات في الشعر . وقد جعلوا ذلك مقصورًا على ضرورة الشعر وقالوا عن رأى من ذهب إلى أن حروف المد واللين في الأسماء الستة إشباع لحركة الإعراب فيها إنه « قول ظاهر الفساد لأن إشباع الحركات إنما يكون في ضرورة الشعر[5]»

والذى يتعقب هـذه الظاهرة يجـد أن الإشباع قد وقع في الفعل والاسم جميعا ، ولكن النحاة يختلفون حوله من موقع لآخر .

أولا — الإشباع في الفعل :

(ا) هناك إشباع في الفعل لا يؤثر في إعرابه ، ومن نماذجه شاهدان تتداولهما كتب النحو أولهما قول الشاعر[6] :

الله يعلم أنا في تلفتنا
يوم الوداع إلى إخواننا صور
وأنني حيثما يثني الهوى بصرى
من حيثما سلكوا أدنو فأنظور

وقول عنترة في معلقته[7] :

ينباع من ذفرى غضوب جسرة
زيافة مثل الفنيق المكدم

ويقول الأصمعي عن (ينباع) : « يقال : انباع الشجاع ينباع انبياعاً

---

(١) سر الصناعة ١ — ٢٠ (٢) سر الصناعة ١ — ٢٠
(٣) الإنصاف ١ — ١٥ وانظر شرح المفصل لابن يعيش ١ — ٥٢ .
(٤) الخصائص ٢ — ٣١٦ (٥) الإنصاف ١ — ١٥
(٦ ، ٧) انظر هذين الشاهدين في الخصائص ٢ — ٣١٦ وسر الصناعة ١ — ٣٠ والمحتسب ١ — ٢٥٨ ، ٢٥٩ لابن جني وشرح القصائد السبع لابن الأنبارى ٣٣٢ والصاحبي ٣٠ وما يجوز للشاعر في الضرورة ٥٩ ، ٦٠ (مخطوط بدار الكتب) والإنصاف ١ — ١٥ ، ١٦ وشرح الشافية للرضى ١ — ٧٠ وخزانة الأدب للبغدادى ١ — ١٢٠ وشرح شواهد الشافية ١١ والضرائر للألوسي ٢٨٣ .

[illegible] عرف ماضيا من الصف [1] » ويقول [illegible] الأعرابي « ينباع : ينفعل من باع [illegible] . إذا مر مرا لينا فيه تلوّ ، وأنكر [illegible] يكون الأصل فيه ينبع « وجاء في [illegible] : انباع العرق سال وأنشد هذا [illegible] [2] » ويقال في مثل « مخرنبق [illegible] [3] » وقول أكثر أهل اللغة — [illegible] نقل صاحب لسان العرب — أن ينباع [illegible] في الأصل ينبع فوصل فتحة الباء [illegible] الألف [4] ، ومهما يكن من أمر تخريج هذا البيت فقد ورد الإشباع في بعض القراءات القرآنية مثل قراء الحسن [5] « سأوريكم دار الفاسقين [6] » بإشباع [illegible] همزة ، ولأمر ما رسمت في المصحف [illegible] الهمزة .

[illegible] الإشباع الذى ليس له أثر في [illegible] الإشباع في الفعل الماضي كالذى [illegible] امرئ القيس الذى ثار من حوله جدل طويل وهو قوله [7] :

له متنتان خظاتا كما
أكبّ على ساعديه النمر

فقال ثعلب : إنه خظتا فلما تحركت التاء أعاد الألف من أجل الحركة والفتحة وقال المبرد : إنه أراد الإضافة [8] فحذف النون فأخرج الكلمة عن كونها فعلا أصلا .

(ب) وهناك إشباع في الفعل يؤثر في إعرابه ، وأعني به الفعل المضارع الناقص الذى ينبغي — كما تصور القواعد — أن تقصر حركة آخره في الجزم أو بتعبير نحاتنا : يحذف منه حرف العلة ، ولكنه مع الإشباع لا يحذف أي تبقى الحركة الطويلة ، فتصير صورة الفعل مع الجزم كصورته مع غير الجزم ، وشواهد هذا النوع كثيرة ، وقد التمس لها النحاة وجوها من العلل لكي توافق القاعدة وتبعد بها حتى عن أن تكون ضرورة ، لأنهم قالوا بأنه ليس في شيء مما أباحوه للشعراء في الضرورة

(1) المحتسب ١ — ٢٥٨
(2) الخزانة ١ — ١٢٠
(3) نوادر لأبي زيد ٢٤٥
(4) اللسان ٩ — ٣٧٠ (بوع)
(5) المحتسب ١ — ٢٥٧ والكشاف ٢ — ٩٣ .
(6) الأعراف آية ١٤٥ .
(7) ديوان امرئ القيس ١٦٤ ومايجوز للشاعر في الضرورة ٣٥ ومعجم الأدباء ٥ — ١١١ والأشباه والنظائر [illegible] ٣ — ٢٣ .
(8) مجالس العلماء للزجاجي ١٠٩ ومراد المبرد أن الكلمة هي (حظاتان) بصيغة المثنى ، فحذفت النون منها لتوهم [illegible] (خظاتا) وليست فعلا ماضيا والتاء للتأنيث كما يرى ثعلب .

« رفع منصوب ولانصب مخفوض ولالفظ يكون المتكلم فيه لاحنا ؛ ومتى وجد هذا فى شعر كان ساقطا مطرحا ولم يدخل فى باب ضرورة الشعر[1]» ومن شواهد هذا النوع قول قيس بن زهير[2]:

ألم يأتيــك والأنبــاء تنمى
بما لاقت لبـون بنى زياد

وقول عبد يغوث بن وقاص الحارثى[3] :

وتضحك منى شيخـة عبشمية
كأن لم ترى قبلـى أسيراً يمانيا

وقول الآخر[3] :

هجوت زبّان ثم جئت معتذراً
من هجو زبّان لم تهجو ولم تدع

وقول الآخر[4] :

كأن العين خالطها قذاهـا
بعوّار فلم تقضى كراها

وقول الآخر[5] :

إذا العجوز غضبت فطلّــق
ولا ترضّاها ولاتملّــق

ولعلك تلاحظ أن معظم هذه الأفعال جاءت مسبوقة بحرف الجزم (لم) ؛ وقد يكون هذا مادعا ابن مالك إلى القول بأن عدم الجزم بـ (لم) لغة.[6]

(ج) وهناك إشباع فى فعل الأمر الناقص الذى تنص القواعد على أنه ينبغى أن يحذف منه حرف العلة أو بعبارة أخرى تقصر فيه الحركة الطويلة عند استعماله للمخاطب الواحد ؛ ومع الإشباع لايحذف حرف العلة مثل قول الشاعر[7]:

أبا خالد فاكسوهما حلتيهما
فإنكما — إن تفعلا — فتيان

وقول الآخر[8]:

ثم نادى إذا دخلت دمشقاً
يايزيد بن خالد يايـزيد

ويشير المرزبانى إلى أن إثبات الياء والواو فى مثل هذا لغة طيىء[9].

---

(١) شرح السيرافى لكتاب سيبويه : ١ / ٢٠٠ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .
(٢) انظر على سبيل المثال : سيبويه ٢ / ٥٩ ومعانى القرآن للفراء ١ — ١٦١ والنوادر ٢٠٣ وشرح السيرافى ١ — ٢٠٩ ومايجوز للشاعر فى الضرورة : ٣٤ .
(٣) انظر : الإنصاف ١ / ١٥ وشرح المفصل ١٠ — ١٠٥ وشرح الصفار الفقية ٢٤ وارتشاف الضرب ١٢٢٤ (مخطوطان) وشرح الشافية ٣ / ١٨٤ .
(٤) مجالس ثعلب : ٤٧ .
(٥) انظر : شرح السيرافى ١ / ٢٠٩ والخصائص ١ / ٣٠٧ والإنصاف ١ / ١٦ وشرح المفصل ١٠ / ١٠٦
(٦) انظر : التسهيل لابن مالك : ٢٣٦ وشرح الأشمونى ٤ / ٦
(٧) ارتشاف الضرب لأبى حيان : ١٢٢٤
(٨) مايجوز فى الشاعر للضرورة للقزاز : ٣٤
(٩) انظر : الموشح للمرزبانى : ٣٣

ثانيا ـــ الإشباع فى الاسم

إن إشباع الحركات فى الاسم لايؤدى إلى خلل فى ظاهرة الإعراب ، ولذلك لم يثر حوله خلاف بين العلماء ، واكتفوا بعرض نماذج منه للتدليل على جوازه للشاعر إذا اضطر « فإن العرب ربما احتاجت فى إقامة الوزن إلى حرف مجتاب ليس من لفظ البيت فتشبع الفتحة فتتولد من بعدها الألف ، وتشبع الكسرة فتتولد من بعدها الياء ، وتشبع الضمة فتتولد من بعدها واو[1] ومما ساقوه نموذجا لإشباع الفتحة قول ابن هرمة يرثى ابنه :

فأنت من الغوائل حين تُرمى
ومن ذم الرجال بمُنتزاح

أراد : بمنتزح فأشبع فتحة الزاى[2]
وقول الآخر[3] :

أقول إذ خرت على الكلكال
ياناقتا ماجُلْتِ من مجال

وهناك بعض الأسماء التى قيل إن إشباع الفتحة فيها إشباع لازم مثل كلمة (بينا) فى مثل قول أبى ذؤيب[4] :

بينا تعنقه الكماة وروغه
يوماً أتيح له جرئ سالفعُ

وقول رجل من قيس عيلان[5] :

فبينا نحن نرقبــه أتانا
معلّق وفضة وزناد راعى

يقول ابن جنى : أراد بين نحن نرقبه أتانا فأشبع الفتحة فحدثت بعدها ألف ، ويقول عن البيت الأول : يريد بين تعنقه إلا أن هذه الألف وإن كانت إشباعاً للفتحة فإنها فى هذا الموضع زيادة لازمة .

ومن شواهد إشباع الضمة قول الشاعر[6] :

مكورة جُمٌّ العظام عُطبول
كأن فى أنيابها القرنفول

ومن شواهد إشباع الكسرة قول الشاعر[7] :

لاعهد لى بنيضـــــال
أصبحت كالشنّ البـال

وقول الفرزدق :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة
نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

---

(١) سر الصناعة : ١ / ٢٧

(٢) سر الصناعة ١ / ٢٩ والخصائص ٣ / ١٢١ والمحتسب ١ / ١٦٦ ، ٣٤٠ والإنصاف ١ / ١٤ وشرح شواهد الشافية : ٢٥ .

(٣) الإنصاف ١ / ١٦ ، ٢ / ٤٤٦ .

(٤) سر الصناعة ١ / ٢٩ والخصائص ٣ ـ ١٢٢ ، ومغنى اللبيب لابن هشام ٢ / ٤٠ .

(٥) الكتاب لسيبويه ١ / ٨٧ وسر الصناعة ١ ـ ٢٧ .

(٦) الإنصاف : ١٥ ، ٤٤٦

(٧) السابق ، والخصائص ٣ / ١٢٣ .

« أراد الصيارف فأشبع الكسرة فتولد عنها ياء ، فأما الدراهيم فلاحجة فيه لأنه يجوز أن يكون جمع درهام وقد نطقت العرب به قال :

لو أن عندى مائتى درهام
لجاز فى آفاقها خاتامى » [1]

وفى هذا البيت نفسه أشبعت فتحة التاء فى خاتم فتولدت عن ذلك صيغة أخرى هى خاتام [2] .

ومن الإشباع فى الاسم إشباع فتحة النون من ضمير المتكلم (أنا) فى الوصل ، كقول الأعشى [3] :

فكيف أنا وانتحالى القوافِىَ
بعد المشيب كفى ذاك عارا

وقول حميد بن بجدل الكلبى [4] :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى
حميد قد تذريت السناما

وقول الآخر [5] :

أنا أبو سعد إذا الليل دجا
يخال فى سواده يرندجا

وقد قال الرضى : « وبعض العرب يصل أنا بالألف فى الوصل أيضا فى السعة [6] » لأفى الاضطرار ، وهذا من لغة تميم وبعض قيس وربيعة على ماقال أبو حيان [7] ، وقد قرئ (وأنا أعلم بما أخفيتم)[8] بإشباع فتحة النون فى (أنا) ومع ذلك كله لم يجد النحاة مانعا من أن يقولوا إن هذا من ضرورة الشعر ، بل إن بعضهم أنكره وتأول ماجاء فى القراءة [9] .

ومن الإشباع فى الاسم أيضا إشباع فتحة (ما) الاستفهامية المجرورة بحرف الجر ، كقول حسان بن ثابت [10] :

علاما قام يشتمنى لئيم
كخنزير تمرغ فى رماد

---

(١) سر الصناعة ١ / ٢٨ .
(٢) مايجوز للشاعر فى الضرورة : ٩٧ .
(٣) شرح السيرافى ١ — ٢١٥ وشرح الصفار : ٢٢ ب
(٤) المصادر السابقة وشرح شواهد الشافية ٢٢٣ وشرح المفصل ٣ — ٩٣ .
(٥) ارتشاف الضرب ١٢٢٦ .
(٦) شرح الشافية ٢ — ٢٩٥ .
(٧) ارتشاف الضرب : ١٢٢٢
(٨) الممتحنة آية : ١
(٩) انظر شرح السيرافى ١ / ٣١٥ وشرح الصفار ٢٢ ب وارتشاف الضرب ١٢٢٢
(١٠) المحتسب ٢ / ٣٤٧ والأشمونى ٢١٦/٤ وشرح شواهد الشافيه ٢٢٤ والرواية فى ديوانه ٣٢٤ :
ففيم يقوم يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد
وعلى هذه الرواية لا شاهد فى البيت .

وقول عمر بن أبي ربيعة[1] :

لمقال الصفيّ فيم التجنّي ... ولما قد جفوتني وهجرتا

وقد سمى بعض النحاة ذلك ردا للمحذوف من أجل الضرورة [2] ، وقد علل واحذف الألف بأنه للفرق بين الاستفهام والخبر [3] ، وقد ورد في قراءة عكرمة وعيسى (عمّا يتساءلون) [4] بإشباع فتحة ميم ما الاستفهامية[5] وكلام ابن جني يشعر بأن هذا لهجة ، إذ يقول في التعليق على هذه القراءة «هذا أضعف اللغتين[6]» كما استشهد العلامة الرضي ببيت حسان «على أن بعض العرب لا يحذف ألف ما الاستفهامية المجرورة[7]» وعلى ذلك تكون القراءة لهجة ، وما جاء في الشعر فهو على وفاق تلك اللهجة ، ولذلك أجاز ابن مالك هذا لوروده في القرآن والحديث النبوي ، ومنه ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال . « قدم عليّ رضي الله عنه على النبي — صلى الله عليه وسلم — من اليمن فقال : بما أهللت [8] » وقوله — صلى الله عليه وسلم — « ليأتينّ على الناس زمان لايبالي المرء بما أخذ المال ؟ أمن حلال أم من حرام [9] » وقول سهل ابن سعد — وقد امتروا في المنبر ممّ عوده — : « والله إني لأعرف ممّا هو[10] » ويقول ابن مالك « وفي عدول حسان عن « علام يقوم يشتمني » وعدول عمر عن (ولم) مع إمكانهما دليل على أنهما مختاران لامضطران [11]» وهذا يمهد لنا القول بأن عدم حذف ألف (ما) الاستفهامية المجرورة ليس ضرورة يلجأ إليها الشاعر لإقامة الوزن ، ولكن ذلك لهجة تسربت إلى اللغة المشتركة التي قيل بها الشعر ونزل بها القرآن الكريم ، وأصبح أمام الشاعر طريقتان في استخدام «ما» الاستفهامية المجرورة :

---

(١) شواهد التوضيح لابن مالك : وانظر ديوانه ص : ١٦١

(٢) مايجوز للشاعر في الضرورة : ١٠٩

(٣) انظر مغنى اللبيب ٢ / ٤ وتفسير الطبري ١٩ / ٩٨ .

(٤) سورة النبأ آية : ١

(٥) المحتسب ٢ — ٣٤٧ وشواهد التوضيح : ١٦١ .

(٦) المحتسب ٢ — ٣٤٧ .

(٧) شرح شواهد الشافية : ٢٢٤

(٨) صحيح البخاري ٢/١٧٢ (طبعة الشعب) .

(٩) صحيح البخاري ٢ — ٧٧ (طبعة الشعب) .

(١٠) صحيح البخاري ٢ — ١٢ (طبعة الشعب) .

(١١) شواهد التوضيح لابن مالك : ١٦٢ . وهذا يتفق مع رأي ابن مالك في الضرورة الشعرية .

إحداهما : أن يحذف ألف ما الاستفهامية عندما تكون مجرورة بحرف جر وهى الأكثر والغالب .

ثانيتهما : ألا يحذف الألف منها عندما تجر . وقد وردت الطريقتان معا شعرا ونثرا ، والشاعر يختار منهما مايوافق وزن الشعر الذى يقول به قصيدته .

رأى فى الاشباع :

هذه نماذج مما جاء عنهم فى إشباع الحركات – على حد تعبيرهم – وقد رأينا أن من هذا الإشباع مايعد لهجة لبعض قبائل العرب ، وأن منها ما يغير الإعراب عن وجهه مثل : (ينباعُ) ، و (أنظور) وقول الآخر [(١)] :

لو أن عمراً همّ أن يرقُودا

والإشباع فى الأسماء كذلك ، لايغير فى الإعراب شيئا ، ومنه مايغير الإعراب عن وجهه الذى رسمه له النحاة مثل (لم أهجو) و (ألم يأتيك) .

ويلاحظ أن مايغير الإعراب عن وجهه تعددت فيه الروايات [(٢)] ، وكثر حوله الخلاف على عكس النوع الآخر ، وهذا يكشف عن اهتمام النحاة بقواعد الإعراب وحرصهم على سلامتها أن تختل ، ومن أجل ذلك نظروا إلى مثل هذه الظواهر لاعلى أنها لهجات أخرى تخالف القاعدة العامة أو على أنها اختلافات نطقية تناسب معنى معينا تتطلب له وتراد عليه ، بل على أنها ضرورة وحسب ، وأراحوا أنفسهم من عناء بحثها بحثا كان من الممكن أن يكشف لنا عن جوانب أخرى فى اللغة أهملوها بعدم وصفهم لها أو تسجيلهم إياها وبحرصهم على القواعد وحدها حسب منهجهم الذى اتبعوا ، وطريقتهم التى سلكوا ، مع ورود مثل هذا الإشباع فى القرآن الكريم فى الاسم والفعل جميعا مثل قراءة الحسن التى سلفت الإشارة إليها فى قوله تعالى (سأوريكم دار الفاسقين) بإشباع الهمزة المضمومة فى الفعل ، وإن كان صاحب الكشاف يقول عنها : « وهى لغة فاشية فى الحجاز يقال أورْنى كذا وأوريته ووجهه أن تكون من أوريت الزند كأن المعنى بيّنه لى وأنره لأستبينه [(٣)] » فخرج بالفعل إلى صيغة أخرى ، وقراءة الحسن – أيضا – (مُتْكاء) [(٤)] بزيادة ألف .

---

(١) الصاحبى لابن فارس : ٣٨٠ (تحقيق السيد صقر) واللسان ٤ / ٣٣١ مع اختلاف فى الرواية ، إذ جاءت الرواية فيه : وليلة خامدة خمودا طخياء تعشى الجدى والفرقودا إذا عبر هم أن برقودا

(٢) انظر المحتسب : ١ / ٦٩ .

(٣) الكشاف للزمخشرى : ٢ / ٩٣ .

(٤) المحتسب : ١ – ٣٣٩ والكلمة من الآية ٣٠ من سورة يوسف .

... الفعل الناقص غير محذوف الحروف ... الجزم في قراءة حمزة[1] ... قوله تعالى (لا تخف دركاً ولا تخشى)[2] ... قوله تعالى : (سنقرئك فلاتنسى)[3] ... جعل (لا) للنهي « ولم تجزم ... الآي ، وقيل الألف ناشئة ... إشباع الفتحة[4] » ولكنهم كانوا ... تمكن من هذه القراءات وجهاً ... عليه مما يوافق قواعدهم .

... قيل عنه كثير من النحاة إنه ضرورة ... منه الإشباع التي سبق إيرادها تخضع ... وجهة نظرنا لأمور تختلف بعضها عن بعض ، وإن كانت تتفق في مظهر واحد هو الإشباع ، ذلك أن قول الشاعر « ألم يأتيك » ... يقول عنه سيبويه إنه مجزوم من الأصل[5] ، يقول عنه الفراء « من العرب من يفعل ذلك[6] ويشعر كلام السيرافي وهو في ... من شرح سيبويه — بأنه لهجة[7] ويقول عنه الأعلم « وهي لغة لبعض العرب يجرون المعتل مجرى السالم في جميع أحواله[8] ويقول عنه ابن مالك « إنها لغة معروفة »[9] وقد صرح المرزباني بأن إثبات الواو والياء في حال الجزم لغة طيئ[10] وكذلك ابن عصفور في شرح الجمل .

ولعل اللهجة التي تبقي على الواو والياء في حال المضارع المجزوم هي التي تبقي عليهما في فعل الأمر للمخاطب الواحد ، ويشهد لذلك ويقويه ما ورد في القرآن الكريم من ثبات الواو والياء في حال الجزم وليس في القرآن ضرورة .

أما الإشباع الذي لا يؤدى إلى تغيير حكم إعرابي في الأفعال والأسماء فهو — على الرغم[11] مما قيل عن بعضه إنه لغة — يخضع لقوة النبر بغرض التركيز على معنى معين والضغط عليه ، فيتولد عن الحركة المنبورة حركة طويلة من جنسها فهو — إذن — من قبيل نبر السياق أو النبر الدلالي — كما يسميه الدكتور تمام

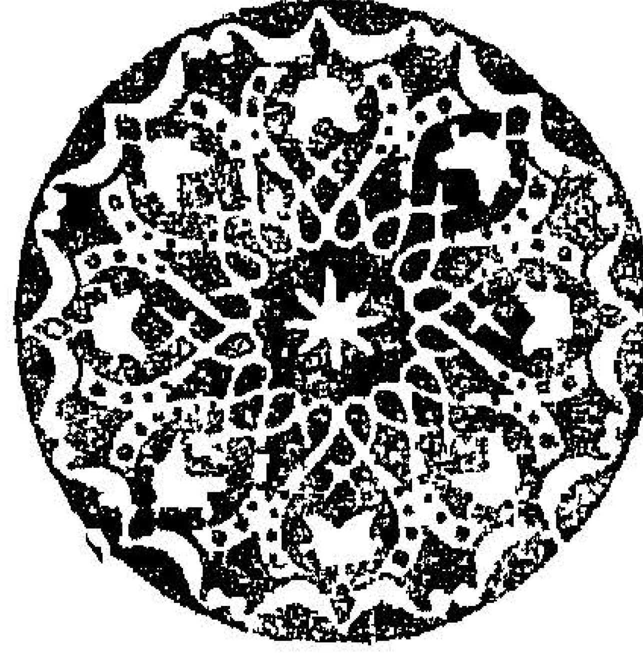
---

(1) ... شرح السيرافي 1 / 210 والسبعة لابن مجاهد : 421 .
(2) سورة طه آية 77 .
(3) سورة الأعلى آية : 6 .
(4) إملاء ما من به الرحمن للعكبري : 2 / 285 .
(5) الكتاب لسيبويه 2 / 60 .
(6) معاني القرآن للفراء : 1 / 161 .
(7) شرح السيرافي : 1 / 209 .
(8) تحصيل عين الذهب للأعلم الشنتمري 2 / 59 ، 60 (مطبوع بأسفل كتاب سيبويه)
(9) شواهد التوضيح لابن مالك : 22 .
(10) انظر الموشح : 33 .
(11) انظر اللسان : 20 / 312 / 379 .

حسان – « وأى مقطع فى المجموعة الكلامية سواء كان فى وسطها أو فى آخرها صالح لأن يقع عليه هذا النوع من النبر [1] » .

وقد التفت ابن جنى لفتة ذكية إلى هذا عندما فسر قراءة الحسن « سأوريكم دار الفاسقين » بعد أن استدل لها بالأبيات التى ذكرناها ويعدها كثير من النحاة ضرورة قال : « وزاد فى احتمال الواو فى هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه وزاد إشباعه واعتماده فألحقت الواو فيه [2] » ونحن لا نفهم تمكين الصوت وزيادة الإشباع فيه والاعتماد عليه إلا أنه هذا النبر الدلالى المرتبط بالسياق ولعل فهم ابن جنى لهذه الظاهرة على هذا النحو هو الذى جعله يقول : « وقد جاء من هذا الإشباع الذى تنشأ عنه الحروف شىء صالح نثراً أو نظماً [3] » فليس – إذن – مختصا بالضرورة ، وعلى أية حال فما دام المعنى واضحا لا لبس فيه ولا غموض فأى شىء آخر غير منعىٍّ عليه ، وليس هذا بدعاً من القول فابن جنى – وهو إمام فذ من أئمة العربية – يقول « فإن العرب قد تحمل على ألفاظها الصحة معانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى [4] » فإذا كان الإعراب – وهو أهم ما عنى به النحويون – قد تفسده العرب لصحة معانيها أفلا تشبع بعض أصوات البنية لتقوية هذا المعنى ؟ وبخاصة إذا عرفنا أن الأصوات تابعة للمعانى فمتى قويت ، قويت ومتى ضعفت ، ضعفت [5] ، ومهما يكن من من أمر فهذا كله من التحريف فى البنية لوضوح المعنى وعدم اللبس فيه .

محمد حماسة عبد اللطيف



(١) مناهج البحث فى اللغة للدكتور تمام حسان : ١٦٣ .

(٢) المحتسب : ١ / ٢٥٩ .

(٣) السابق : ١ / ٢٥٨ .

(٤) السابق : ٢ / ٢١١ .

(٥) السابق : ٢ / ٢١٠ .

المصطلحات العربية فى علوم الأرض

للدكتور على السكرى
والدكتور زايد محمد زايد

لا يُعدُّ عدم الإلمام باللغة العربية دليلا على قصور هذه اللغة فى التعبير وبالأخص فى المجالات العلمية المختلفة . والرجوع إلى المراجع الخاصة بفقه اللغة العربية والمعاجم اللفظية الكبيرة ضرورى لتوحيد التعبير فى ترجمة المصطلحات العلمية وكم هى وفيرة فى عددها ومعانيها ودرجاتها المختلفة. وسوف نعطى أمثلة لذلك فى بعض مجالات علوم الأرض :

(ا) مادة منعرج الوادى

(ب) مادة أسماء البحر ومافيه ، مع تركيز الاهتمام فى المقال الحالى على بندين من هذه المادة هما :

(١) أسماء البحر ونواحيه (٢) الخليج

(جـ) مادة نعوت الوديان .

(ا) مادة منعرج الوادى

ذكر هذا اللفظ فى كتاب الإفصاح فى فقه اللغة من عمل الأستاذين : حسين موسى وعبد الفتاح الصعيدى (١٩٦٧) تحت عنوان «منعرج الوادى » فى الباب السادس عشر من الجزء الثانى فقسما مادته إلى خمسة مصطلحات يصف كل منها مرحلة من مراحل تعرج الوادى والنهر وانعطافهما وبيانها كالآتى .

١ - المنعطف (بضم الميم وفتح الطاء) : منعطف الوادى منحناه ، عطف يعطف عطفا وانعطف : مال وانحنى :

٢ - المنعرج (بضم الميم وفتح الراء) : منعرج الوادى : حيث يميل .انعرج الشئ وتعرج : انعطف ومال يمنة ويسرة ، يقال انعرج النهر والطريق وتعرج . وتعريج النهر : منعطفه . والجمع : تعاريج وتعريجات ؛ وعرّجنا (بتشديد الراء) النهر والوادى : أملناه يمنة ويسرة .

٣ - الجزع (بفتح الجيم أو كسرها) : منعرج الوادى ومنحناه . والجزع وسطه أو منقطعه .الجمع : أجزاع . ولايسمى جزعا حتى تكون له سعه تنبت الشجر ، أو هو مكان بالوادى لاشجر فيه .

٤ — الضوج (بفتح الضاد وسكون الواو) منعطف الوادى والعوج فيه . ضاج الوادى يضوج ضوجا وانضاج وتضوج : كثرت أضواجه أى معاطفه ، وقيل : الأضواج أنوف تخرج من الوادى إذا ذهب يمينا وشمالا .

٥ — الثنى (بكسر الثاء وسكون النون) ثنى الوادى منعطفه وهو الموضع الذى يلتوى فيه . الجمع : أثناء. تثنى الشئ واثنى واثنونى : انعطف .

وفى كتاب «مبادئ الجيولوجيا الطبيعية لمؤلفه آرثر هولمز (١٩٦٥) وجد أن الدلالة العلمية المتواترة لمنعطف الوادى أو النهر وتعرجهما هى كلمة Meander

وقد وضعت مادتها تحت عنوان :

River bends and widening of valley floors

ثم عاد فتحدث المؤلف عنها فى بند آخر تحت عنوان :

Meanders and meander belts

حيث ذكر أن الأنهار تستمر فى حركة الانحناء والثنى من جانب إلى آخر فى أرضية الوادى ،ويزداد الثنى والانعطاف فى اتجاهات مختلفة وسمى هذه المنعطفات "Meanders".

ذكرت بعض كتب علوم الأرض المعربة فى شرح تكوين المنعطفات النهرية أنه عندما يرتطم التيار فى مساره نحو المصب بأحد الجوانب المحدبة عند مدخل إحدى هذه التعرجات يرتد نحو الجانب المقعر المواجه فينحت منه؛ ثم يتجه بعد ذلك إلى الجانب الآخر فى طريقه ناحية المصب...ومع تكرار هذه العملية تزداد الجوانب المقعرة تقعرا والجوانب المحدبة تحدبا، فتتكون سلسلة من الانحناءات الواضحة تسمى المنعطفات .

وهنا يمكن الجمع بين المصطلحات العربية الثلاث التى ترتبط بفعل الأنهار ومجاريها فى الوديان وهى : المنعطف والضوج والثنى فى وصف ظاهرة انعطاف مجرى الأنهار، كما لو كانت تصف مراحل متدرجة لتكوين المنعطفات النهرية . وفى هذا المجال تبدو اللغة العربية أكثر قدرة على التعبير ودقة الوصف من بعض اللغات الأجنبية الأخرى مثل الإنجليزية .فمن الممكن تخصيص مصطلح المنعطف والمنعرج والجزع لوصف المرحلة الأولى فى عملية انعطاف النهر (الشكل ١ — أ) ومصطلح الضوج لكى يصف مرحلة كثرة المنعطفات وبروزها (الشكل ١ — ب) فى حين أن كلمة ثنى يمكن أن تصف مرحلة وضوح الالتواءات بمسار النهر (الشكل ١ — ج) . والخلاصة أن كلمة Meander هى المختصر للمدلول الوصفى لعدد من الألفاظ العربية تتقارب فى المعنى العام وتتفاوت فى مدلولها الدقيق

وهذه الألفاظ هى : المنعطف — المنعرج الجزع — انعوج — الثنى .

(ب) مادة أسماء البحر وما فيه

لم تغفل المراجع العربية أيضا التعريفات بكلمة البحر وأضربه، فذكر كتاب الإفصاح فى فقه اللغه (سبق التعريف به) كلمة البحر تحت عنوان شامل عام «البحر ومافيه» فى الباب الخامس عشر من الجزء الثانى ثم قسم الموضوع إلى عدة أقسام : أسماء البحر ونواحيه — صفات البحر — موج البحر المد والجزر — الخليج — الجزيرة — ساحل البحر أصداف البحر، ثم تناول الكتاب تعريف كل قسم من هذه الأقسام بتفصيل أجزائه . وفى هذا المقام سنتناول دراسة موضوعين هما : (١) أسماء البحر ونواحيه (٢) الخليج.

١ — أسماء البحر ونواحيه

وهذه تعريفات المرجع المذكور :

١ — البحر : الماء الملح الكثير . وقيل الماء الكثير من عذب أو ملح . والجمع أبحر (بضم الحاء) وبحور وبحار وتصغيره أبيحر لا بحير ، ويجوز على قلة وسمى بحرا لاستبحاره أى اتساعه ومنه استبحر فلان فى العلم والمال وتبحر (بتشديد الحاء مع الفتح) . والبحيرة ليست تصغير بحر لوجود التاء فيها، وإنما هى تصغير بحرة (بفتح الباء أو ضمها مع سكون الحاء) وهى المتسع من الأرض وهبطة . بحر (كسر الحاء) : الرجل يبحر بحرا : رأى البحر ففزع ودهش من رؤيته . وأبحر : ركب البحر .

٢ — اليمّ : البحر ، لا يكسر ولا يجمع جمع السالم . يُمّ (ضم الياء) فلان : طرح فى اليمّ .

٣ — الخضم (كسر الخاء وفتح الضاد) : البحر الواسع .

٤ — الطّيس والطّيسل (فتح الطاء وسكون الياء) : البحر والطيس الكثير من كل شئ .

٥ — العَيْلم (فتح العين وسكون الياء) : البحر . وقيل الماء الذى عليه الأرض، وقيل الماء الذى علته الأرض يعنى المندفن

٦ — القاموس : وسط البحر وقيل قاموس البحر وقومسه (فتح القاف والميم) : معظم مائه . وقيل القومس : البحر والقميس (بكسر القاف وتشديد الميم مع الكسر) البحر ، والجمع قماميس .

٧ — الأسطمّة (ضم الألف والطاء وتشديد الميم مع الفتح) : أسطمة البحر واسطمه : وسطه ومجتمعه .

٨ — العُرض (ضم العين وسكون الراء) : وسطه وقيل هو عام فى وسط جميع الأشياء .

٩ — الدُّردور (ضم الدال وسكون الراء) والقلت (فتح القاف واللام) : موضع فى البحر يجيش ماؤه قلما تسلم منه السفينة .

١٠ — اللُّجّة (ضم اللام وتشديد الجيم

مع الفتح): لج (ضم اللام وتشديد الجيم مع الضم). ولجته: حيث لا ترى أرضا ولا جبلا وحيث لا يدرك قعره. الجمع: لجج. وبحر لجى ولجاج: واسع اللجة. التج البحر اختلطت أمواجه وتلاطمت وألجوا: دخلوا فى اللجة.

١١ — العآلة (بتشديد اللام مع الفتح)
ماء ينقطع من ماء البحر فيجتمع فى موضع.

وهكذا نرى فى ذكره للبحر قصده بأنه الماء الملح الكثير ووصفه بالاتساع وهى صفات التعبير الإنجليزى المعروف Sea، ثم راح يسرد مراحل الاتساع ويضع لكل كيفيته. وبالنظر فى كتب الجيولوجيا الطبيعية نجدها استخدمت كلمة Sea للدلالة على اتساع مساحة السطح المائى المالح.

ووصف المرجع العربى البحر الواسع واختصه بكنية خاصة «الخضم» يقابلها اللفظ wide sea وأمثلتها فى البحر الأبيض المتوسط وبحر الأدرياتيك وبحر اليابان. كذلك وصف المتسع المائى الذى لا يدرك منتهى مسطحه أو قاعه وسماه «اللجة» وهو يقابل وسط البحر أو المحيط وأمثلته فى أواسط المحيطات المعروفة مثل المحيط الأطلنطى.

ثم ذكر لفظ العآلة وهى ماء ينقطع من ماء البحر فيجتمع فى موضع، ويقابلها المصطلح الإنجليزى Lagoon. وقد ذكر المصطلح الأخير فى بعض كتب علوم الأرض المعربة، مثل كتاب: «مبادئ الجيولوجيا الطبيعية» لمؤلفيه: إبراهيم فارس ومحمد يوسف حسن ومراد إبراهيم يوسف، كمظهر من المظاهر المورفولوجية التى تحدث على الشواطئ بفعل التيارات البحرية والأمواج: «...وتحجز الشواطئ الحاجزية بينها وبين الشواطىء الأصلية مساحات من الماء الهادئ إما مقفولة جزئيا أو تماما وتسمى بالبحيرات الشاطئية أو اللاغونات Lagoons ... وهناك مظهر من مظاهر الشواطئ تكونها التيارات، وتسمى الألسنة الرملية، وهذه تتكون عندما تبلغ التيارات الشاطئية الموازية للشاطئ المحملة بالرواسب فتحة أحد الخلجان فهى لا يمكنها أن تتبع خط الشاطئ وبذلك تدخل مياها عميقة عند مدخل الخليج، وتقل سرعتها فجأة فترسب حمولتها، فى هيئة لسان صغير ينمو عبر الخليج تدريجيا، وقد يغلقه تماما وعندئذ يتحول الخليج نفسه إلى لاغون Lagoon».

وترجمة المصطلح الإنجليزى Lagoon الى العربية بتحويل الحروف الأجنبية الى ما يقابلها بالعربية اتجاه قاصر فى الترجمة. ونقترح أن يكون اللفظ العربى المقابل للمصطلح الإنجليزى Lagoon هو كلمة العآلة،

[illegible] (٢) . ولنضرب بذلك مثلا فى بحيرة [illegible] .

٢ — الخليج

[illegible] وصوره فى كتاب الإفصاح [illegible] المشار اليه على أنه :

[illegible] : الشرم من البحر . والخليج [illegible] : جانباه . الجمع خلج [illegible] اللام) وخلجان .

[illegible] : الخليج من البحر .

[illegible] (بفتح الخاء وسكون الواو) : [illegible] البحر ؛ وقيل هو مصب الماء فى [illegible] وقيل عنق من البحر يدخل فى الأرض [illegible] من الأرض بين النشزين [illegible] .

[illegible] (بضم الغين) : الضارب [illegible] حتى تمعن فى البر أو فى الأرض. [illegible] (بضم الغين وتشديد الباء).

[illegible] الخليج حدد وجوده فى [illegible] وأنه شرم متصل بهذا أو ذاك [illegible] الشرم بأنه الخليج من البحر. [illegible] قاموس المصطلحات [illegible] أشرف على إخراجه معهد [illegible] الأمريكى (١٩٦٢) وجاء أن [illegible] Bay وتعنى الخليج هو : تجويف من [illegible] أسنان من اليابسة على كل [illegible] كلمة Gulf معناها الخليج كذلك [illegible] مع ضيق عند اتصاله بالبحر.

وهنا يرى الكاتبان أن كلمة Bay تناسب اللفظ العربى «الخليج» أما كلمة Gulf فالأنسب لها هو اللفظ العربى «الشرم». ومثال للخليج هو خليج أبى قير الذى يقع شرق مدينة الإسكندرية بينما مثال الشرم فى مايسمى شرم العقبة ، شكل (٣) وشكل (٤) .

وأما كلمة الخور من حيث معناها العربى كمصب للماء الجارى من الأنهار فى البحر فيقابلها كلمة Estuary ومعناها العلمى الذى ورد فى القاموس المذكور أنها تمثل منطقة المد والجزر عند عنق النهر مكان اتصاله بالبحر ، شكل (٥) .

وفى التعريف العلمى لكلمة Fiord أنها امتدادات طويلة من البحر كالأذرع فى اليابسة تمعن فى الأرض بين جدران المنحدرات الصخرية ، شكل (٦). والأمثلة لذلك كثيرة فى النرويج وشيلى الجنوبية وجنوب شرق ألاسكا وكولومبيا البريطانية. وهو المعنى المقصود فى كلمة الغب العربية . وعليه فكلمة غب ممكن أن تقابل الكلمة الأجنبية Fiord

وعندما تقصر هذه الأذرع البحرية ولاتتغلغل كثيرا داخل اليابسة ويقل عمقها فتسمى Ria كما ورد فى قاموس المصطلحات الجيولوجية . ونرى أنه من الممكن أن يقابلها اللفظ العربى «غب ضحل» ومثلها الغبان الضحلة المنتشرة على سواحل شبه جزيرة أيبريا التى تطل على المحيط الأطلنطى ، شكل (٧) .

(ج) مادة نعوت الوديان

فى هذا الموضوع ذكر كتاب الإفصاح فى فقه اللغة بند الأودية فى الباب السادس عشر من الجزء الثانى حيث قسم الموضوع إلى : الوادى وأجزاؤه — منعرج الوادى — شاطئ الوادى — نعوت الأودية — مجارى الماء فى الوادى .

وعرف الوادى على أنه : كل منفرج بين الجبال والتلال والآكام . وهو أعظم مجارى السيل، الجمع : أودية وأوداء ووديان . ودى الشئ يدى وديا : سال، ومن ذلك سمى الوادى لسيلانه ..

وتقابل كلمة الوادى لفظ Valley فى اللغة الإنجليزية ويقصد بها فى كتب علوم الأرض نفس القصد المذكور فى كتاب الإفصاح فى فقه اللغة : وفى كتاب مبادئ الجيولوجيا الطبيعية فى الحديث عن الأودية وعلاقتها بالأنهار أنها تتطور بمرور الماء فيها لتجرف فتات المواد الصخرية الذى ينحر جوانب الوادى وقاعه، فيؤدى إلى تعميقه واتساعه .

وورد اثنا عشر نعتا للأودية فى المرجع العربى المذكور بيانها كالآتى :

١ — الغال : الوادى الغامض فى الأرض ذو الشجر، لأنه انغل فى الأرض أى دخل، الجمع : غلان (ضم الغين وتشديد اللام).

٢ — السليل : أوسع من الغال (السابق) ينبت السلم، وقيل مجرى الماء فى الوادى .

٣ — الرغيب هو من الأودية : الضخم الذى يأخذ كل ماء فلا يضيق عنه .

٤ — الزهيد : هو من الأودية : القليل الأخذ من الماء .

٥ — النزل (بكسر الزاى) أو الحشف (بكسر الشين) : هو من الأودية الذى يسيله من الماء القليل الهين، لأنه غليظ صلب .

٦ — المسلنطح (ضم الميم وكسر الطاء) والزلحلح (بفتح اللامين) : الوادى إذا لم يكن عميقاً .

٧ — الخضار (بضم الخاء) : واد خضار كثير الشجر ؟

٨ — الحرج (بفتح الحاء وسكون الراء) وادٍ لامنفذ له .

٩ — الإفجيج (بسكون الفاء) : الوادى الضيق العميق .

١٠ — الكركور (بضم الكافين) : وادٍ بعيد القعر يتكركر فيه الماء أى يتراد .

١١ — اللاخ أو اللاح : وادٍ لاخ أو لاح : ملتف المضايق ؟

١٢ — اللاخى : لخى الشيء يلخى لخا : اعوج . ووادٍ لاخ : معوج .

وهنا نرى أنه وصف الأودية تبعاً لمدى الاتساع والعمق فذكر الغال أولا باتساع محدود، وسمى الوادى الأوسع من الغال باسم السليل ثم الأضخم اتساعاً فسماه الرغيب، وجعل فيه مقياس الاتساع هى كمية الماء التى لا يضيق عنها مهما زادت : أى أنه من الأودية التى تجرى فيها المياه، وسمى مرحلتين أقل فأقل من الوديان التى تجرى فيها المياه الزهيد ثم النزل أو الحشف على الترتيب .

ثم ها هو يصف شكل الوادى فسماه الخرج حينما يكون مقفلا لا منفذ له . وسماه لاخ أو لاح عندما تلتفّ مضايقه ، شكل (١٠) . ثم هو لانحي إذا ما اعوجّ الوادى . ومن حيث احتواء الوادى على الخضرة والشجر ، ذكر نوعين من الأودية هما الغال والخضار .

ولم يذهب المرجع العربى مذهب التعقيد فى اشتقاق المصطلحات ، بل استقاها بناء على صفة بارزة فى الموصوف تؤدى المعنى المطلوب . فوصف الوادى حينما يأخذ القليل من الماء بالزهيد وهى من الزهد فى استيعاب الماء كناية عن سعته المحدودة الضيقة ، ثم الرغيب من الرغبة فى احتواء الماء مهما كان مقداره ، فوصفه بقوله إنه الضخم الذى يأخذ كل ماء فلا يضيق عنه . وفى كلمتى الزهيد والرغيب مقابلة بلاغية أصيلة فى المعنى .

وعندما أراد أن يصف الوادى بأنه كثير الشجر وفيه خضرة سماه الخضار ، وهو اسم مشتق من صفة واضحة فى الوادى وهى الزرع . ولعل من مظاهر هذا النهج أنه اختار كلمة الكركور كنعت من نعوت الوادى ، حين يقول : « الكركور وادٍ بعيد القعر يتكركر فيه الماء » . وتكركر الماء إذا تراجع فى مسيله ، وكركرت النرجيلة اضطرب ماؤها فكان له صوت يشبه الكركرة ، وفى هذا إشارة إلى اضطراب الماء فى الوادى .

وفى مجال تطابق بعض الألفاظ العربية فى مادة نعوت الأودية مع مقابلها الأجنبى ، نرى أن كلمة الإفجيج العربية أو الخانق يقابلها المصطلح الأجنبى Gorge ، شكل (٨) . فهذا المصطلح الأجنبى يشير إلى أى وادٍ عميق ضيق ذى جوانب رأسية ، وفى كتاب المخصص لابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ — ١٠٨١ م) وجد أن الإفجيج هو الوادى الضيق العميق . وعليه فإن كلمة إفجيج هى المرادف العربى للمصطلح Gorge . هذا وقد ترجمت كلمة Gorge فى المعجم الجغرافى (١٩٧٤) على أنها خانق بنفس المصطلح المترجم لكلمة Ganyon . وكأن اللغة العربية قاصرة عن التمييز بينهما . ويبدو جلياً أن كلمة إفجيج تؤدى المعنى المطلوب بدقة من كلمة Gorge .

وعن المصطلح الأجنبى Ganyon نرى أن كلمة كركور العربية تقابله لأن المعنى العلمى لهذا المصطلح هو : واد عميق ذو جوانب رأسية حفرت بواسطة نهر ، انظر شكل(٩) . وفى كتاب المخصص لابن سيده المذكور نجد أن كلمة الكركور معناها واد بعيد القعر . وفى قاموس المحيط : الكركور وادٍ بعيد القعر . وعلى هذا الأساس تكون كلمة الكركور هى أقرب ترجمة عربية الأصل لكلمة Ganyon ، وإذا كانت هذه الكلمة الأخيرة ترجمت فى المعجم الجغرافى على أنها خانق فإن كلمة كركور تؤدى المعنى بصورة أدق .

زايد محمد زايد

على على السكرى

القزاز القيروانى وكتابه فى ضرورة الشعر

— ١ —

للدكتور رمضان عبد التواب

تجمع المصادر التى ترجمت للقزاز[1]، على أنه هو [illegible] الله محمد بن جعفر القزاز [illegible] التميمى ، لا تزيد على هذا [illegible] ، فهى لا تشير إلى أى [illegible] جدوده ، ولا إلى السر فى تلقيبه [illegible] . فلا نعرف منها أكان تميميا [illegible] أم بالولاء .

[illegible] كر المصادر التى بين أيدينا متى [illegible] ، غير أنها تجمع على أنه توفى سنة ٤١٢هـ بالقيروان[2] . ويذكر ياقوت (فى معجم الأدباء ١٨/١٠٥) والسيوطى (فى بغية الوعاة ١/٧١) أنه قارب التسعين[3] ، عند وفاته ، وعلى ذلك يمكن القول بأنه ولد فى حدود سنة ٣٢٢هـ .

وقد اتصل بالخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى سنة ٣٦١هـ قبل أن ينتقل الخليفة إلى مصر ، وألف له بأمر منه : « كتاب الحروف » ، وقد ذكر القفطى ذلك (فى كتابه : إنباه الرواة ٣/٨٦–٨٧)

[illegible] تنظر معجم الأدباء ١٨/١٠٥ ووفيات الأعيان ٤/٩ وإنباه الرواة ٣/٨٤ وبغية الوعاة ١/١٧ والبلغة [illegible] ٢١٤ والمحمدون من الشعراء ١٨٥ وإشارة التعيين ٩١ والوافى بالوفيات ٢/٣٠٤ ومرآة الجنان ٣/٢٧ [illegible] ٤ (المجلد الثالث) ص ٣٩٩ ؛ ١١ (المجلد الثانى) ص ٣٧٦ .

[illegible] وفيات الأعيان ٤/١١ ومعجم الأدباء ١٨/١٠٥ وإنباه الرواة ٣/٨٦ وبغية الوعاة ١/٧١ والوافى بالوفيات [illegible] مرآة الجنان ٣/٢٧ وإشارة التعيين ٩١

[illegible] فى وفيات الأعيان (محيى الدين ٤/١١ وإحسان عباس ٤/٣٧٦) من أنه « قد قارب السبعين » تحريف ، [illegible] يجد ، من أنه ألف للمعز كتاب الحروف سنة ٣٦١هـ ، فلو صدقنا هذه الرواية المحرفة ، لكان عمره [illegible] وهو أمر مستبعد أن يشتهر القزاز فى هذه السن !

فقال : « فى سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، أمر معَدٌّ أبو تميم ، المدعو بالمعزّ المتولى على إفريقية ، عسلوج بن الحسن الدنهاجى العامل ، أن يأمر القزاز النحوى هذا ، بأن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون ،أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى شرح الحرف الذى جاء لمعنى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم فسارع لما أمر به ، وجمع المفرق فى الكتب النفيسة من هذا المعنى ، على أقصد سبيله وأقرب مأخذه ، وأوضح طريقه ، فبلغ جملة الكتاب ألف ورقة ، ورفع صوراً منه إلى معدٌّ فأعجبه ورضيه ، وقال له : اذكر ما يجئ من الكلمات لمشاكلة الصور ، فى الأمر والنهى ، والصفة والجحد والاستفهام ، التى يدل على المراد منها إعرابها ، على ما تقدمها وتلاها من القول ، فقال محمد بن جعفر القزاز : ما علمت أحدا سبق إلى تأليف مثل هذا الكتاب ، ولا اهتدى أحد من أهل هذه الصنعة إلى تقريب البعيد ، وتسهيل المأخذ ، وجمع المفرق على هذا المنهاج ، فلما كان يوم الثلاثاء لثمان عشرة ليلة ، بقيت من شهر رمضان ، من السنة المقدم ذكرها دخل محمد بن جعفر النحوى القزاز هذا ، بالكتاب الذى أمر بتأليفه على يد عساوج فوقف عليه المعز وأعجبه ، وقال للمصنف إنى أرى فى أوله فألا حسنا فلا أدرى أوقع أم اعتمدته ، وهو أنك لما ذكرت اسمى ، جئت به مرفوعا ، فكان أحسن من أن تأتى به مخفوضا بالإضافة » .

غير أن ابن خلكان ، يذكر عن بعض العلماء ، أن القزاز ألف هذا الكتاب للعزيز بن المعز ، وأنه كان فى خدمته ، فيقول[1] : « وذكر أبو القاسم بن الصيرفى ، الكاتب المصرى ، أن أبا عبد الله القزاز المذكور ، كان فى خدمة العزيز بن المعز العبيدى صاحب مصر وصنف له كتبا . وقال غيره : كان العزيز بن المعز العبيدى ، صاحب مصر ، قد تقدم إليه أن يؤلف كتابا ، يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون ، أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى ذكر الحرف الذى جاء لمعنى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك

(١) وفيات الأعيان ٤/٩ وانظر كذلك : مرآة الجنان ٣/٢٧ وإشارة التعيين ٩١ كما ذكر الصفدى فى الوافى بالوفيات ٢/٣٠٥ أنه « كان فى خدمة العزيز بن المعز العبيدى » .

على حروف المعجم ...فسارع أبو عبد الله القزاز إلى ما أمره العزيز به ، وجمع المفرق من الكتب النفيسة في هذا المعنى ، على أقصد سبيل ، وأقرب مأخذ ، وأوضح طريق ، فبلغ جملة الكتاب ألف ورقة » .

ولا تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئا عن شيوخه الذين تلقى عنهم العلم غير أنه ذكر في كتابه « ما يجوز للشاعر في الضرورة » (نشرة الكعبي ٣٨ ونشرة زغلول سلام ٥٠) : « وما هو في هذه العيوب إلا كما حدثنا أبو علي الحسين ابن إبراهيم الامدي ، قال : حدثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش .. الخ » ولم نعثر لشيخه هذا على ترجمة في مصادرنا ، غير أنا وجدنا خبرا عن أنه روى إصلاح المنطق ، عن علي بن سليمان الأخفش ، في إنباه الرواة ٨٨/١ ومعجم الأدباء ٢٧٠/٣ كما ذكره تلميذه ابن رشيق في العمدة ١٢١/١؛ ١٥٠/٢؛ ١٩١/٢ في سلسلة إسناد عن شيخه القزاز عنه .

أما تلاميذه ، فقد ذكرت المصادر منهم :

١ ــ الحسن بن رشيق القيرواني (توفي سنة ٤٦٣هـ . انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣٦٦/١) : ذكر ذلك في معجم الأدباء ١١/٨ وقد روى عنه في كتابه « العمدة » في المواضع التالية : ٦٨/١ « وحدثنا أبو عبد الله محمد بن جعفر قال ... » ٨٥/١ : « وسمعت أبا عبد الله مرة يقول ... » ١١٠/١ : « ومثل الإجازة الإصراف ، حكاه شيخنا أبو عبد الله » ١٢١/١ : « أنشدناه أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوي ، عن أبي علي الحسين بن إبراهيم الآمدي ... » ٢١١/١ : « وقد حاجى شيخنا أبو عبد الله بعض تلاميذه فقال له ... » ٦٣/٢ : « ومن مليح هذا الباب ما أنشدنيه أبو عبد الله محمد بن جعفر ، لابن المعتز ... » ٦٩/٢ « غير أن شيخنا أبا عبد الله روى هذه الأبيات ... » ١٥٠/٢ : « أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوي ، عن أبي علي الحسين بن إبراهيم الآمدي » ١٩١/٢ : « أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن جعفر النحوي ، عن أبي علي الآمدي .. »

٢ ــ الحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي النسابة الإفريقي (توفي ٤٢٠ هـ . انظر ترجمته في بغية الوعاة ٥٢٥/٢) : قال عنه في إنباه الرواة ٣١٨/١ « وكان أبو عبد الله التميمي محمد بن جعفر النحوي المعروف بالقزاز القيرواني ، قد عني به

محبة له ، فبلغ به نهاية الأدب ، وعلم الخبر والنسب » . وانظر هذا أيضا فى بغية الوعاة ٥٢٥/٢ مع بعض التحريف .

٣ - محمد بن أبى سعيد محمد المعروف بابن شرف القيروانى (توفى سنة ٤٦٠هـ . انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣٧/١٩) ذكر ياقوت فى معجم الأدباء ٣٧/١٩ أنه « قرأ النحو على أبى عبد الله محمد ابن جعفر القزاز » .

٤ - مكى بن أبى طالب حموش بن محمد القيروانى (توفى سنة ٤٣٧هـ . انظر ترجمته فى معجم الأدباء ١٦٧/١٩ وإنباه الرواة ٣١٣/٣) : ذكر ابن خير فى فهرسته ص ٣٦٣ أنه روى عن القزاز كتبه : المثلث ، والظاء ، والحروف .

وممن تتلمذ على القزاز كذلك : ابنه « أبو القاسم عبد الرحمن » ، الذى روى عن أبيه كتابه : « المثلث » ، فيما يذكر ابن خير فى فهرسته ص ٣٦٢

وكان للقزاز غير ولده هذا ، ابن آخر اسمه «عبد الله » ، وهو الذى كان يكنى به . وقد ذكر ابن رشيق (فى العمدة ٤٣/١) أن قبره بالمغرب ، بناحية زويلة بنى الخطاب .

* * *

وكان القزاز شاعرا ، روت له المصادر التى بين أيدينا بعض شعره ، وأثنت عليه ، كما نقل ابن خلكان [1] عن تلميذه الحسن بن رشيق ، أنه قال فى الأنموذج : « وكان له شعر مطبوع مصنوع ربما جاء به مفاكهة وممالحة ، من غير تحفز ولا تحفل ، يبلغ بالرفق والدعة ، على الرحب والسعة ، أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى وتوكيد المبانى ، علما بتفاصيل الكلام ، وفواصل النظام [2] فمن ذلك قوله :

أما ومحلِّ حبك فى فؤادى
وقَدْرِ مكانه فيه المكينِ
لو انبسطتْ لى الآمالُ حتى
تصيِّر لى عنانك فى يمينى
لصنتُك فى مكان سواد عينى
وخِطْتُ عليك من حَذَرٍ جفونى
فأبلغ منك غايات الأمانى
وآمن فيك آفات الظنون

(١) وفيات الأعيان ١٠/٤

(٢) انظر مثل هذا الوصف كذلك فى : إنباه الرواة ٨٤/٣ و مسالك الأبصار ٤ (المجلد الثالث) ٣٩٩

[illegible] تجرّع كلَّ يوم
[illegible] بهنَّ كاساتِ المنون

[illegible] قلوبُ الناس خافت
خفيٌّ ألحاظ العيون

وكيف [illegible] دنياى ولولا
[illegible] الله فيك لقلتُ دينى (١)

ومن شعره أيضا :

[illegible] ودًّا ولا تظهروه
[illegible] منكمُ إلىَّ الضميرُ

[illegible] إذا بلغتُ رضاكم
فى هوا كم لأىِّ حال أصيرُ (٢)

وله أيضا :

[illegible] من شرحَّب فرَّق الدهر شملهم
[illegible] مُنجِدٍ نائى المحلِّ ومُتْهِمِ

كأنَّ [illegible] يخاف الرَّدى فى اجتماعهم
[illegible] فى الأرضِ كلَّ مُقَسَّمِ

وله أيضا :

[illegible] أتى الربيع ربيعٌ
[illegible] هوامُل الآمال

أبدا يذكر العِداتِ وينسى
ماله عندنا من الإفضال

وله أيضا :

أحين عامت أنَّك نورُ عينى
وأنّى لا أرى حتى أراكا

جعلْتَ مغيبَ شخصك عن عيانى
يغيِّبُ كلَّ مخلوق سواكا (٣)

ثم قال ابن خلكان بعد ذلك : « وذكر له مقاطع كثيرة غير هذه ، ثم قال : وشعر أبى عبد الله – يعنى القزاز المذكور – أحسن مما ذكرت ، لكنى لم أتمكن من روايته ، وقد شرطت فى هذا الكتاب ، أن كل ماجئت به من الأشعار على وجه الاختصار » .

ومن شعره أيضا :

إذا كان حظى منك لحظةَ ناظر
على رِقْبَةٍ لا أستديمُ لها لَحْظَا

رضيت بها فى مدة الدهر مرة
وأعظِمْ بها من حُسن وجهك لى حظًّا (٤)

---

(١) [illegible] الأبيات كذلك فى إنباه الرواة ٣/٨٤ ومعجم الأدباء ١٨/١٠٧ ومرآة الجنان ٣/٢٧ وإشارة التعيين ٩١ [illegible] القطعة الأولى فى المحمدون ١٨٦ والوافى ٢/٣٠٥ والثانى والثالث فى مسالك الأبصار ١١ (المجلد الثانى) ٣٧٦

(٢) [illegible] كذلك فى إنباه الرواة ٣/٨٥ ومعجم الأدباء ١٨/١٠٨ والمحمدون من الشعراء ١٨٦

(٣) [illegible] كذلك فى معجم الأدباء ١٨/١٠٨ والوافى بالوفيات ٢/٣٠٥ ومرآة الجنان ٣/٢٧ ومسالك الأبصار [illegible] ٣٧٦–٣٧٧ .

(٤) البيتان فى معجم الأدباء ١٨/١٠٧ والمحمدون من الشعراء ١٨٦

وله أيضا :

لو أنَّ لى حكم قلبى فيك أو بَصَرِى
ما استمتعتْ لى عينَ منك بالنظر

أخشى وأحذر من عينى القريحة ما
أخشى وأحذره من أعين البشر

ويلاه إنْ كان حظِّى فيه مشتركا
وكيف يشترك الحيَّان فى عُمُر

يناله وادعٌ لايستعدُّ له
ولستُ أبلغ أولاه من الحذَرِ[1]

كما يروى القفطى[2] قصة إحدى مقطوعاته الشعرية ، فيقول : وختن عبد الوهاب بن حسين بن الحاجب ولدَه وعبدَ الله ولد حسنٍ أخيه ، فاستدعى الناس ، وأغفل أبا عبد الله ، إما سهوا ، وإما حملاً عليه ، واجتاز به بعض أصحابه مضمَّخًا طيبا ، فعرفه القصة ، فصنع من وقته :

واحسرتا مات أترابى وأقرانى
وشتت الدهرُ أصحابى وأخدانى

وغيرتْ غِيَرُ الأيام خالصتى
والمنتضى الحرَّ من أهلى وإخوانى

وصار من كنت فى السراءِ أذكره
بل لست أنساه فى الضراءِ ينسانى

هذا أخى وشقيقى المرتضى ويدى الـ
يمنى وموضع إسرارى وإعلانى

دعا فعمَّ الورَى طرًّا وأسقطنى
إسقاطك النون فى ترخيم عثمان

وكنت فى النَّقَرى أُدْعَى فصرت لقًى
لا أول الجفَلى أدعى ولا الثانى

وركب إلى عبد الوهاب ، فلما رآه عبد الوهاب ، تلقاه ورفع مجلسه ، ودهش منه ، فهنأه أبو عبد الله القزاز ، ثم أنشده الأبيات ، وأقسم بأيمان مؤكدة أنه لايحضر وليمته أبدا ، فشق ذلك على عبد الوهاب مشقة كبيرة » .

وقد ذكر له ابن رشيق بيتا يحاجى به أحد تلاميذه فقال[3] : « وقد حاجى شيخنا أبو عبد الله بعض تلاميذه ، فقال له :

أحاجيك عبَّادٌ كزينبَ فى الورى
ولم تُؤْت إلاَّ من صديق وصاحب

---

(١) الأبيات فى معجم الأدباء ١٨/١٠٨

(٢) إنباه الرواة ٣/٨٥ والبيتان الأولان فى معجم الأدباء ١٨/١٠٨ والثلاثة الأخيرة فى مسالك الأبصار ٤ (المجلد الثالث) ص ٣٩٩

(٣) العمدة ١/٢١١ وعنه فى معجم الأدباء ١٨/١٠٩

فأجابه التلميذ بأن قال :

سأكتم حتى ما تحس مدامعى
بما انهلّ منها من دموع سواكب

فكان معكوس قول أبى عبد الله « عباد كزينب » : « سرك ذائع » فقال الآخر : « سأكتم » فأجابه على الظاهر إجابة حسنة ، ومعكوس « سأكتم » : « منك أتيت » فكأنه قابل به قول الشيخ : « ولم تؤت إلا من صديق وصاحب » . وهذا كله مليح » .

وقد أثنى على القزاز كثير من العلماء من معاصريه ، ومن جاء بعدهم ، فهذا تلميذه : الحسن بن رشيق ، يقول فى كتاب الأنموذج له : « إن القزاز فضح المتقدمين ، وقطع ألسنة المتأخرين ، وكان مهيبا عند الملوك والعلماء ، وخاصة الناس محبوبا عند العامة ، قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكا شديدا[1] » .

كما قال عنه الصفدى : « شيخ اللغة فى المغرب ، كان لغويا نحويا بارعا مهيبا عند الملوك[2] » .

وقال عنه الفيروزابادى (فى البلغة ٢١٤) : « كان إمام عصره لغة ونحوا وأدبا ، وجامعه شاهده » .

كما قال فيه ابن فضل الله العمرى وسجع له : « فاضل عزّ بالمعز ، وأعدّله منه معدّا أودى به إلى حرز ، وألف له كتبا ما سبق إلى طريقها . . . أكثرها فى النحو واللغة ، كان لها فى السوق نفاق ، وبحواصلها إنفاق ، اكتسب بسببها جملا ، واكتسى حللا ، وأجازه المعز مرة ثلاثمائة ألف درهم على كتاب فى النحو ، نحو ألف ورقة ، وأجرى عليه فى كل هلال بادرة للنفقة ، وحل فى صدر الدولة محل التكرمة ، وأثرى بنوء كل مكرمة[3] » .

وقد مدحه الشعراء ؛ فقال فيه يعلى ابن إبراهيم الأربسى :

نسجت شعاعا بيننا منها فبت
نا جمعنا من تحت ثوب مذهب
فمزجتها من فيه ثم شربتها
ولثمته برضاب ثغر أشنب

(١) انظر : وفيات الأعيان ٤/١٠ وإنباه الرواة ٣/٨٤ ومعجم الأدباء ١٨/١٠٥ والمحمدون من الشعراء ١٨٥ ومرآة الجنان ٣/٢٧

(٢) الوافى بالوفيات ٢/٣٠٤ وفى معجم الأدباء ١٨/١٠٥ وبغية الوعاة ١/٧١ : « كان إماما علامة قيما بعلوم العربية » .

(٣) مسالك الأبصار ١١ (المجلد الثانى) ٣٧٦ وانظر سجعا آخر له فيه فى المسالك ٤ (المجلد الثالث) ص ٣٩٩

في ليلة للدهر كانت غرّة
يرنو إليها الخطب كالمتعجّب
فتّ الأنام بها كما فتّ الورى
سبقا محمدٌ بالفخار الأغلب
أبداً على طرف السؤال جوابُه
فكأنما هو دفعةٌ من صيب
يغدو مساجله بغُرة صافح
ويروح معترفًا بذلّة مذنب
فالأبعد النائى عليه فى الذى
يفتر كالدانى إليه الأقرب

وكان القزاز معجبا بهذه الكلمة ، ويقول : «ما مُدِحتُ بأحب إلىّ منها»(1) .

* * *

وكان الغالب على القزاز القيروانى ، علم النحو واللغة ، والافتنان فى التأليف ، كما يقول القدماء (2) . ولقد ترك هذا العالم الجليل ثروة كبيرة من المؤلفات فى اللغة والنحو والأدب ، غير أن عوادى الزمن قد أتت عليها كلها ، فيما عدا ثلاثة ، من بينها هذا الكتاب البارع فى ضرورة الشعر ، الذى نقدمه هنا ، وسوف نتحدث عنه وعن نشرتيه بالتفصيل فيما بعد .

ونقدم فيما يلى قائمة بأسماء كتبه ، بعد أن جمعناها من المصادر المختلفة ، ورتبناها ترتيبا هجائيا ، ودللنا على المطبوع منها والمخطوط إن وجد :

١ ـ أبيات معان من شعر المتنبي : ذكر فى الوافى بالوفيات ٢ / ٣٠٥ وفى معجم الأدباء ١٨ / ١٠٩ : «أبيات معان فى شعر المتنبي» .

٢ ـ أدب السلطان والتأدب له : ذكر فى الوافى بالوفيات ٢ /٣٠٥ ومعجم الأدباء ١٨ / ١٠٩ وقالا عنه : «إنه عشر مجلدات» . ويسمى : «أدب السلطان» فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وهدية العارفين ٢ / ٦١

٣ ـ إعراب الدريدية : ذكر فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وقال عنه فى الوافى بالوفيات ٢/ ٣٠٥ ومعجم الأدباء ١٨/١٠٩ إنه «مجلد» . ولعله هو : «شرح مقصورة ابن دريد» الآتى بعد .

(1) انظر معجم الأدباء ١٠٥/١٨

(2) انظر : وفيات الأعيان ٩/٤ وإنباه الرواة ٨٤/٣ والمحمدون من الشعراء ١٨٥ ومرآة الجنان ٢٧/٣

٤ ــ التعريض والتصريح : ذكر فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وقال عنه فى الوافى بالوفيات ٢/ ٣٠٥ ومعجم الأُدباء ١٨/ ١٠٩ إنه «مجلد» . وسماه فى وفيات الأَعيان ٤ / ١٠ : «التعريض» .

وقال عنه : «ذكر فيه مادار بين الناس من المعاريض فى كلامهم» ، وأخذ هذا صاحب هدية العارفين ٢ / ٦١ فسماه : «التعريض فيما دار بين الناس من المعاريض» .

٥ ــ تفسير غريب البخارى : لم يذكر إلا فى البلغة للفيروزابادى ٢١٤

٦ ــ الجامع فى اللغة : ذكر فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وإشارة التعيين ٩١ والمزهر ١ / ٨٨ (لابن القزاز : تحريف) ؛ ١ / ٩٦ وقال عنه فى وفيات الأَعيان ٤ / ٩ إنه «من الكتب الكبار المختارة المشهورة» . وقال القفطى فى إنباه الرواة ٣ / ٨٦ : «وهو أكبر كتاب صنف فى هذا النوع ، ومنه نسخة فى وقف الفاضل عبد الرحيم بن على بالقاهرة المعزية» .

وقال عنه الصفدى فى الوافى بالوفيات ٢ / ٣٠٤ : «وهو كتاب كبير يقال إنه ما صنف مثله ، وفى وقف الفاضل بالقاهرة نسخة منه» . وقال ياقوت فى معجم الأُدباء ١٨ / ١٠٥ : «وهو كتاب كبير حسن متقن ، يقارب كتاب التهذيب لأَبى منصور الأَزهرى ، رتبه على حروف المعجم» . وفى كشف الظنون ٥٧٦ : «وهو كتاب معتبر ، لكنه قليل الوجود» . وفى البلغة للفيروزابادى ٢١٤ : «الجامع العديم النظير» .

٧ ــ الحروف فى النحو : ذكر فى وفيات الأَعيان ٤ / ٩ وإنباه الرواة ٣ / ٨٦ وفهرسة ابن خير ٣٦٣ وهو ألف ورقة ؛ وقد ألفه القزاز للمعز لدين الله الفاطمى ، أو لولده العزيز ، كما سبق أن ذكرنا ذلك . وقد أشار إليه مرتين فى كتابه : «ما يجوز للشاعر فى الضرورة» .

٨ ــ شرح رسالة البلاغة : ذكر فى الوافى بالوفيات ٢ / ٣٠٥ ومعجم الأُدباء ١٨ / ١٠٩ أنه «فى عدة مجلدات» .

٩ ــ شرح رسالة الشيخ أبى جعفر العدوى : ذكر فى هامش إنباه الرواة ٣ / ٨٦ عن هامش أصله . ولعله : «شرح رسالة البلاغة» السابق .

١٠ ــ شرح مثلثات قطرب : لم يذكر إلا فى هدية العارفين ٢ / ٦١

١١ ــ شرح مقصورة ابن دريد : ذكر فى إنباه الرواة ٣ / ٨٦ وهدية العارفين ٢ / ٦١ وكشف الظنون ١٨٠٨ ولعله : « إعراب الدريدية » السابق .

١٢ ــ الضاد والظاء : ذكر فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وكشف الظنون ١٥٣٤ وهدية العارفين ٢ / ٦١ وقال عنه فى معجم الأدباء ١٨ / ١٠٩ إنه « مجلد » . وسماه ابن خير فى فهرسته ٣٦٢ : « كتاب الظاء » ، وذكر أنه فى ثلاثة أجزاء ، وتحدث عن الطريق الذى رواه به هو وكتاب : « الحروف » السابق ؛ فقال : « كتاب الظاء من تأليف أبى عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، المعروف بالقزاز ، فى ثلاثة أجزاء ، وكتاب الحروف فى النحو من تأليفه أيضا ، حدثنى بهما أبو محمد بن عتاب رحمه الله ، عن أبى محمد مكى بن أبى طالب المقرىء ، عن أبى عبد الله محمد ابن جعفر النحوى ، مؤلفهما رحمه الله . قال أبو محمد مكى فى برنامجه : سمعت عليه كتاب الظاء من تأليفه ، فى ثلاثة أجزاء ، وسمعت عليه أكثر كتاب الحروف فى النحو . من تأليفه » .

١٣ ــ ضرائر الشعر : ذكر فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وهدية العارفين ٢ / ٦١ وكشف الظنون ١٠٨٥ وسماه فى معجم الأدباء ١٨ / ١٠٥ : « ما يجوز للشاعر استعماله فى ضرورة الشعر » وهو منشور فى تونس سنة ١٩٧١ بتحقيق « المنجى الكعبى » ثم نشره الدكتور محمد زغلول سلام والدكتور محمد مصطفى هدارة بالإسكندرية سنة ١٩٧٣ وسوف نفرد للحديث عن هذا الكتاب ونقد النشرتين مقالة قادمة إن شاء الله تعالى .

١٤ ــ العشرات فى اللغة : ذكر فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وهدية العارفين ٢/٦١ وقال عنه فى الوافى بالوفيات ٢ / ٣٠٥ : « ذكر اللفظة ومعانيها المترادفة ، ويزيد فى بعضها على العشرة . وقال فى آخره وعتيبها أجهز كتاب المثات » .

ومن الكتاب مخطوطة بمكتبة سليم أغا باستانبول . فى مجموع برقم ٢/٨٩٣ فى ٤٨ ورقة ، ومنها مصورة بمعهد المخطوطات ، التابع لجامعة الدول العربية برقم ١٧٤ لغة . كما ذكر بروكلمان

٣٤٥ / ٥ أن منه مخطوطة أخرى بدار الكتب المصرية ، وأشار إلى فهرس الدار ٢ / ٢٧) ، غير أن الذى فيه فى هذا الموضع هو : «كتاب الحلى» المطبوع ، ولا أثر فيه لكتاب العشرات . كما ذكر بروكلمان فى الموضع السابق كذلك أن الكتاب طبع فى صيدا سنة ١٣٤٠ هـ ولم نستطع التحقق من ذلك .

ومن الكتاب اقتباس فى خزانة الأدب ١ / ٦٥ نصه : «وفى كتاب العشرات تميمى فى المثل : تركه جوف حمار ، أى ليس فيه ما ينتفع به » .

١٥ — كتاب فيه ذكر شىء من الحلى : لم يذكره أحد ممن ترجموا له . وهو مطبوع نشره طاهر النعسانى وأحمد قدرى كيلانى بمطبعة العرفان فى صيدا سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م . وانظر بروكلمان ٥ / ٣٤٥ وصحح مافيه من تحريفات . ومن الكتاب مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٤٠١ لغة طلعت ، كتبت سنة ١٢٢٣ هـ .

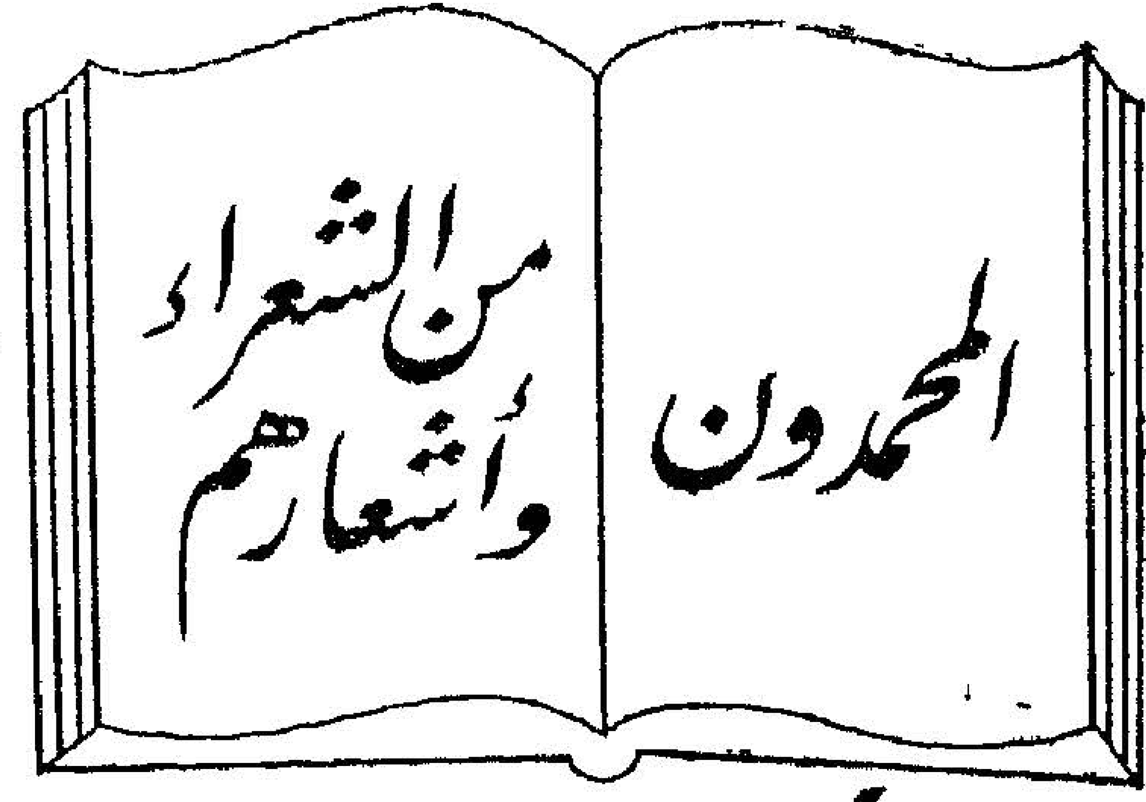
١٦ — ما أخذ على المتنبى من اللحن والغلط : ذكر فى معجم الأدباء ١٨ / ١٠٩ ويسمى : «ما أخذ على المتنبى» فى بغية الوعاة ١ / ٧١ وهدية العارفين ٢ / ٦١ والوافى بالوفيات ٢ / ٣٠٥

١٧ — المثلث : ذكر فى كشف الظنون ١٥٨٧ وذكر فى فهرسة ابن خير ٣٦٢ طريق وصول الكتاب إليه ، فقال : حدثنى به الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله ، عن الشيخ أبى عمرو عثمان ابن أبى بكر السفاقسى ، عن أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن جعفر النحوى ، عن أبيه مؤلفه . قال أبو محمد بن عتاب . وحدثنى به أيضا أبو محمد مكى بن أبى طالب ، المقرىء رحمه الله عن مؤلفه أبى عبد الله محمد بن جعفر رحمه الله » .

١٨ — المعترض : لم يذكر إلا فى هدية العارفين ٢ / ٦١

١٩ — المفترق فى النحو : لم يذكر إلا فى هدية العارفين ٢ / ٦١

رمضان عبد التواب



تأليف :
جمال الدين على بن يوسف القفطى

تحقيق : الأستاذ رياض عبدالحميد مراد
تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبدالغنى حسن

مؤلف

هذا الكتاب ليس جديدا علينا ، فقد لقيناه فى كتاب « إنباه الرواة » الذى حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، وفى كتابه الآخر : « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » كما عرفناه فى تصانيفه الكثيرة التى منها : « الذيل على الأنساب » للبلاذرى ، و « الإصلاح لما وقع من الخلل فى كتاب الصحاح » ، و «الدر الثمين فى أسماء المصنفين » ، و « الكلام على الجامع الصحيح للبخارى » و « نهزة الخاطر ، ونزهة الناظر »

ولقد أنصف محقق هذا الكتاب بالترجمة الوافية له فى مقدمة الكتاب ، وبهذا ظفرنا بترجمتين طيبتين لجمال الدين القفطى أولاهما للأستاذ محمد أبى الفضل أبراهيم وثانيتهما للأستاذ رياض عبدالحميد مراد محقق هذا الكتاب الذى نتناوله فى هذا التعريف .

وإذا كان المحققان قد التقيا فى كثير من وجوه الترجمة للقفطى فإنهما اختلفا حين أخذ كل منهما يعرف بالكتاب الذى حققه تعريفا شافيا وافيا .

والحق أن محقق « المحمدون من الشعراء وأشعارهم » قد وفى الكلام على المترجم لهم فى هذا الكتاب ، كما وفى الحديث عن القفطى وأسانيده وشيوخه ، ومصادر كتابه التى أخذ منها ونقل عنها ، وعن تحقيق نسبة الكتاب إلى القمطى ونقصه حيث انتهى عند حرف السين التالية للاسم الأول : محمد ، كما تحدث حديثا كان ضروريا عن طريقته فى تحقيق الكتاب ، وعرض منهجه فى التحقيق عرضا واضحا .

وقبل أن نمضى نحن فى الحديث على وجهه نود أن نقول إن الذين ترجموا للقفطى كثيرون ، فقد وردت ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ، ومعجم البلدان له أيضا — فى مادة جبلة — وتاريخ مختصر الدول لابن العبرى ، والطالع السعيد للأدفوى ، وسير أعلام النبلاء ، ومرآة الجنان لليافعى ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . والوافى

بالوفيات للصفدى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، وحسن المحاضرة له ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ، وهدية العارفين ، وأيضاح المكنون ، ودائرة المعارف الأسلامية . كما ترجم له اثنان من باحثينا المعاصرين وهما : الأستاذ محمد أبو الفضل أبراهيم فى مقدمته على إنباه الرواة ، والأستاذ رياض عبدالحميد مراد فى مقدمته لهذا الكتاب الذى نعرضه .

والقفطى منسوب إلى « قفط » من أعمال صعيد مصر ، ومن هنا أدخله الأدفوى فى كتابه : (الطالع السعيد) . وتقلبت به أحوال فى طلب العلم . وفى الرحلة والتنقل فى داخل مصر وفى خارجها ، وفى ملازمة العلماء المقيمين والواردين ، وفى العمل بديوان الأيوبيين ، وفى الانقطاع والانقباض عن الناس معتزلا فى داره أولا ومنتهيا إلى الوزارة آخرا إلى أن أدركته منيته سنة ٦٤٦ ﻫ

ونستطيع أن نعد كتاب القفطى هذا من كتب التراجم على طريقة الطبقات ... وإن كانت الطبقة هنا ليست مهنية ولا علمية ، وإنما هى طبقة الذين يلتقون فى الاسم الأول على لفظ (محمد) . ومن هنا لم تكن هذه الطبقة وقفا على قرن معين أو عصر معين وإنما اجتمع فيها كل من حمل اسم (محمد) فى أوله على مر العصور ، منذ القرن الأول للإسلام إلى القرن السابع الذى عاش فيه المؤلف شطرا قريبا من نصفه . فهو يضم تراجم المحمدين من الشعراء على مدى سبعة قرون تقريبا ، وينتقى من أشعارهم ما اتسعت له الرواية فى الكتاب .

وإذا كان اسم « محمد » هو موضع الاهتمام فى الترجمة لشعراء يتفقون فى هذا الاسم ويختلفون فى الأسماء التالية له من اسم الأب إلى اسم الجد فأن المؤلف القفطى قد راعى فى ترتيب الشعراء المترجم لهم أسماء الآباء وهى الأسماء التالية لاسم محمد . وإن كان لم يوفق فى الترتيب الهجائى فى بعض الأحوال كما فعل فى تقديم أحمد على إبراهيم . وكان الأولى أن يعكس لأن الباء فى إبراهيم قبل الحاء فى أحمد . وكما فعل فى تقديم محمد بن خلصة الشذونى الأندلسى على محمد بن الخضر التوخى المصرى . فإن الضاد فى الخضر تقتضى تقديم الشاعر على ابن خلصة حيث تأتى اللام بعد الضاد فى حروف الهجاء . ومن هنا صح لنا أن نتفق مع المحقق الفاضل حين قرر أن القفطى رتب تراجمه على أسماء آبائهم حسب التسلسل الألفبائى ملاحظا الحرف الأول فحسب . أما الحرفان الثانى والثالث فقد أهملهما إهمالا شديدا .

ونلاحظ كما لاحظ المحقق أن الترجمة للشعراء لا تأتى كل واحدة منها على قدر سواء . فبعضها يطول جدا . وبعضها يتجاوز فيه القصر حدا يدعو إلى الدهشة . كالترجمة لمحمد بن سلامة الكاتب المصرى . فقد بلغت ثلاثة أسطر يدخل فيها سطران للاستشهاد ببيتين من شعره . ومن التراجم

[illegible] جمة للشاعر الكاتب « المفجع [illegible] بلغت بضع عشرة صفحة، [illegible] أبيوردى فقد بلغت بضع [illegible] الترجمة للوأواء الدمشقى ، [illegible] محمد بن إدريس الشافعى ، [illegible] لشاعر الأنبارى ، ولمحمد بن [illegible] ، أما التراجم الموجزة [illegible] محمد بن بنهان، ومحمد بن أحمد [illegible] ومحمد الطبسى ، ومحمد بن عمر [illegible] بن أسماعيل بن يسار وغيرهم [illegible] إن قصر الترجمة وطولها يرجع [illegible] الشاعر وشهرته ، فهناك شعراء [illegible] ثم حظوا من المؤلف بالإطالة [illegible] حقهم ، كالشاعر محمد بن أسماعيل [illegible] المتقدم ذكره ، والمؤلف نفسه [illegible] فى أول الترجمة له بأنه (شاعر [illegible] اسمه فى الكتب) ومع هذا لم [illegible] القفطى إلا ببضعة أسطر ثلاثة منها [illegible] بشعره وكان حقه الإطالة والوقوف [illegible] . . ولكننا لا ندرى السبب فى [illegible] هكذا بين يدى المؤلف [illegible] حظوظ العجيبة أدركتهم فى الترجمة [illegible] ، كما أدركتهم فى حياتهم ، [illegible] ترجمة هذا، وقصرت ترجمة ذاك.

[illegible] فى كتابه هذا يعتمد على النقل [illegible] كثير من المصنفين العرب ، وهو [illegible] ينقل نقلا حرفيا لا يتصرف بعبارة من [illegible] نستطيع أن نرد أكثر تراجمه إلى [illegible] نقل منها . وقد كان صاحبنا محظوظا كل الحظ حين ازدحمت بين يديه وتحت عينيه المصادر فأخذ منها بلا هوادة ، وقد سبب له هذا الوقوع فى التكرار لبعض المترجم لهم ، كما فعل فى ترجمته للشاعر محمد بن الحسن البصري أبي يعلي الصوفى ، فقد أورده فى الترجمة المرقمة ٢١٤ ، ثم عاد فكرره بعبارات أخرى فى الترجمة المرقمة ٢١٩ ، وكأنهما لشخصين مختلفين مع أنهما لشخص واحد والمجال بين الترجمتين غير بعيد المدى فلا يزيد على أربع صفحات . . .

وقد بلغت المصادر التى نقل عنها القفطى خمسين مصدرا تتبعها المحقق الفاضل بالإحصاء وهو جهد طيب يضاف إلى الجهد الذى بذله المحقق ، حيث رتبها ترتيبا زمنيا وفق العصور من القرن الثالث الهجرى إلى القرن السابع ، ومن هذه الكتب : طبقات الشعراء لدعبل ، ، والإكليل للهمداني ، والحدائق للجيانى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، واليتيمة وتتمتها للثعالبى ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، ودمية القصر للباخرزى ، والدرر الخطيرة لابن القطاع ، والذخيرة لابن بسام ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والخريدة للعماد ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى .

وقد يذكر القفطى مصادره فى الترجمة للشعراء المحمدين ولكنه كثيرا ما يغفل ذكر المصادر . . وهو فى هذا ليس نسيج وحده . فقد جرت عادة أكثر المؤلفين العرب على هذا . وقد لاحظ عليه

المحقق أنه نقل ترجمة ابن عتاب الفقيه الشاعر عن معجم الشعراء للمرزباني ، ونقل ترجمة محمد الحوارى عن دمية القصر للباخرزى دون أن يشير إلى واحد من المصدرين .

وقد لوحظ أن كتاب « المحمدون من الشعراء وأشعارهم » . وأعنى الموجود منه فى المكتبات — لم يبلغ بأسماء آباء الشعراء المحمدين إلى نهاية حروف الهجاء — أعنى حرف الياء — ولكنه بلغ حرف السين حيث الترجمة لمحمد بن « سعيد » الرزاز البغدادى . فأين بقية الحروف بعد السين المهملة إلى آخر حروف الهجاء ؟ وقد أثار هذا النقص تساؤلات كثير من الناس . فهل أتم القفطى كتابه حتى حرف الياء ثم أضاع الزمان — فيما أضاع — بقية الكتاب من حرف السين إلى آخر حروف المعجم ؟ نحن أمام مشكلة تقتضى السؤال والفضول ، وخاصة أن القفطى فيما بين أيدينا من كتابه حتى حرف السين يحيل إلى حروف أخرى بعد السين التى بلغ عندها المطاف ، فيقول على سبيل المثال : (وقد أوردت ذكره فى باب الميم فى أسماء آباء المحمدين). ومعنى هذ أن ما بين حرف السين والميم فى آباء الشعراء مفقود . وبلغ التساؤل بالباحثين إلى حد أن ناسخ مخطوطة من الكتاب يعلل سبب النقص الذى صادفه فى أثناء النسخ قائلا : (هذا آخر ما وجدته بخط مصنفه ، لكنه أحال فى أوله على بعض حروف بعد هذا الحرف ، فما أدرى هل انخرم الكتاب أو أدركته المنية قبل تمامه ؟)

ويعلل المحقق لنا ذلك النقص بأن القفطى حين بدأ بالكتاب كان ينوى أن يتمه ولا يتوقف فيه ، ولذلك كان يحيل فى أوله على آخره أملا منه أن يحقق أمله : ولكن عودته إلى الوزارة قد شغلته عن إنجاز الكتاب ، ثم جاء الموت فصرفه عن العمل جملة — وكان يومئذ مشغولا بالوزارة — فمات والكتاب لم يتم تأليفه ، ولذلك جاء أبتر ناقصا :

ومهما يوجه إلى كتاب القفطى هذا من نقد فى النقل وما إليه ، فلا شك أنه صان لنا كثيرا من التراجم بعضها مدون فى كتب نقل عنها ، وبعضها لم يصل إلينا فى مخطوطاته التى كانت بين يدى القفطى فى ذلك الحين

وسواء أكان الشعر الذى ساقه المؤلف فى كتابه من استشهاده هو أم من استشهاد الذين نقل عنهم وأفاد منهم فإنه لا محيص من القول بأن الانتقاء فيه جيد ، والاختيار طيب . ولن نزحم هذا الفراغ المحدود بنقل نماذج من الشعر المستشهد به للشعراء الذين ترجم القفطى — أو تصدى — للترجمة لهم . إلا أن نماذج من شعر محمد المعصومى ص ١٠ وشعر محمد الأبيوردى ص ٤٥ ، وشعر المفجع ، وشعر الوأواء الدمشقى ، وشعر محمد الفروخى المكنى بأبى نصر ، وشعر محمد أبى العباس الكاتب ص ١٤٦ قد تصلح أن يشار إليها هنا ليرجع إليها القارىء الذى بين يديه نسخة من هذا الكتاب.

ولا بد هنا ونحن فى معرض الحديث عن الشعر المسوق فى هذا الكتاب أن نشير إلى تحقيق المحقق لهذا الشعر ، وتحقيق مدى نسبته لأصحابه .

ونأخذ مثالا على ذلك الأبيات التى تقول :

لا تعجبى يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى
لا تأخذوا بظلامتى أحدا
طرفى وقلبى فى دمى اشتركا

والتى أولها :

أين الشباب ؟ وأية سلكا
لا أين يطلب ؟ ضل بل هلكا

فقد نسبها المؤلف القفطى إلى محمد بن أحمد ابن هارون البردانى – فى الترجمة رقم ٢٣ صفحة ٥٦ – ولكن المحقق الفاضل يقول إن هذه الأبيات هى الأول والثانى والثامن من مقطعة تبلغ ثمانية أبيات تنسبها المصادر القديمة لدعبل على الخزاعى . فقد ورد الثانى والخامس فى الشعر والشعراء ص ٣٥ والأول فى نقد الشعر ، ص ١٦٦ والأول والثانى والسابع والثامن فى الأغانى ج ٢٠ ص ١٢٧ ، والأول والسابع والثامن فى « النجوم الزاهرة » ج٢ص ٣٢٣، والمقطعة كاملة فى شعر دعبل بن على الخزاعى صنعة الدكتور عبدالكريم الأشتر ص ١٦٠ .

ولعل ورود الأبيات الثلاثة فى كتاب القفطى يؤكد قضية اضطراب نسبة الشعر إلى الشعراء وهى قضية ما زلنا نعانى منها الكثير .

وفى كتاب « المحمدون من الشعراء » طرائف أدبية كثيرة ، ولعل أطرفها – فى نظرى – ما وقع فى شعر محمد الخباز البلدى من اقتباس للقرآن الكريم فى أكثر شعره . ووجه الطرافة أن هذا الشاعر كان أميا ولكنه كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، كما كان يحفظ كثيرا من أمثال العرب ، فأدخل كل ذلك فى شعره كقوله :

ألا إن أخوانى الذين عهدتهم
أفاعى رمال لا تقصر فى لسعى
ظننت بهم خيرا فلما بلوتهم
نزلت بوادى منهمو غير ذى زرع

وكقوله :

سار الحبيب وخلف القلبا
يبدى العزاء ويضمر الكربا
قد قلت إذ سار السفين بهم
والشوق ينهب مهجتى نهبا
لو أن لى عزا أصول به
لأخذت كل سفينة غصبا..

وإذا جاز لنا أن نعود إلى قضية الاضطراب فى نسب الشعر فإنا نلاحظ أن القفطى قد وقع له هو نفسه شىء من هذا ، فقد نسب إلى

الشاعر المفجع قوله فى غلام جدر فازداد حسنا ص ١٩ :

ياقمرا جدر حين استوى
فزاده حسنا وزادت هموم
كأنما غنى لشمس الضحى
فنقطته طربا بالنجوم

ثم جاء فى صفحة ٤٧٣ لينسب إلى الشاعر محمد بن السراج البغدادى هذين البيتين مع اختلاف يسير جدا فى الرواية ، حيث جاءا هنا هكذا :

ياقمرا جدر لما استوى
فزادنى حزنا وزادت همومى
أظنه غنى لشمس الضحى
فنقطته طربا بالنجوم ...

وبعد : فأظن أن هذا كله لن يشغلنا عن الجهد العظيم الذى بذله المحقق فى هذا الكتاب . وهو جهد يلاحظه القارئ من أول وهلة . وقد أضاف الأستاذ رياض مراد إلى جهده الفائق فى التحقيق والتخريج والتعليق جهدا آخر فى صناعة الفهارس ، فصنع فهرسين جليلين : أحدهما فهرس زمنى رتب فيه الشعراء وفق سنى وفاتهم ، لأنهم جاءوا فى متن الكتاب مرتبين وفق أسماء الآباء — بعد اسم محمد — ترتيبا هجائيا . وهذا الفهرس الزمنى يسد نقصا كبيرا فى الكتاب فات المؤلف ، حيث لم يذكر مواليد الشعراء ووفياتهم إلا نادرا ... فاستدرك المحقق على هذا النقص الكبير بعمل هذا الفهرس الزمنى . ويا ليته كان قد وضع وفيات الشعراء فى صلب الكتاب نفسه — أعنى فى الهوامش — بأدنى كل ترجمة ، حتى تقع عين القارئ عليها بأيسر نظرة إلى الهامش فى موضعها من النص . بدلا من الرجوع إلى الفهرس الذى يقطع سلك النظر . أما الفهرس الآخر الذى صنعه المحقق فهو فهرس مكانى للشعراء رتب فيه المترجم لهم على مناطق العالم العربى الأسلامى . فهناك شعراء الشام وشعراء العراق وشعراء العجم وشعراء مصر وشعراء المغرب وشعراء الأندلس ، وشعراء صقلية . وهو عمل جليل . لولا أننى كنت أرجو أن تأتى أمكنة الشعراء أو أوطانهم فى هوامش ترجماتهم مع ذكر وفياتهم ، جمعا للاثنين فى مكان واحد من صلب الكتاب ومتنه لا ذيله المفهرس .

وعلى الرغم مما بذله المحقق من جهد فى الكتاب وقعت فيه أخطاء مطبعية وأخرى غير مطبعية ، وقد تداركها فى ثبت بالتصويبات يقع فى ست صفحات كل صفحة منها تحتوى على جدولين مما يدل على أن أوهاما وأخطاء غير قليلة قد وقعت ، إلا أن أخطاء أخرى لم تذكر فى هذا الثبت ونحن مشيرون أليها ههنا .

ص٢٣ : ورد البيت الآتى هكذا بالضبط :

لو أعرض الناس كلهم فأبوا
لم ينقصوا رزقى الذى قسما

بضم الياء من الفعل : ينقصوا ، والصواب
فتحها لأنه فعل ثلاثى .

ص ٢٥ — السطر الثانى : فتطاول الناس .
الصواب : فتطال . إذ لا محل للتطاول هنا

ص ١١٦ — السطر التاسع : جاء قوله :
من الرمل) والصواب أنه من مجزوء
الرمل

ص ٢٥٤ — السطر الثانى : جاء البيت
هذا من الخفيف :

حين أحسن النحو فما فيه
معيب ولا به إزراء

والبيت هكذا مكسور فى شطره الأول
ولم أهتد إلى صوابه وإن كان جاء هكذا
فى معجم الأدباء

ص ٢٧٣ — السطر الثانى عشر : جاء
البيت الآتى هكذا :

وحتى هذه خلفتها
تكاد تحت الثوب تنسبك

والشطر الثانى مكسور ، وصوابه :
تحت الثياب بالجمع لا بالفرد

ص ٢٨٦ — السطر العاشر : جاء البيت
الآتى هكذا :

قلت لمن لام : لاتلمنى
كل امرئ عالم بشأنه

بوضع همزة على الألف لفظة : بشأنه ،
والصواب : بشانه من دون همز لأن
البيتين التاليين هما :

ما الذنب فيما علمت أنى
سجدت للقرد فى زمانه

من شدة النفس أن تراها
تحتمل الذل فى أوانه

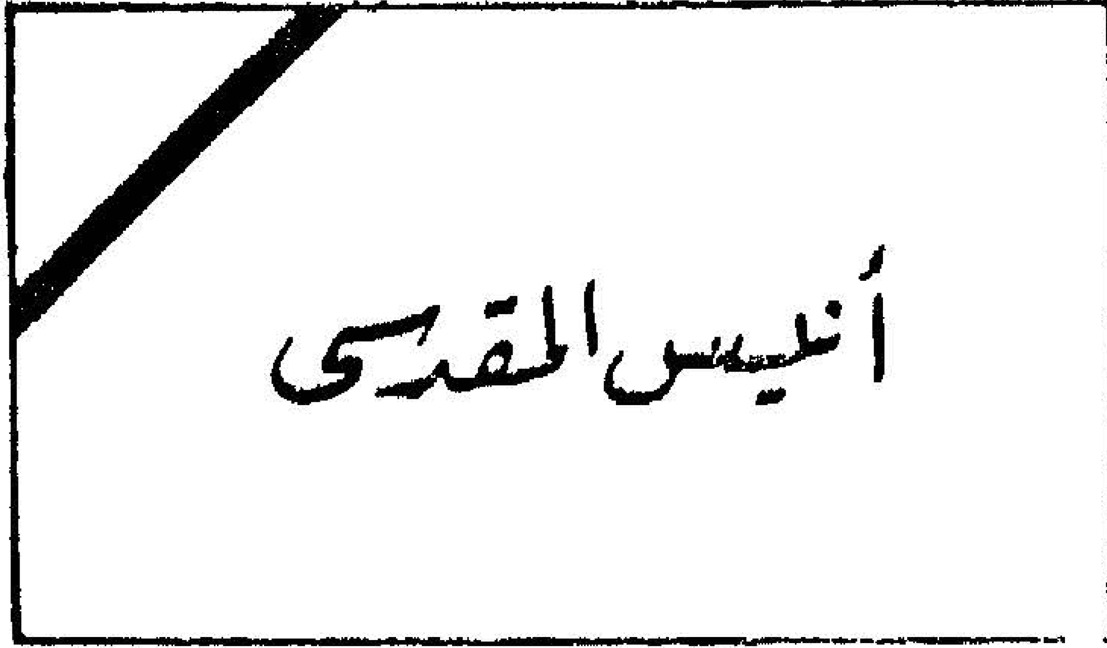
وبعد : فهذه هنوات ضئيلة قليلة جدا
لاتعيب هذا العمل الطيب الذى قام به
الأستاذ المحقق فى كتاب ألفه عالمنا وأديبنا
القفطى المصرى ، وأصدره مجمع اللغة العربية فى
دمشق فيما يصدره من ذخائر التراث العربى ،
وأخرجه فى مجلد ضخم يقع فى تسع
وخمسين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير .

ولعل هذه فرصة مواتية ، ونهزة
سانحة لتحية مجمع دمشق على ما يقوم
به من جهود قيمة مقدرة فى كشف الغطاء ،
ونفض الغبار عن تراثنا التأليفى العظيم .

محمد عبد الغنى حسن

فى الساعة الخامسة من مساء السبت ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٩٧هـ الموافق ٥ من مارس سنة ١٩٧٧ أقام المجمع بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع حفل تأبين المغفور له الأستاذ أنيس المقدسى عضو المجمع من لبنان .

وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :



كلمة الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المغفور له الأستاذ :

سيداتى . سادتى

لقد فقدنا شيخا جليلا ، من شيوخ الأدب واللغة، ورائدا من الرواد الأول هو الأستاذ أنيس المقدسى .

والموت نقاد على كفه
جواهر يختار منها الجياد

فقدناه قبيل مؤتمرنا ببضعة أيام ، وقد كان حريصا دائما على أن يشترك معنا فيه بنفسه ، أو بما يقدمه من بحث ودرس . حظينا بزمالته منذ عام ١٩٦١ ، وطوال خمس عشرة دورة من دوراتنا المتلاحقة لم يتخلف إلا عن دورة واحدة ، هى الدورة الأخيرة التى حالت أحداث لبنان الأليمة دونه والاشتراك فيها . ففى أربعة عشر مؤتمرا أسهم بأربعة عشر بحثا، فيها عمق ودقة، ورأى وتوجيه . والمقدسى باحث طويل النفس ، يصدر عن خبرة واسعة وزاد وفير ؛ فيفصل القول فيما يعرض له ، ويحلله ويؤيده بشواهد وأسانيد ، يستمسك بالماضى ويقيد بالحاضر ، ويؤاخى بينهما ، ويمهد بهما للمستقبل. وكان على شيخوخته وكبر سنه أميل إلى الابتكار والتجديد . وتكاد تنقسم بحوثه الأربعة عشر قسمة متعادلة بين الأدب واللغة .

ومن بحوثه الأدبية الموجهة محاولته ربط التاريخ بالأدب ، وهى محاولة ماأجدرنا أن نفيد منها ، وأن نتوسع فيها . وقد تخير لها مثلا رائعا ، هو « رسائل ابن الأثير » التى عاش معها زمنا طويلا وقد شاء بحق أن يستخلص منها قدرا من تاريخ الدولة الأيوبية السياسى والاجتماعى . وابن الأثير وثيق الصلة بالأيوبيين ومن أعرف الناس بأسرارهم ودخائلهم .

وللمقدسى دراسة أدبية أخرى وصفية وتحليلية عن الشعر الغنائى ، بواعثه فى الشرق والغرب فيما بين القرن التاسع والقرن العشرين . والشعر الغنائى من أوسع أبواب الشعر المعاصر ، وجدير بأن نقف عنده وأن ندرسه وزناً وقافيه ، هدفا وموضوعا.

وفى آخر حديث له معنا يعرض فى إسهاب « للشعر الحر » وهو من مستحدثات الأدب المعاصر وقد أدلى فيه بآراء إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن ابن التسعين يبدو أفسح صدرا ، وأقل تزمتا من ابن العشرين .

***

وأما بحوثه اللغوية فيعالج فى بعضها المولد والدخيل فى لغتنا المحلية ، وفى معاجمنا الحديثة ويبرهن على أن اللغات يأخذ بعضها عن بعض ، وقد أعطت العربية بقدر ما أخذت ؛ وفى بحث آخر مسهب يسجل المقدسى ما أخذته الإنجليزية عن العربية قديماً وحديثاً : ومتى يثبت لغة لفظاً أجنبياً أصبح ملكاً لها ، وتصرفت فيه تصرفها فى ألفاظها الأصلية .

وفى بحث طريف يعرض فقيدنا لأثر الزمن فى اللغة . وهو يرى أن اللغة ، وإن كانت ملكة إنسانية ، لا تخضع للإنسان وحده ، بل تؤثر فيها عوامل شتى ، أخصها الزمن تسير بسيره وتتطور بتطوره ، وقد فرقنا بين أدب جاهلى ، وأدب إسلامى ، وآخر عباسى ولا يقف تطور اللغة عند كسب ألفاظ وتعبيرات لم تكن معروفة ، بل الألفاظ نفسها تأخذ دلالات جديدة ونقلا عن ابن قتيبة ، يقدم المقدسى نماذج من ذلك ، كلفظ الطرب الذى كان يدل أصلا على خفة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو لشدة الجزع ، ثم قصر على الفرح ، وكلفظ « المأتم » الذى كان يدل على اجتماع النساء فى الخير والشر ، ثم أريد به المصيبة والوفاة لاغير . ولا شك فى أن المعاجم التاريخية تكشف عن تطور المدلولات على مر الزمن . ويرى المقدسى أن من الظلم أن ترمى العربية بالجمود ، وهى بالعكس حية ومتجددة ، متجددة فى ألفاظها وأساليبها ، متجددة فى معانيها ومدلولاتها .

والمقدسى ، وقد عاش معنا خمس عشرة سنة ، وقف على جهود مجمعنا وأسهم فيها ، ويرى أنها تدور حول بابين : الوضع والإنشاء فأخذ المجمع على عاتقه وضع معجم كبير ، يجمع بين دفتيه ما حوته أمهات المعاجم القديمة مضافاً إليها ما تولد على توالى الأجيال ، من ألفاظ اقتضاها تطور الزمن وتقدم العلوم وأساليب الحضارة فى العالم العربى ، وهذا عمل طويل النفس . وإلى جانبه معاجم فرعية لسد حاجات أهل العصر من أدباء وباحثين ، نذكر من بينها : «معجم ألفاظ القرآن الكريم، والمعجم الوسيط » .

- وأما الافتاء فى مسائل اللغة ومشاكلها ، فهو عند المقدسى أهم وأعون على تجديد حياة اللغة والسير بها إلى الأمام . وفى رأيه أن مهمة الإفتاء هذه لم تفت أعضاء المجمع فى كل عهد من عهوده؛ فهم يعنون بمشاكل اللغة وقواعدها . ويهتمون بما يتطلبه التقدم من تعديل بعض وجوهها ، أو إكمال نقصها .

***

هذه بعض جوانب أنيس المقدسى المجمعى والحديث فيها طويل . أما أنيس المقدسى الأديب والأستاذ والإنسان ، فيقول كلمة المجمع فيه زميلنا الدكتور عمر فروخ؛وهو فى الوقت نفسه تلميذه وزميله ، ويليه نجله الأستاذسمير المقدسى يقول كلمة الأسرة.جزى الله فقيدنا خير الجزاء عما قدم لأمته ولغته ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الدكتور عمر فروخ عضو المجمع من لبنان :

أنيس المقدسى أستاذا ومؤلفا وانسانا

ولد أنيس المقدسى فى طرابلس الشام (فى لبنان اليوم) فى نحو عام ١٨٨٠ . وقد ورد فى كتاب « المجمعيون » أن ولادته كانت فى عام ١٨٨٦ . وأما على نعشه فقد جعل عام ولادته ١٨٨٥ . والأصوب إذا نحن نظرنا إلى الأحداث الأولى من حياته أن نعتمد التاريخ الأقدم : ١٨٨٠ .

وبعد أن نال أنيس المقدسى شهادة — البكالوريوس ثم شهادة الماجستير من الكلية السورية الإنجيلية—الجامعة الأمريكية اليوم — فى بيروت ، عين عام ١٩٠٦ م مدرساً فى الدائرة الاستعدادية من الكلية السورية الإنجيلية نفسها . وفى عام ١٩١١ انتدب لتنظيم الدائرة العربية فى كلية أسيوط (فى القطر المصرى) . وفى نحو عام ١٩٢٣ أصبح رئيساً للدائرة العربية فى الجامعة الأمريكية ؛

وانتخب عام ١٩٤٥ ، عضواً فى المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ثم انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة عام ١٩٦١ ولقد استمر أستاذاً للغة العربية فى الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى أن بلغ السن القانونية رسمياً ، فتقاعد وأصبح أستاذ شرف .

ونال من جمعية أصدقاء الكتاب فى بيروت جائزة رئيس الجمهورية وهى جائزة سنوية تقديرية تمنحها الدولة اللبنانية بوساطة جمعية أصدقاء الكتاب لمؤلف لبنانى تميزت كتبه بالجودة، وهذه الجائزة تمنحها أعضاء الجمعية بالإجماع ؛ولا يقبل فيها التصويت بالكثرة أو بالغلبة .

وكانت وفاته يوم الخميس في السابع عشر من شهر شباط / فبراير من العام الجارى ١٩٧٧ . ولقد ظل نشاطه الجسمي ونشاطه الفكرى وافرين إلى أواخر أيامه وكثيراً ما كنت ألتقى به فى مكتبة الجامعة الأمريكية فى بيروت يراجع مصدراً أو يحقق كلمة أو يجمع مواد لكتاب جديد أو لمقال مفيد . وكنت إذا زرته فى بيته ألفيته مكباً على الكتاب بلا ملل . وبرغم القتال الذى دار فى لبنان — وفى بيروت خاصة — فى السنوات الثلاث الماضية ، فإنه لم يترك زيارة مكتبة الجامعة الأمريكية ، مع أن مكتبته الخاصة تضم مصادر وافية ومراجع كثيرة .

ولقد اخترت أن أتكلم على أنيس المقدسى من زوايا ثلاث : أستاذاً معلماً ومؤلفاً باحثاً وإنساناً رضياً .

لصلة الأستاذ بطلابه وجهان : سلطان العلم ورفقة فى طريق العلم . وكان أنيس المقدسى أباً لطلابه شفيقاً، ودليلا يشق لهم طريقاً، ثم يدعو كل واحد منهم إلى أن يطوى المسافة التى يستطيع طيها . فى عام ١٩٢٦ كنا ندرس عليه الشعر العباسى ، فعهد إلى نفر منا منذ مطلع العام الدراسى ، بأن يختار كل واحد منهم عدداً من القصائد لشاعر عباسى من أولئك الذين كان هو قد عزم على تدريس أشعارهم ؛ ولقد دخل بعض هذه القصائد فى كتابه « أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى » . وما كان أنيس المقدسى بحاجة إلى أن يساعده فى عمله ذلك تلاميذ لم تكن سن أكبرهم قد وافت يومذاك على العشرين . غير أن ذلك المسلك كان طريقة صحيحة من طرق التعليم : أن يحمل الطالب الجامعى تبعة ما يعمل،وأن يكون مقامه فى الجامعة — كما يقول ابن خلدون — مزيد كمال فى التعليم .

واقتصر نشاط أنيس المقدسى فى التأليف على تاريخ الأدب العربى ؛ له : كتاب «أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى » ، وهو كتاب يمتاز بالإيجاز فى استخراج الخصائص من النصوص من غير توسع فى أقوال النقاد ولا تبسط فى روايات مؤرخى الأدب من قدامى أو متأخرين .

وله كتاب « تطور الأساليب النثرية » صدر منه الجزء الأول ، وقف فيه عند الحريرى صاحب المقامات وعند أواخر القرن الخامس للهجرة . ولعل هذا الكتاب أحسن كتبه تمثيلا لجهوده فى البحث الأدبى . ولقد قال فى مقدمة هذا الكتاب إن الغرض من تأليفه كان « عرض الأساليب النثرية عرضاً يبين تطورها منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر » . غير أنه لم يعالج خصائص النثر الجاهلى إلا عرضاً . وقد احتج لذلك بقوله : « وما ذلك إلا لأن المواد النثرية التى هى بين أيدينا من العصر الجاهلى لاتسوغ لنا تناول ذلك بطريقة علمية . وأذكر أيضاً

أنه عالج النثر الإسلامى عامة بكثير من الحذر لاقتناعه بأن الطريق إلى النظر فيه وعر شائك. ولقد كان أشد حذراً لما عالج السجع فى القرآن الكريم . قال : إن السجع كان خاصة من خصائص النثر الجاهلى ، فى وروده فى القرآن الكريم — راجع إلى أن القرآن الكريم قد خاطب العرب بأساليبهم : ولا ريب عنده أيضاً فى أن كراهة سجع الكهان إنما كانت لكراهية الموضوعات والمعانى التى تناولها الكهان ، لا لكراهية ألفاظهم وأسلوبهم المسجوع :

ثم هو يرى أن النثر المطلق من السجع كان موجوداً فى الجاهلية . ودليله على ذلك آيات كثار من القرآن الكريم وردت غير مسجوعة لأن الأسلوب غير المسجوع أطوع لمعالجة أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية . السجع فى رأيه كان — عند الجاهليين — مقصوراً على التعبير عن العواطف الدينية والنظرات الأخلاقية :

ويفرق أنيس المقدسى رسائل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقين كبيرين : الرسائل التى تعالج قضايا دينية واجتماعية تتعلق بالقبائل التى دعاها الرسول إلى الإسلام أو عاهدها عهوداً موقتة أو عهوداً دائمة : وهذه عنده أيضاً لا يرقى إليها الشك . ولكنه اعتمد رأياً للمستشرقين فى النظر إلى الرسائل التى أملاها الرسول ليبعث بها إلى الملوك ، فقال إن الإسلام لم يكن قد بلغ بعد فى السنة السادسة للهجرة قوة سياسية أو عسكرية تجعل لتلك الرسائل سلطاناً عند أولئك الملوك :

ثم هو يرى أن أسلوب هذه الرسائل بعيد عن السجع قليلا أو كثيراً .

وعرف أنيس المقدسى مقالة تيودور نولدكه فى القرآن — وقد نشر فى الطبعة الحادية عشرة من دائرة المعارف البريطانية — وهو مقال واف سليم فى مجمله ، ولعل ذلك هو الذى حمل القائمين على دائرة المعارف البريطانية على حذفه من الطبعات التالية. وأورد أنيس المقدسى عددا من أحكام هذا المقال ، من ذلك مثلا أننا اليوم على ثقة من أن القرآن تام صحيح الرواية كما كان فى أيام محمد. وهذا قول كان مستكثرا على المستشرقين فى القرن الماضى. وتكلم أنيس المقدسى على بلاغة القرآن من حيث الاحتباك ودقة الإشارة، ومن حيث حسن الإيقاع وروعة الانتقال وجمال التمثيل . وقد أفاض فى إيراد الشواهد على ذلك كله من الآيات الكريمة .

ونقد أنيس المقدسى رأى نولدكه ؛ وكان متولدكه قد زعم أن فى القصص القرآنى إخلالا يمنع القارئ الأجنبى من اجتلاء الوجه الكامل للقصة . فقال فى نقد ذلك :

« من الإنصاف هنا أن نقول: إن نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب إليه من نقد الأسلوب القرآنى (يعنى فى القصص)، إذن لا يجوز مقابلة هذا الأسلوب بأسلوب القصة فى التوراة ؛ ففى التوراة حوادث تاريخية تجرى فيها الأخبار مجراها الطبيعى. أما القصص فى

القرآن فحملات روحية لايقصد بها تسلسل الخبر ، ولكن تستخدم فيه القصة تذكيرا وتهويلا ... وترد (القصة) مرارا بحسب مايقتضيه الكلام ، وكثيرا ماتروى على سبيل الإشارة والتلميح » .

وله « الاتجاهات الأدبية فى النهضة العربية الحديثه» استعرض فيه أثر الحركات القومية والوطنيه والدينية فى الشعر الحديث خاصة مع شئ من التبسط فى بعض الأحيان . ثم إن له«الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضةالحديثة» وهو — فى الغالب — دراسة تطبيقية موسعة لكتاب « الاتجاهات الحديثه » .

وله أيضا «المختارات السائرة» وهو مجموع قصائد من العصر القديم ومن الأعصر المتأخرة هذه القصائدكانت قد اشتهرت وسارت على الألسن . ولاريب فى أن بقاءها على ألسنة الأدباء والمتأدبين دليل على قيمتها الذاتية وعلى براعة التعبير فيها.أما فائدة جمعها فى دفتر واحد فراجعة إلى أن العرب اليوم أيضا بحاجة إلى المثل العليا التى تنطوى عليها هذه القصائد وإلى حسن التذوق الأدبى الذى تربيه هذه القصائد فى نفوس الدارسين .

ونشر ديوان ابن الساعاتى،ونشر رسائل ضياء الدين بن الأثير . ومع أن هذا النشر كان قليل الحواشى بخلاف ماكان جمهور الناشرين قد ألفه فى هذا الشأن؛فإنه قدّم فى هذين النشرين أثرين مهمين من تراثنا العربى

وإذا كان التأليف — كما قال العالم الرياضى أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى — ثلاثه أنواع : تأليف ابتكار ، وتأليف تصحيح وتأليف تتميم ، فإن تآليف أنيس المقدسى تقع فى الفن الثالث من التأليف : فى التتميم مع حسن التقسيم ووضوح العرض .

وعانى أنيس المقدسى فى النصف الأول من حياته نظم الشعر ، وعانى أيضا التأليف القصصى ؛ نظم فى جوانب الحياة الوجدانية والخلقية والوطنية ، وله ديوان لايزال مخطوطا ونقل ملحمة للشاعر الإنكليزى ألفرد تنيسون عنوانها «الذكرى» وجعلها شعرا عربيا ومن قصصه قصة عنوانها « إلى الحمراء » .

ولكن سرعان ماالتفت عن الشعر إلى النثر فاختط فيه مسلكا ممهدا لاتكلف فيه ولاتأنق بل سهولة ووضوح ومنطق. لقد كان أسلوبه وسيلته الوحيدة إلى التعبير عن آرائه وإلى عرض الأغراض المختلفة فى نطاق من الإيجاز ومن السرد الدقيق الوافى .

وأما مقالاته خاصة فقد التفت فيها — فى الحين بعد الحين — إلى الموازنة والمقارنة ، وخصوصا فيما يتعلق بالمفردات العربية التى تتصل باللغة الأجنبية أو بالمفردات الأجنبية التى تتصل باللغة العربية ؛ فمن بحوثه فى دورات مجمع اللغة العربية : تحقيق لما فى الإنكليزية من الأصول العربية — الدخيل فى لغتنا العربية ودلالته — المولد فى معاجمنا الحديثة .

وكان آخر البحوث له فى مجمع اللغة العربية «الحركة الانقلابية الأخيرة فى نظام الشعر العربى» استعرض فيه أوجها من التطور فى الأسلوب الشعرى، عند أبى نواس وأبى تمام والمتنبى والمعرى — من حيث الإيغال فى تطلب المعانى ثم جعل هذا الاستعراض مدخلا إلى الكلام على الشعر الحر فى العصر الحديث، ثم أنه لما جاء إلى تقويم هذا الشعر قال :

« ولست أنا من دعاة هذا الشعر أو من الضاربين بسهم فيه ، وقد نشأت فى جو غير جوه؛ وشاركت أول اطلاعى عليه المتنكرين له، لكن ذلك لم يدخل دون رغبتى فى مواصلة الاطلاع لأتفهم ولاتعرف الدوافع التى حملت أربابه على التحول عن الأصالة الشعرية التى عرفناها فى الأدب الحديث .

غير أنه لم يحكم لهذا الشعر ولاحكم عليه بل اختار أن يترك الحكم الفصل عليه للزمن .

***

عرفت أنيسا المقدسى ثلاثة وخمسين عاما أستاذا لى ثم صديقا. فى هذه المدة الطويلة التى لم تنقطع صلتنا فى أثنائها قط . ماعلمت عليه من تبديل فى اتجاهه فى الحياة : فلا منصبه فى الجامعة الأميركية فى بيروت صرفه عن الإنصاف مااستطاع ، ولاصراع الأهواء فى لبنان حمله على أن يغمس قلمه أو لسانه فيما كان يمكن أن يجلب له حب قوم آخرين . إنه لوشاء لفعل ولنال على ذلك حظا من الدنيا ومغانم كثيرة .

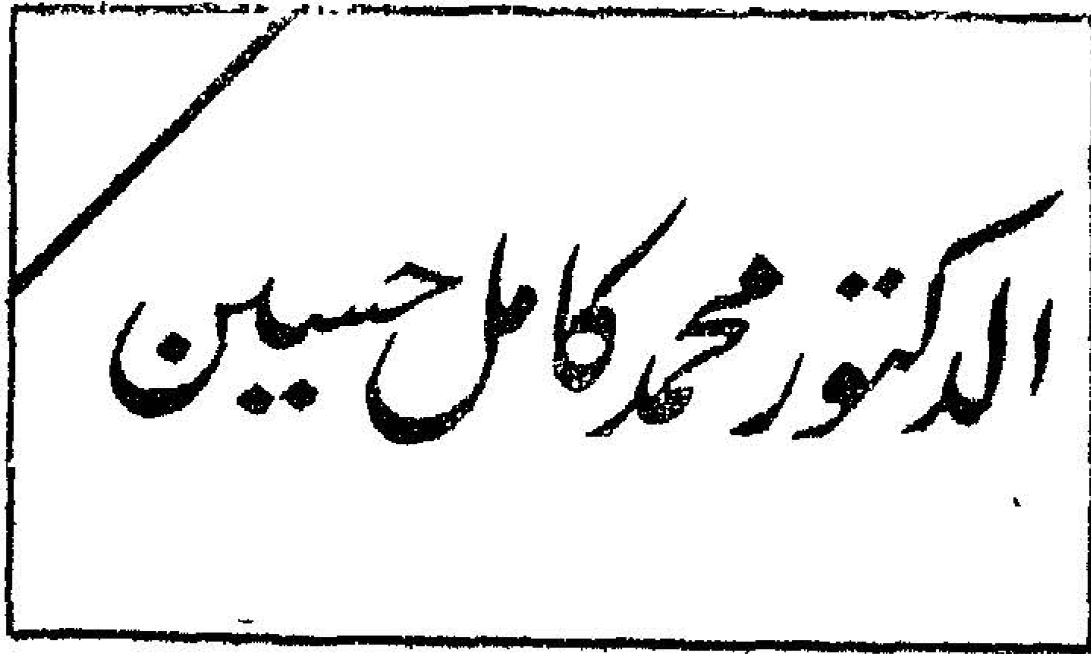
وكان كثيرا لتواضع رضى النفس لايدخل فى جدال ولايحمل حقداً لأحد، ثم لم يكن لجميع زخرف الدنيا عنده قيمه فى جنب مقال يكتبه ليرضى به نفسه، أو ليكشف فيه عن خاصة ثقافية فى حياة العرب ، ثم إنه كان وطيد الإيمان بالله عظيم الثقة بالعلم شديد الإعجاب بمكانة هذا الإنسان فى هذا العالم الفسيح. كنا مرة فى الطائرة فالتفت إلى يقول : لولا الإيمان بالله والثقة بالعلم لما اطمأن أحد إلى أن يستقل طائرة.

وسمع أنيس المقدسى من أنداده وممن هم دونه نقداً ملفوظا ومكتوبا — وكان قد سمع مثل ذلك كثيرون غيره.— غير أن ذلك كله لم يبدل فيه هو شيئا مما كانت نفسه قد اطمأنت به ، فى حفلة من حفلات الأنس فى الجامعة الأمريكية كان فى البرنامج مشاهد يقلد فيها الطلاب أساتذتهم، ونال الأستاذ أنيسا طرف من ذلك فلم يكن منه إلا شىء من العتاب الرقيق — بعد الحفلة — وإلا كلمات من النصح الكريم ثم نسيان لكل ماكان . وكان لنا جميعا من ذلك درس بليغ . إن الغاية من التعليم ليست نقل مفردات المعارف من شخص إلى شخص ؛ وإنما هى بناء الفرد الصالح بجلاء نفسه جلاء يمكنها من أن تعكس جميع مايواجهها من مظاهر الوجود، هذا مع الإيقان بأن الذى يجلو مرآة لايستطيع فى كثير من الأحيان — أن يجتلى هو نفسه عدداً من تلك المظاهر التى تعكسها تلك المرآة الجامدة التى كان قد صنعها هو بيده .

فى الساعة الخامسة من مساء الخميس ١٠ من جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٨ من أبريل ١٩٧٧ أقام المجمع بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع حفل تأبين المرحوم الدكتور محمد كامل حسين عضو المجمع .

وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع فى تأبين المرحوم :



كامل حسين الأديب

سيداتى سادتى :

رحم الله كامل حسين بين الخالدين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ، ورحمه بين الأصدقاء الأوفياء . ولقد عرفته منذ نصف قرن أو يزيد ، وعرفته أديبا قبل أن أعرفه عالماً وطبيباً . وهذه هى الناحية التى أود أن أقف عندها قليلا ، وعرفته من خلال صحيفة أحدثت ما أحدثت من حركة فى حياتنا الأدبية والفكرية ، وأعنى بها « السياسة الأسبوعية » ، كان يسهم فيها مع قادة النهضة الأدبية المعاصرة حين ذاك . أمثال الدكتور هيكل وطه حسين . واختار لنفسه اسما مستعاراً هو « ابن سينا » ، وسألت عن « ابن سينا » القرن العشرين ، فقيل لى إنه طبيب شاب حصل على بكالوريوس الطب لما يجاوز الثانية والعشرين ، وما إن أمضى سنتى الامتياز بطب القاهرة حتى أوفد فى بعثة إلى إنجلتره ، ومن هناك كان يراسل « السياسة الأسبوعية » وينشر فيها بواكير إنتاجه الأدبى ، ولم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة ، بل امتدت إلى « اللغة » والبحوث الأدبية ، ولو سمى نفسه « ابن المقفع » ، أو « عبد الحميد » ما عز عليه .

وجمعتنى وإياه مجالس لطفى السيد ، وكم كانت ملأى بالأدب والحكمة ، بالعلم والفلسفة ، بالتوجيه والإصلاح . وتمر بنا أمور لها شأنها ، وقل أن نفكر فى تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضى وعدد المستقبل . وما أشبه مجالس لطفى السيد بمجالس

« الإمتاع والمؤانسة » ، وإن لم تجد بين المعاصرين من يعنى بها ، كما صنع أبو حيان التوحيدى : وكان صوت كامل حسين فى هذا المجلس مسموعا ، وكلامه عذبا — وتعليقه واضحاً ونقده سمحاً . وكان يعرف منزلته بين العلماء والأطباء ، ومع هذا كان حديثه فى تلك المجالس يدور غالباً حول الأدب واللغة والإصلاح والتجديد. ولا أزال أذكر مجلساً منها عقد بقاعة لطفى السيد فى نادى محمد على — نادى التحرير اليوم — على أثر ظهور قصة أديبنا الخالدة : « قرية ظالمة » ، وكان بين من شهدوا هذا المجلس عبد الحميد بدوى ، وبهى الدين بركات . وما كان أشبهه بحفل تكريم منه بمحاكمة أدبية ، وإن لم يخل من تندر رفيق وخشية وتوجس من أن تثير القصة بعض رجال الدين ، وقد سبق للحاضرين جميعاً أن قرءوها ، وقدروها قدرها ، وكأنهم كانوا يتوقعون ما ستحظى به من إعجاب وتقدير لدى كبار الكتاب والمثقفين .

وتوثقت صلتى به يوم أن اختير عضواً بمجمع اللغة العربية عام ٥٢ ، وسعدت باستقباله وقلت فيه حين ذلك : « قل أن نجد من يقبل على الثقافة إقباله ، ويحب القراءة حبه ؛ فلا تكاد تذهب إلى محاضرة عامة فى علم أو أدب أو فلسفة ، إلا وتراه فى مقدمة المستمعين . ولا يكاد يظهر كتاب قيم فى العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية إلا ويسارع إلى قراءته : وكم ساءلت نفسى كيف يوفق صاحبنا بين هذا وبين أعبائه المتعددة ، فى درسه ، وفى عيادته الخاصة ، وفى سهره على مرضاه فى منازلهم أو فى المستشفيات » .

ولم تقف قراءة كامل حسين عند الحديث والمعاصر ، بل أبى إلا أن يجمع بين الماضى والحاضر : ودون أن أعرض لإلمامه الواسع بالثقافات العالمية الكبرى . أحب أن أشير إلى تمكنه من الثقافة العربية . عرف أصولها وأحاط بشتى جوانبها درسها فى عمق وسعة ، وكون فيها رأيه الخاص . ولا أظن أن من بين أقرانه من عنى بقراءة « المغنى » « والتصريح » فى النحو ، أو من فتش كثيراً فى « القاموس » « واللسان » من كتب اللغة ؟

أما الأدب فله فيه درس وبحث ، ونقد وتعليق ، وحكم ورأى ، وقد وقف طويلا عند المتنبى وأبى العلاء ، وكشف فى مجمع الخالدين عن حسه اللغوى وذوقه الأدبى .

* * *

والواقع أن كامل حسين يؤمن إيماناً جازماً بأن العربية لغة حية ، كفيلة بأن تؤدى رسالة العلم والحضارة اليوم كما أدتها بالأمس ، وحياة كل لغة بحياة أهلها ، فهم الذين يستطيعون أن يغذوها وينموها ، أن يلائموا بينها وبين حاجات العصر ومقتضياته . هى أداة أساسية من أدوات التفاهم والتبادل ،

يملكها أصحابها ، ومن العبث أن تملكهم أو أن تتحكم فيهم . وهى ملكية عامة شائعة بين الجميع ولا يقبل اليوم بحال أن تقصر على الخاصة أو على طبقة بعينها . وانظروا الحارة التى استقبل بها عام ١٩٤٢ . في « دعاء الكروان » إذ يقول : « آمل أن أرى يوماً هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ودون أن تفقد من رونقها شيئاً ، إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف معين » .

يلمس أديبنا الصراع بين العربية والعامية . ويراه دوراً من أدوار التطور فى حياة اللغة ، وعلينا أن نواجهه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتيسير العربية على الناس كتابة ، وقراءة وتعلماً . وبهذا تحيا وتنشر ، ويقبل عليها النشء ، وإلا عز عليه أمرها ، واستبدل بها وسائل تعبير أخرى ، ويسهم كامل حسين فى هذا التيسير إسهاماً جاداً ، فيعرض للإملاء ورسم الحروف مقترحاً طريقة لكتابة الهمزة ، وأخرى لرسم الكلمات الأجنبية .

ولفت نظره مافى بعض قواعد النحو من غموض أو تعقيد ، واستوقفه بوجه خاص جنس العدد ، وما يستلزمه من تذكير أو تأنيث للفظ العدد نفسه . ورأى أن ييسر ذلك بإبقاء اسم العدد على حالة دائماً ، مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف « من » فيقال دون تفرقة : خمسة من الرجال وخمسة من النساء . ويذهب بوجه عام إلى أن فى النحو توسعاً وفلسفة ، إن لاءمت الخاصة فإنها لاتلائم العامة ، ولا بد أن تيسر تعليمه على الناشئين .

وهذا أمر فكرت فيه وزارة المعارف قديماً ووزارة التربية والتعليم اليوم ، فكرت فيه على يد مصلح آخر هو المرحوم بهى الدين بركات ، واقترحت نحواً مدرسياً ميسراً ، وتركت للمتخصصين أن يدرسوا فلسفة النحو ما وسعهم . وعرض هذا الاقتراح على مجمع اللغة العربية ، وأقره فى تعديل يسير . ولم يفت أديبنا أن يدلى بدلوه فى هذا التيسير ، واقترح ماسماه « النحو المعقول » وبسط قواعده بالقدر الذى ارتضاه .

وكتب اللغة فى رأيه تحتاج إلى تعديل وتنقيح ، فتكتب بروح العصر وفى ضوء التقدم العلمى الحديث ، وتستبعد منها المماحكات اللفظية ، والتعليلات السطحية . ونحن باختصار فى حاجة ماسة إلى معجم حديث مصفى ، حديث فى اختيار ألفاظه ، حديث فى تحديد معانيه . لا يذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد للفظ الواحد ، ولا يقبل فيه إلا صيغة واحدة للكلمة . وإلا مصدر واحد للفعل ، وإلا جمع واحد للاسم وتشرح فيه الألفاظ شرحاً دقيقاً واضحاً ، يتمشى مع ما انتهى إليه العلم الحديث .

***

يقدر كامل حسين العربية قدرها ، ويعتز بها ، ويريد لها أن تستعيد مجدها وأن تصبح لغة العلم والفن ، وأن تؤدى رسالتها على أكمل وجه ، وأن تأخذ مكانتها بين اللغات العالمية الكبرى . ينقد بعض جوانبها ، ولكنه نقد بناء يرمى إلى الإصلاح والتجديد ، وليس ثمة لغة لامأخذ عليها . وحسه الأدبي لايقل عن حسه اللغوى. درس الأدب العربي درساً عميقاً ، وحاول أن يطبق عليه المنهج المقارن ، فيقارن أدباء العربية بعضهم ببعض ويقارنهم ببعض الأدباء العالميين . وفي المقارنة تشويق وفتح لأبواب مغلقة .

ولعله لايسلم بنظرية التحليل النفسى (سيكلوجيا) ، ولكنه لا يرفض أن يطبقها فى دراساته الأدبية . فهو يرى مثلا أن ما فى شعر المتنبى من غموض وتعقيد أحياناً إنما يرجع إلى ماصادفه من خيبة وفشل ، ذلك لأن هذا الشاعر الكبير الذى شغل الدنيا وملأ الاسماع لم يحقق شيئاً من أهدافه السياسية والاجتماعية ، فشاء أن يتخيل فى شعره مشاكل وصعوبات يحاول تذليلها ، فينجح هنا بعد أن فشل هناك . ونقائض الفرزدق . وقوله الفاحش ، وهجاؤه المقذع حتى لنفسه وأهله ربما كان وليد ضعف وقصور فى الشخصية .

وبعكس هذا سما فى رأيه أدب أبى العلاء بسمو شخصيته ، وهو عنده أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقه تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء . حقاً إن نثره وشعره لم يخلوا من مآخذه ، ففى سجعه ضعف وتكلف أحياناً ، وفى شعره تشبيهات غامضة ، وفى معانيه تكرار ، وفى تعبيراته إسراف فى بيان ثروته اللغوية . . ومع ذلك يعد إنتاجه من الأدب الرفيع ، لصدقه وقوة تعبيره وأدبه فى الواقع هو كل حياته عاش فيه وله ، وعن طريق اللغة عرف الحياة كلها ، ولا غرابة إذن أن تطغى هذه اللغة على نثره وشعره .

***

وكامل حسين أديب موضوعى يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها ويتخير أوثقها ، يهذبها وينسقها بحيث تبدو جليلة واضحة . وقد مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألواناً شتى : فى الأدب والتاريخ ، فى العلم والفلسفة . وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها بعضها ببعض ؛ ففى علم النفس ما يوضح بعض المشاكل الأدبية ، والتاريخ وثيق الصلة بعلم الاجتماع والسياسة ، وكثيرا ما تقود الدراسات الطبيعية إلى ضرب من الميتافيزيقا .

ويترجم لبعض الشخصيات المعاصرة ، فيقف عند أبرز المعالم وأوضح الصفات فلطفى السيد فى رأيه أرسطى صادق فى أرسطيته ولا غرابة فوجوه الشبه بين الرجلين كثيرة : «كلاهما معلم وكلاهما شديد العناية بالكليات

عناية فائقة . وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق والبحث ، يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية». والدكتور على إبراهيم بنّاء ، « شيّد كثيراً ، وكأنما عاهد نفسه على ألا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيها فى مصر . وكان يرى أن ينشىء أولا ، وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتمم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ وعلى الزمن أن يستكمل النقص » .

وكامل حسين ناثر ، ولم أر له إلا قصيدة واحدة تحت عنوان : « لقمان والمريض »

وهى من شعر الشباب ، وأرجح أنها لم ترقه وترك الشعر جانباً . ونثره نثر رقة وحضارة ، سهل واضح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ولا التعبير المعقد . أسلوب مطرد لا علو فيه ولا انخفاض ، حلو عذب يستمد عذوبته من رقة صاحبه ودماثة خلقه ، يقرب الأفكار البعيدة ، وييسر البرهنة الدقيقة بمقت الصناعة اللفظية والجمل الطنانة ويكره السجع والتكرار ، كان معجباً بالفكر المستقيم ، ويعده أكبر نعمة وأكبر لذة فى الحياة ، والفكر المستقيم يؤدى عادة إلى تعبير مستقيم . رحم الله كامل حسين رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء .

●●كلمة الدكتور أحمد عمار نائب رئيس المجمع :

أيها السادة :

عجباً لريب المنون من حتم مجاب . نفزع منه فى أنفسنا ونحن نعلم أن كل نفس فى وريديها رداها ، ونجزع له أن تمثلنا فيمن نعز ، وإن كنا نؤمن بأن لكل أجل كتابا . وأعجب ما فى هذا الموت أن له دهشة الفجأة مهما يتكرر ، وأن وراءه جدة اللوعة . وإن كان متوقعاً صباح مساء ، ومن غرة الحياة للأحياء أن يتعلق بها الحى كأنما هو معها غير مفارق ، وهى مهما تطل ، ظل منتقل ، باطل وقبض الريح ، دولة بين راحل ومقيم

لايلبث القرنـاء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار

سبحانك اللهم واهب الحياة ، جعلت النفس فيها جد راغبة ، وأنهيت إلينا على لسان رسولك الكريم حديثك : « قال الله للنفس : اخرجى . قالت : لا . قال ؛ اخرجى وأنت كارهة » . كذلك مضت سنة الكون ، للموت نحيا ، وللحياة نموت . وقديماً تضمنت حكمة الشعر وصف الدنيا فى قول أبى الطيب :

تملكها الآتى تملك سالب
وفارقها الماضى فراق سليب

بالأمس القريب فقدنا أخاً ما كان أحبه إلينا ، وأعزه علينا الصديق الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، فانقطع عنا بفقده ما ألفناه من صحبة كرمت وصفت ، وكنا نزداد على امتدادها أنساً بها ، وحرصاً عليها ، فوجدنا لفقده من الفجيعة أحرّ ماتكون ، وشعرنا بأن مكانه بيننا قدخلا ، لتغمره الوحشة القاسية ، ولتمتلئ نفوسنا عليه حسرات . فيا أيها الصديق :

إنا إلى الله راجعون لقد
أصبح حزنى عليك ألواناً

حزن اشتياق وحزن مرزئة
إذا انقضى عاد كالذى كانا

أيها السادة :

ماتهيبت موقفاً فى جمع ، ولا مقاماً من من مقامات القول ، كما تهيبت هذا الموقف الذى ندبت إليه ، وذلك المقام الذى حملت عليه . وكان مرد هذا التهيب عندى إلى أمور :

أولها : قرب العهد بفقد الراحل العزيز والنفس ملأى حزناً عليه ، وشغلا بالأسى لفقده ، ولا يجزى فى موقف التأبين تفجع وحنين ، ولا تعبير عما يكمن فى الجوانح من شجو والتياع .

وثانيها : أن الراحل العزيز شخصية تتعدد جوانبها . فهو من العلم بالمكان الملحوظ ، ومنزلته من الأدب فى الصميم ، ومكانه من الفكر فى الصف الأول من قادة الرأى ، ثم هو فى مجال الإصلاح القومى بين أقطاب الدعاة إلى التطور والتجديد . وأنه مع ذلك كله بين الأطباء يتسنم الذروة التى تتقاصر دونها العزائم والهمم .

وثالثها : أن الإلمام بهذه الشخصية المتعددة الجوانب لايكفى فيه مجرد التعريف العابر ، والسرد الموجز . فلابد أن ينبسط البيان فيه حتى تتبين وجوه التحليل والتفصيل وهيهات لذلك أن يتسنى فى خطاب ساعة أو بعض ساعة .

ولكنى فى طاعة الواجب الملقى على أمتثل : ولعل فى هذا الامتثال ما يقيم عذرى من قصور أو تقصير .

أيها السادة :

العصر الذى عاش فيه الدكتور محمد كامل حسين يمثل مرحلة دقيقة من مراحل النهضة الحديثة فى مصر ؛ إذ حفل هذا العصر بجملة من الدعوات إلى الانبعاث العلمى والتقدم الحضارى ، لملاحقة الركب الماضى إلى أمام . ولكأنما الأقدار قد هيأت للدكتور محمد كامل حسين أن تمثل فيه عصارة تلك الحقبة بأفضل ما فيها من قيم ومثل وأهداف . وماكان له أن يبلغ هذا الشأو منها لولا ما أتيح له من المواهب العقلية . تلك المواهب التى جعلت منه فريدا فى البحث العلمى : والتوجيه الاجتماعى .

ولد الدكتور محمد كامل حسين فى مستهل القرن العشرين . ولما أتم دراسته الطبية فى نبعة الصبا أوفد إلى إنجلترا ، فلبث خمس سنين . وظفر بزمالة كلية الجراحين الملكية ، واختص بجراحة العظام ، وعاد إلى كلية الطب ، حتى صار أستاذا بها . ثم كان أول مدير لجامعة إبراهيم التى سميت فيما بعد عين شمس ؛ وظل مستشارا لمستشفى الهلال الأحمر نحو أربعين سنة . كما كان رئيسا للجمعية المصرية لجراحة العظام ، وعضوا مراسلا لأكاديمية الجراحة فى باريس ، وعضواً فى الجمعية الدولية لجراحة العظام . ورئيسا للمجمع العلمى المصرى ، وعضواً فى مجمع اللغة العربية ، وفى مجلس الجامعات الأعلى ، وفى مجلس البحوث البحوث العلمية ، وفى المجلس الأعلى للفنون و الآداب ، وفى أكاديمية البحث العلمى . وكان منشىء أول قسم لجراحة العظام فى الجامعات ، وفى هذا القسم تخرجت أفواج المتخصصين .

وإلى جانب هذه المهام الجسام كان للدكتور محمد كامل حسين نشاط دائب موصول فى البحث والدرس يزاحم فيه ليله بنهاره ، فقد أخرج من الكتب والرسائل عدداً غير قليل . له المتنوعات فى جزأين ، وله طب الرازى ، وله التحليل البيولوجى للتاريخ ، ووحدة المعرفة ، والوادى المقدس ، والذكر الحكيم ، والشعر العربى ، واللغة العربية المعاصرة ، وله قرية ظالمة ؛ تلك الطرفة القصصة التى استطاعت أن تتخطى الحواجز اللغوية والقومية فتكون من الأدب العالمى ، إذ ترجمت إلى الانجليزية والفرنسية وإلى الأسبانية والهولندية ، وإلى التركية . فلا غرو أن تهدى إليه الدولة جائزتها التقديرية فى الأدب ، ثم تهدى إليه جائزتها التقديرية فى العلم أيضاً .

أيها السادة :

لكل شخصية سرها الكامن فيها ، ولكل نفسية مفتاحها المؤدى إليها . وقد حاولت أن أستكنه سر الشخصية الكاملة ومفتاح نفسيتها ، فلم أجد أصدق فى تقديمها للتاريخ من تقديمها هى نفسها لنفسها يوم الاحتفال باستقبال كامل عضواً فى المجمع ، فقد قال فى كلمته : « التشريف فى غير ميدان الفكر قد يرفع قدر المرء عند الناس ، ولكنه فى مجال الفكر تعريف حق ، يعظم به قدر المرء عند نفسه . والتسامى عقلا أو خلقاً أمر نادر فى الحياة الحديثة ؛ فهى عنيفة ملحة . والنفس البشرية فى حاجة إلى الهدوء والاطمئنان والاستقرار . أمور نلتمسها ولا نجدها إلا فى الحياة الفكرية حين تخلص من شوائب الشهوات الجامحة ، والرغبات العاجلة ، والتهالك على المنفعة القريبة » .

فالدكتور محمد كامل حسين ، كما جرى على لسانه يؤمن بأن شرف الحياة هو فى الإخلاد إلى صومعة الفكر ، وأكاد أقول فى محرابه ، والتصوف فى خلواته . لقد كان يدعو دائما إلى العقل ويهتف به ، ويعنى بالعقل ذلك الوعى الرياضى التجريبى الذى يقدر ويدبر ويحلل ويعلل ، ذلك العصام الذى يحمى صاحبه من الانقياد والتسليم ويحول بينه وبين التأثير الاعتباطى بالمقول والمنقول ولقد بلغ من ترويضه للعقل والفكر أن كتب بحثاً فى النحو سماه « النحو المعقول » ، وحين قدم صورة لتصريف الكلم أسماها « حدول الصرف » كما للحساب « جدول الضرب » ؛

وكان لايقنع أن يكون المرء مفكراً حتى ينتهج له نهجاً فى حياته العقلية يخلص له ، ويمضى عليه ، وعنده أن ذلك لايكفى فيه دراسة وفهم ، أو دعاية وترويج ، بل لابد من تمثل واقتداء . إنه يقول : « إن الدعوة تعد ناجحة حين يكون القائم بها أقرب مايكون طبيعة وتفكيراً إلى مايدعو إليه» . وهو يقرر هذا فى مقام الإشادة بأن لطفى السيد كان فى حياته وجهاده نموذجاً لتطبيق فلسفة أرسطو ومذهبه الفكرى .

والحق أن « كاملا » كان نموذجاً لذلك الرجل الذى تمنى أن يكون ، آمن بالعلم فى أرحب نطاق ، وبالتفكير العلمى فى أكثر صوره نقاء ونزاهة ، وبحرية البحث من غير شطط ، وبالتجربة المفضية إلى نتائج لاتحتمل المراء .

أيها السادة :

كان « كامل » عالماً عالمى النزعة ، وهو إلى ذلك مصرى صميم ، وعربى عريق : وإن اعتزازه بمصريته وعروبته ليدعوه دعاء ظاهراً أو خفياً إلى التغنى بأمجاد مصر والعرب فى ميدان العلم . ولكنه لا يتغنى بها تشدقاً ، ولا يرسل قوله دعاية وشعاراً بل يقدم إلى العلم دراسة أصيلة . لها عند العلميين أجمعين مقام كريم :

يعمد إلى الطب الفرعونى فيقدم إلى المعاصرين أقدم رسالة علمية فى التاريخ ، هى ورقة من البردى ترجع إلى عصر بناة الأهرام ، متناولا إياها بالشرح والتفصيل فيكشف لنا أن صاحبها المصرى قد وصف حوادث السقوط وجراحاته وصفاً يساير المنطق العلمي والبحث الطبي ، ويعمد إلى الطب العربي ، فيدرس الرازى فى رسالة مستقلة ، ثم طب ابن سينا فى كتاب « القانون » فيزن ما فيه من ظواهر وحقائق ويوزان بينها وبين ما أسفر عنه الطب العصرى . ثم يقول :

« إن للأطباء معايير يقيسون بها أقدار العلماء الأقدمين غير ما يكون فى كتبهم من فائدة علمية ؛ فهم يعترفون بالفضل

للطبيب الذى يبدأ طريقة جديدة، حتى بعد أن يبطل العمل بها » ؟

أيها السادة :

كان « كامل » ذا عقل حصيف ، و علم غزير ، وكان أيضا ذا وجدان مرهف ، وضمير حى ، وقلب كبير ؛ وكان عامر القلب بالإيمان وبالحب وبالخير : وله فى هذا الباب انتفاضات تلمح فيها عاطفة نابضة ، وصوفية مستنيرة . قال منذ خمسة وعشرين عاماً فى كلمته المجمعية .

« من الخطأ أن نظن العلم يقوم على العقل وحده ، وأنه بمعزل عن الإيمان ؛ هذا يصدق على العلم الميت، علم الوقائع ؛ ولايقال عما يحتاج إليه البحث فى الضمير وما وراء الطبيعة » .

وهو فى « قرية ظالمة » يشيد بالضمير عاملا أساسياً فى حياة الإنسان وسعادته فيقول : إن الناس حين يفقدون الضمير لا يغنيهم عنه شئ ، فالضمير الإنسانى قبس من نور الله ، لا يكون للناس هدى بغيره . وكل فضيلة تنقلب نقصاً : وكل خير يصبح شراً ، وكل عقل يصبح خيالا ، ما لم يكن للناس من ضميرهم هاد .

وعلى لسان الحواريين فى ضراعتهم إلى الله يقول : « اللهم إنك أنعمت على الناس فوهبت لهم الضمير وهو روح منك ، وجعلت أمره أمرك ، ونهيه نهيك ، فمن أطاعه فقد أطاعك ، ومن عصاه فقد عصاك »

« وهو يقول فى تفسير الحب الكامل فى واديه المقدس: « أكمل الحب حبك الله ، إذا كان من أثره فيك أن تحب من يحبهم الله ، وهم الناس جمعياً . وليس لك أن تختار من الناس من هم جديرون بحبك ، وليس لك أن تختص بهذا الحب من تعتقد أن الله يحبهم فأمر ذلك إلى الله وحده . وعليك إذا أحببت الله حقاً أن يقع حبك على الناس أجمعين» :

وهو إذ يصف الحياة الطيبة القائمة على السلم يقول : « إذا أردت أن تكون حياتك طيبة صادقة — ولا أحسبك عن ذلك راغباً — فاعلم أن الحياة الصادقة تقوم على السلم . والسلم يكون بينك وبين نفسك ، ويحققه الإيمان. ويكون بينك وبين الأقربين ، ويحققه الحب . ويكون بينك وبين العالمين ، ويحققه الخير . . . » .

وهو يرى أن التطهر النفس إنما يكون بالإيمان والحب والمعرفة ، فيقول : « خير ما فى الإيمان الإيمان نفسه ، مهما يكن ما تحب أو من تحب . وخير ما فى المعرفة المعرفة نفسها ، مهما يكن موضوع ما تعرف » .

وهكذا يتجلى لنا « كامل » العالم إنساناً وثيق الإيمان ، مرهف الوجدان

ينشد الحب والخير والمعرفة للإنسان ، حيثما كان .

أيها السادة :

كانت اللغة العربية وتطورها شغل كامل الشاغل . وقف يوم استقباله بالمجمع يقول : «أول مايجب أن نعنى به هو العلم بالعربية فإن أحداً لا يستطيع أن يأتي بعمل ذى خطر إلا أن يكون ذلك بلغته . والذين لا يملكون ناصيتها يظلون حيارى لايقدمون على شئ من الأدب الرفيع ، فالأدباء يريدون اللغة طيعة . والعلماء يريدونها دقيقة ، وأهل اللغة يريدونها نقية : وعندى أن نقاوة اللغة إنما هى كصفاء الماء فى الغدير ، والماء الهادى اذا اضطرب صفاؤه ، واللغة إذا اضطربت ذهب رواؤها » .

لم يقف « كامل » عند الإفصاح عن رأيه فى تطوير اللغة ، لكنه تجرد بعد ذلك للعمل ، وهو رجل جد ، فمضى باحثاً دارساً ، يعالج أن يعطى صورة لما يجب أن تكون عليه متنا ونحوا وصرفاً وإملاء . وآنس بالمجمع منبراً حراً يصدع منه بدعوته . وهو يلخص فلسفته اللغوية فى قوله :

« لانزاع فى أن اللغة أدق من قواعدها . وأن الذوق أصدق من أجروميتها ، وأن اللغة أوسع من معاجمها ، وأن التقيد بما ورد منها فى المعاجم القديمة ينقص من قدرتها على التطور والنمو » . ويوضح هدفه بقوله :

« إنى لا أدعو إلى تغيير فى مقاييس الصحة فى العربية الفصحى ، ولكنى أقول إننا نستطيع وضع قواعد بسيطة جداً يمكن أن يلم بها المتعلمون فى وقت قصير ، فيتجنبوا اللحن فى أكثر كلامهم » .

وماقدمه فى هذا الجانب إنما أراد به كما يقول : تعقيل النحو وترويض الصرف مع تنظيم من اللغة وتيسير الأحكام الإملائية . ومهما يكن الرأى فى هذه المقترحات والتصورات فستكون على أية حال مثار تفكير لتبسيط قواعد العربية وتطويعها لمقتضيات الحياة المعاصرة .

أيها السادة :

قضيت ساعات قبل أن أكتب هذه الكلمات مع الدكتور محمد كامل حسين فيما ترك من آثاره الحسان ، عشت معه وأنا أقرأ فى كتبه ، كأنى أستمع إليه ، أوكأنى أسايره وهو يعبر بى معابر من العلم والمعرفة دقيقة فيها تتوارد أفكار وآراء ، ومنها تتبين أحكام ونتائج .

واسترعى انتباهى — وأنا أقرأ وأستمتع — أنى إنما أقرأ لرجل استقلال وانفراد ، يؤيدها عقل يتوقد وقريحة تستجيب ، وقلم لايعيا بالإبانة والإفصاح . وكأنى حين انتهت قراءتى قد رجعت من رحلة طويلة ساقنى صاحبها إليها ، وأرانى فيها من المشاهدات والحقائق مايحرك الذهن ، ويوقظ الفكر ، ويثير النفس ، ويلهب الشوق إلى المزيد .

وأشهد أن كاملا يجمع فيما يكتب بين الثقه بما يقول ، والاستبصار فيما يقرر ، وأن له مقدرة بيانية تسمو به إلى ذروة الإجادة والإبداع . وأن أسلوب كامل الجزل المشرق ليقدم لنا نموذجا لبلاغة الكتابة العصرية فى مستوى رفيع ، يجمع إلى خصائص الفصاحة والأناقة مزايا الدقة والإحكام .

أيها السادة :

لعل منكم من لاحظ أنى حرصت على على أن أتمثل بما كتب الدكتور كامل أكثر مما حرصت على أن أعلق عليه . وإنى لأذكر فى هذا المقام أن المرحوم الأستاذ أنطون الجميل كان قد ألف رسالة فى الكلام عن شعر أمير الشعراء شوقى ، فجاء ماتمثل به من ذلك الشعر أضعاف ماجرى به قلمه من تعقيب ويبدو أن أنطون الجميل توقع أن يلاحظ ذلك عليه، فصدر رسالته بجملة لأحد أقطاب المفكرين يقول فيها: كفاكم كلاما فى شأنى فأمسكوا أصواتكم عنى ،وأسمعونى صوتى .

ولست فى ريب من أن صوت الدكتور محمد كامل حسين فيما كتب ، فيما أبقى من بيانه ، هو خير مايقال فى تأبينه، وهو أجل مايحفظ ذكراه ، عليه رحمة الله :

كلمة الشعر للدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش عضو المجمع :

خلت المحافل من أديب مصقع
ونعى النعاة حكيمنا فى المجمع

وغدوت أبحث فى الوجوه عن الذى
قد كان ملء عيوننا والمسمع

فهو الخبير بدائنا وشفائنا
أبصر به فى الحادثات وأسمع

سوّى البنان بقدرة من ربه
وشفى المريض بأرجل أو أضلع

سرّ له فى خلقه أفضى بــه
لمــن اصطفى من عالم متضلع

وإذا قرأت له سباك يراعه
وإذا شفاك عرفت سر المبضع

وتقول إن جاءتك منه رسالة
عبد الحميد ترى أم ابن مقفع ؟

هو كابن سينا فى الشفاء وكابن رشد
والغزالى فى الخطاب المشبع ؟

أفكاره أزواجه وبناتـــــه
وبنوه مرضاه وثبت الإصبع

بوركت ياكف الأديب الألمعى
وسلمت ياكف الطبيب اللوذعى

لهفى على رجل يبيت على الثرى
بلغ الثريا فى سمو الموضع

لكنها سنن الحياة تواترت
نغدو وليس لغابر من مرجع

فالناس بين مشيّع ومشيَّع
يمضى فيتبعه الردى بمشيّع
تلقاه قبل عشية بمــودّع
فإذا بــه عند الضحى بمودّع
لا تحسبن من الردى بمفازة
أحدا فما أحد نجا من مصرع
واعلم بأنك بعد حين هالك
ولسوف تفترش التراب كمخدع
كنه الحياة وسرّها خفيا على
مستأنس بحياتـــه متمتـــع
حتى إذا ضاقت عليه رحابها
وأتاه مكروه بغير توقـــع
تلقاه يرجـــع تائباً مستغفـــراً
يبغى النجاة من القضاء المفزع
فلـــرُب تنفـــع ضارة تهـــدى إلى
سبلى الرشاد فيالها من مقنع
أن السبيل إلى الهداية واضح
تقوى وإيمان بدون تزعزع
لا ملجأ غير الإله لطالب
حسن الختام بقلبه المتضرع
جفّ المداد وأجدبت أقلامه
إلا من اللحن الحزين المفجع
هل ضاق صدرك بالزمان الخادع ؟
أم هل نسيت الطب بعد توجع؟
فعدلت عن وصف الدواء الناجع
وتركت دنيانا بخطو مسرع
وسعيت للأخرى بقلب خاشع
تبغى الوسيلة والرضى بتضرع

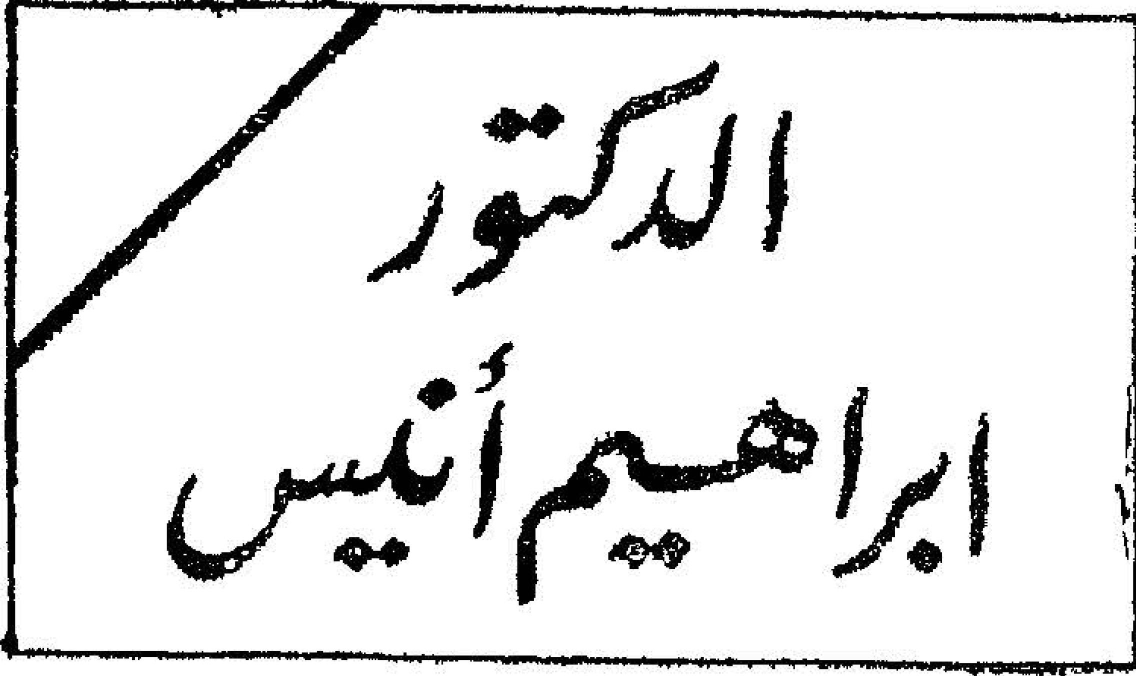
قل للملائكة الذين تهدتهم
آمنت بالذكر الحكيم الأروع
أحببت "أحمد" فى الحياة وإننى
أبغى الشفاعة منه يوم المفزع
خذا ما كتبت ومن شفيت شهادة
وبراءة عند البديع المبدع
فالفضل فى الدنيا لعلم نافع
والفضل فى الأخرى لعبد أطوع
لك فى العلوم مكانة مرموقة
وملكت بالفصحى فؤاد المُسمع
زفت إليك قلادة عن "قرية
ظلمت" نبى محبة وتواضع
وتلاه "واديك المقدس" شاهداً
للعبقرية بالدليل المقنع
وختامه مسك عن "الذكر الحكيم" (م)
وتابعيه الساجدين الركع
وقلادة أخرى عن العمر الذى
أفنيت فى طب الضلوع وأذرع
بوركت فى الأخرى كما بوركت فى
دنياك بالحسنى وأشرف موضع
« فمحمد » سميت أنت « وكامل »
و« حسين » للتمليح منذ المطلع
وحباك ربك بالمكارم والتقـــى
والعلم والأدب الرفيع الممتـــع
واليوم تبكيك المعارف كلها
والمسلمون بمغرب أو مطلع
والعرب بين خليجهم ومحيطهم
والنيل بين مصبه والمنبع
من كان فى الدنيا تقيا عالما
أبصر به فى الآخرين وأسمع

... عة الحاديه عشره من صباح الاربعاء ٢١ من ذى القعدة ١٣٩١ هـ الموافق
... ١٩٠ أقام المجمع المجمع حفل تأبين المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس عضو المجمع

... يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور
رئيس المجمع
فى تأبين المرحوم :



... اتى ساداتى :

... اليوم لنقضى لحظات مع ذكرى ... ة علينا جميعا ، ولقد كان أنيس رحمه ... أنيسا فى لقائه ، أنيسا فى مجلسه ، أنيسا ... ثه ، يلقانا ببسمته الخفيفة المعبرة ، ثم ... لينصت ويسمع أولا ، ولا يتحدث ... دعاه داعى الحديث ، ودواعيه ... دائما ذات مغزى ودلالة ، لم يبتذل قط ... الكلام ، وإذا ما تكلم فإنما يتحدث ... يحرص على الأصالة ما وسعه ، ويمقت ... والإعادة ، ويصدر عن ذوق ... حس صادق .

... عشنا معه فى هذه الدار ست عشرة سنة ... وصلته بها أقدم من ذلك بكثير ، ... خبيرا بلجنتى اللهجات والأصول ... ، وغذى المجمع ببحوث لغوية خصبة ... أن يصبح عضوا فيه ، ثم استمر يغذيه بغذاء ممتع إلى آخر لحظة من حياته . وأشهد أنه كان مؤمنا الإيمان كله برسالة المجمع ، وحريصا الحرص كله على أدائها كان يؤمن بالتطور فى غير ما طفرة ، بالتجديد والإصلاح وفى غير ما غموض ولا تعقيد ، وقد أعطى المجمع ما وسعه ، بحث فيه ودرس ما أمكنه ، أعطى فى لجاننا المختلفة من لهجات وأصول ولجان علمية وألفاظ وأساليب ، فى لجان المعجمات اللغوية المتعددة ، من الكبير إلى الوسيط ، ثم إلى الوجيز ، وأعطى بسخاء فى مجلة المجمع التى اضطلع بالإشراف عليها منذ عام ٦٧ ، واستطاع أن يخرج منها فى حياته خمسة عشر جزءا ، وتحت الطبع جزآن آخران يحملان اسمه ، فكساها بكساء جديد ، وأمدها دون انقطاع بأفكار راشدة وتوجيهات سديدة ، وقد التقيت معه أخيرا على مائدة المعجم الوجيز ، وما كان أعزها

عليه وأحبها إلى نفسه، وإنا لنرجو أن يخرج هذا المعجم قريبا إلى النور وفاء لذكراه وتخليدا لجهوده وجهود من أسهموا معه .

أما عطاؤه فى مجلس المجمع ومؤتمره فمجال القول فيه ذو سعة ، ولا يقل عن ذلك عطاؤه الجم الفسيح فى عالم التأليف والبحث، فى عالم الأدب واللغة ، إن فى مصر أو خارجها .

وسيقول زميله الوفى الأستاذ على النجدى كلمة المجمع فى ذلك كله ؛ ويليه الدكتور عبد الله درويش ليقول كلمة دار العلوم ثم تقول الأسرة كلمتها على لسان الدكتور عبد العظيم أنيس شقيق الفقيد.

رحم الله فقيدنا رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وأمته :

●● كلمة الأستاذ على النجدى ناصف عضو المجمع :

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الرئيس ، أيها السادة الزملاء ، أيها السادة والسيدات :

هل رأيتم النجم الثاقب كيف يهوى من عليائه ، فيخلو مكانه ، وينطفئ ضياؤه ، وتخمد جذوته ، ويصبح أثرا بعد عين ؟

أم هل رأيتم العذب الفرات كيف ينقطع سيبه ويغيض فيضه ، ويسكن سلساله فإذا الرى ظمأ ، والخصب جدب ، والحال غير الحال ؟

هذا ماحاك فى صدرى حديثا ، وتمثل فى ذهنى خيالا ، حين نعى إلى الصديق العزيز والزميل الكريم : الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس ، وهكذا إذا فدح الخطب ، وجل المصاب يذهل المرء عما حوله ، ويخلو إلى نفسه ، فتجيش بالخواطر والذكريات ، وتتوافى إليها الصور والأطياف .

لم أكن فى هذا الرزء وحيداً ولا خُصَّ به المجمع وحده ، ولكنه الرزء الجامع يتشارك فيه ويتسهول وقعه كل من عرف الفقيد ووصلته به صلة ، وقدره حق قدره : من الذين أخذوا عنه ، والذين قرؤاله ، وما أكثرهم هنا وهناك فى أرجاء الوطن العربى الكبير !

ولم يكن الحزن عليه — مع قسوته وشدة حرقته من سخط على القدر أن يمضى إرادته وينفذ حكمه ، ولا كان من جحود بحق الموت أن يلم بمن حان حينه ، فيطوى صحيفته عيانا ، وأهله وعشيرته من حوله ينظرون ، لا يمنعه منهم مانع ، ولا تنفعه منهم شفاعة شافع ؛ ثم يعقبهم من بعده الحسرة واللوعة والأسى :

كلا ، لم يكن الحزن عليه من هذا أو من ذاك ، فالقدر فيما يعلم الناس حتم مقضى لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، والموت لابدوافع ، ماله من دافع ، وهو بعد لايأخذ ويدع ، أو يحابى ويصانع ، ولكنه السهم النافذ المصيب ، ينطلق لموعده ، فيُصمى رميّته ، فإذا الحياة همود والحركة سكون. وصدق الله العظيم إذ يقول : (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرجعون) ، وإذا يقول : (فإذا جاء أجلُهم لايستأخرون ساعةً ولايستقدمون) ، ويرحم الله شوقى إذ يقول :

كل حى على المنية غادى
تتوالى الركاب والموت حادى

ذهب الأولون قرناً فقرنا
لم يدم حاضر ولم يبق بادى

وإنما هى المفاجأة المروعة أخذنا بها على عهدٍ منا بالفقيد جد قريب ، إذ كان معنافى جلسة المعجم الكبير ، وكان على خير مانحب له ، متهللا مستبشراً ، بارئاً معافى ، لا تبدو عليه أثارة من ضعف أو معاناة من علة ، فنكون منه إن طالت عنا غيبته بين قلق واطمئنان ، ويأس ورجاء ، حتى إذا قضى الأمر ووقعت الواقعة لم تكن سوط عذاب ولا صاعقة عاد .

لكن الله تعالت حكمته — أبى إلا أن تكون المفاجأة بما لم يكن يدور فى خلد ، أو يقع فى حسبان ، فكان ماقضى الله ، وماهى إلا طرفة حين ، أو خطفه برق ، حتى انهار الصرح ، وانطفأ السراج ، فإذا الضياع والفراغ ، وإذا الفراق لغير موقف وداع ، ولا عِدة بلقاء :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

سيادة الرئيس ، أيها السادة الزملاء ، أيها السادة والسيدات :

لقد حزنا ماشاء الله ، وشاء الوفاء للفقيد أن نحزن ، ولايزال منه فى قلوبنا هم دفين ، تثيره ذكراه المتجددة وآثاره الباقية . لكن هل نستسلم للحزن ماشاء ، ونمضى معه غافلين لاننازعه قيادنا ، ولا نجاهد للإفاقة من غمرتنا؟ تلك لعمر الله الخطة لا أبعد منها عن الحكمة والرشاد ، وليس من ورائها خير يرجى ، أو عائدة تطلب ، إلا البوار وسوء العاقبة .

صحيح أن فراق الأعزة أليم شديد ، وسلطانه على الوجدان قاهر عنيف ، لأنه حرمان وفوت وخسران . ولكن صحيح أن المحزون إذ يلجأ إلى ربه ، ويعتصم بإيمانه ، وإذ يوحى إلى نفسه بالرضا بالقدر ، ويروضها على الاحتمال والصبر ، ويبصرها عاقبة التمادى فى الحزن فهو حقيق — بعون من الله — أن يسكن إلى الواقع ، ويستسلم للمقدور ، عن إرادة وعزم لا عن سلو ونسيان. وفى ذلك مرضاة

لربنا ، وإبقاء على سلامتنا . وقديماً حكى أبو تمام قولة قالها الإمام على — رضى الله عنه — يعزى الأشعث بن قيس ، قال :

وقال على فى التعازى لأشعث
وخاف عليه بعض تلك المآثم :
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أم تسلو سلوّ البهائم ؟

ومن أبى إلا التمادى فى الحزن رقة وحناناً — فهو وما اختار . وليصنع بنفسه ما يشاء ، غير راحم لها ولا مبق عليها . ليحزن مصبحاً وممسياً ، وليحزن لجنبه ، وقاعداً وقائمــاً ، حتى إذا أبلى بلاءه فيه ، وبلغ غايته منه — فلينظر إذا كتبت له السلامة من التلف : هل منع الفلك بحزنه أن يدور ، أو أمسك الحياة أن تسير ؟ أم هل جاءه نبأ من دهرنا الأطوال عن محزون ردّ بحزنه فائتا أو أحيا ميتا ؟ فلنتواص إذا بالحق ، ولنتواص بالصبر ، طاعة لأمر ربنا فى كتابه الكريم .

سيادة الرئيس ، أيها السادة الزملاء ، أيها السادة والسيدات : لقد عرفتم الفقيد عالمــاً متمكناً ، وحجة ثبتاً ، ولم يكن ذلك عنده عن عفو من مصادفة ، أو شذوذ من مفارقة ، بل عن أصالة مذخورة ، ووراثة مأثورة . فقد كان — رضوان الله عليه — فرعاً من شجرة مباركة طيبة ، تضرب فى النجابة بعرق مكين ، إذ كان رابع أربعة من إخوة كرام ، ما منهم إلا صاحب تخصص فاضل فى لون من الدراسة العالية ، يعرف به وينسب إليه . وخاله هو المغفور له : أستاذنا الجليل زكى المهندس : طيب الله ثراه .

ولا أصفه بأكثر مما تعرفونه عنه ، من علم ناضج وعطاء وافر ، إلى سراوة فى الطبع وتألق فى القريحة .

وقد ولد الفقيد فى القاهرة عام ١٩٠٦ ، فأتيح له أن يرى من معالمها ويمارس من أساليب الحياة فيها مالا يتاح مثله لغير ساكنى الأمصار . ولما أن اشتد عوده : ولاحت بواكير وعيه — بدأ رحلته للتلقى والدرس . فلما بلغ المدرسة التجهيزية التى كانت ملحقة بدار العلوم — دخلها ، وأتم الدراسة فيها . ثم دخل دار العلوم، وتخرج بها عام ١٩٣٠ وتولى التدريس فى بعض المدارس الثانوية ، ثم كانت مسابقة دعت إليها وزارة المعارف لاختيار بعثة دراسية إلى أوربا ، فاستبق فيها الفقيد مع المستبقين ، وفاز بالبعثة إلى إنجلترا.

وفيما بين عامى ١٩٣٣ ، و ١٩٤١ حصل من جامعة لندن على درجتى بكالوريوس الشرف فى الآداب ، ثم دكتوراه الفلسفة فى الدراسات اللغوية السامية . وفى لندن أكبر أعضاء النادى المصرى شخصه ، وقدروا مواهبه ، فانتخبوه رئيساً لناديهم ، يدير أعماله ، ويدبر شئونه.

وعاد إلى مصر فحاضر فى دار العلوم ، ثم فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، ثم عاد بعد سنتين إلى دار العلوم ، واستقر بها

حتى صار أستاذاً فيها ثم عميداً لها عام ١٩٥٥ ثم عاد عميداً لها عام ١٩٥٨ . وفى هذا العام اختير خبيراً فى المجمع ، ثم عضوا من أعضائه عام ١٩٦١ ، إلى أن اختاره الله لجواره مع البررة الصالحين من أوليائه.

وأذكر له حين ولى عمادة دار العلوم أنه أحسن الولاية عليها ، وأدار أمورها بالحكمة والحزم ، ووهب لها وقته كله ، فكان يغدو إلى مكتبه مستهل ساعات الدراسة ، ولا يزال فيه إلى منتهاها ، لا يغادره — إلا لمحاضرة أو لإجابة دعوة إلى الجامعة .

وكانت تقام فى الكلية دورات دراسة تدريبية لطائفة من مدرسى اللغة العربية ، يحضرونها مساء لأسابيع من الصيف . وكان للفقيد الإشراف عليها ، وأشهد أنى ما افتقدته يوماً من أيام هذه الدورات إلا وجدته حاضراً وكانت ثمة رخص تيسر له — لو أراد — أن يخفف عن نفسه بعض هذا العناء المتوالى . لكنه — أحسن الله إليه — لم يكن يأخذ فى أداء واجبه بالرخص بل بالعزائم ، يحمل نفسه عليها ، ويلتزم الأخذ بها قبل أن يفكر فى الدعوة إليها .

ولست أنسى له — وهو عميد — موقفاً كريماً من مواقف الإباء وعزة النفس والحفاظ على الكرامة ، والزهد فى مقام الرياسة وأبهة المنصب إذا لم تتهيأ له الأسباب التى تمكن له من الاضطلاع بتبعته على ماتقتضيه المصلحة ويوحى به الضمير .

فقد كان من كبار العاملين فى إدارة الجامعة إذ ذاك سيد كبير من غير الجامعيين ، كلمته مسموعة وإرادته ماضية ، واعتاد السادة عمداء الكليات أن يختلفوا إلى مكتبه فى المناسبات الجامعية ، مطاوعة لدواعى المجاملة ، إلا عميد دار العلوم . ولم يكن رحمه الله — يفعل ذلك عن تعال فيه أو استكبار ، فما عهدناه متعالياً ولا متكبراً ولا مكان للتعالى والاستكبار فى هذا المقام ، لكنه — فيما أقدر — كان يرى أن مقطع الرأى فى مثل هذا الأمر إلى شعور المرء به ، انبساطاً له ، أو انقباضاً دونه . ولم يخطر بباله ولا وقع فى وهمه أن مثل هذه الهنة فى هوان الشأن وقلة الغناء يمكن أن تشغل بالا أو تثير تفكيراً .

لكن الواقع جرى على خلاف ذلك ، فقد لحظ السيد الكبير إعراض الفقيد عما يتعاطاه الآخرون معه ، وعجب له ، وتساءل عنه وربما عده تعاليا عليه وتهاونا به .

وعلم الفقيد بالأمر ، فلم يعدل عن خطته ؛ لكنه لم يلبث أن لحظ أن العراقيل والعقبات جعلت تأخذ الطريق على أعماله ، أو تعوق سيرها إلى الإنجاز قدماً . فظن بادي الرأى أنه الطارىء الموقوت يعرض بعض الوقت ، ثم يزول عفواً أو بالمحاولة اليسيرة . ثم استبان أنه أمر يراد ، بل كيد يكاد .

فحاول رحمه الله أن يعالج الأمر من بابه المطروق ، لكنه لم يوفق ، لأن السيد الكبير لا قبل لأحد به ، فلم يبق إلا التى لابد منها

للرجل الحازم الكريم : أن يستقبل وكذلك فعل الفقيد ، وأقبل على دراسته وبحوثه راضياً مطمئن البال ، مذكوراً بالخير وطيب المقال .

تلك كانت حياة الفقيد العملية فى مراحلها المتتابعة . أما حياته العلمية فقد توافت إليها الأسباب المواتية والملابسات الصالحة ، لتجعل منها حياة خصيبة ، وافرة العطاء ، يانعة الثمار ، لها من استقامة المذهب نصيب موفور . بفضل ما آتاه الله من شرف المزية وفضل الموهبة فى ذهنه ، ومناهج تفكيره ، واستقامة منطقه ، وصفاء طبعه .

ثم هو قد أخذ علوم العربية فى أصالتها ونقاء معدنها واتساع آفاقها على جمع من شيوخ دار العلوم وأعلامها المذكورين ، وتمرس بها على أعينهم تحصيلا وتطبيقاً .

ثم سافر إلى لندن فلقى بعض المستعربين ، وسمع منهم ، وقرأ لهم بحوثاً فى اللغات السامية ، وقرأ لآخرين من علماء الغرب بحوثاً فى لغاتهم القديمة والحديثة ، واطلع على محاولاتهم تفسير الظواهر اللغوية عندهم على نور من نظائرها فى اللغات الأخرى ، فأضاف من ذلك علماً إلى علمه ، وآراء إلى آرائه ، واطلع على ضروب من مناهج التفهم والتفكير وطرائق العرض ، توافق أو تخالف ما عنده من ذلك قليلا أو كثيراً .

فكان لذلك كله عمل غير مردود فى إنضاج شخصيته الفكرية وإثراء مادته العلمية لكن شيئاً من ذلك لم يفتنه ، ولا طغى عليه ، بل ظل متماسكاً حر الرأى ، يأخذ ويدع ، ويوافق ويخالف . ولم يكن فيما يأخذ أو يوافق حاكياً مردداً ، ولا مسرفاً غالياً . ولم يكن فيما يدع أو يخالف جامداً متعصباً ، ولا حرجاً متزمتاً ولكنه كان يصنع به كما يصنع بما يدرس من تراثنا اللغوى ، يخير ويفاضل ، ثم يرجح ويختار عن بينة واقتناع . وإذا كان بالحديث آخذ ، وحظه منه أوفر . فلأن نظراته فى القديم لم تكن محاولة لنقض أصل . أو تغيير حقيقة ، وإنما كانت محاولة لتغيير غير التغيير وتأويل يخالف التأويل ، أخذاً على سنن الدراسات اللغوية المتطورة ، والنظريات المستحدثة .

وأكثر ما دارت بحوثه عليه هو العربية فى أصواتها ، والعربية فى مفرداتها وما يطرأ على بنيتها من قلب وإبدال ، وما يكون بين معانيها من تضاد وبين ألفاظها من ترادف واشتراك ، إلى طائفة من قضايا النحو والصرف ، رآها مجالا للدراسة والبحث ، فأقبل يجيل النظر فيها ويستعرض مسائلها تحليلا ونقداً ، يرفده فى محاولاته هذه مواهبه المتميزة ودراساته المتعددة ، واطلاعه المتنوع .

ولم يكن يعوزه فى مواقف الاحتجاج وإصدار الأحكام أن يرجع فى الاستشهاد إلى القرآن الكريم والكلام المأثور من منظوم ومنثور ، وإلى أقوال العلماء ، من المتعربين والقدماء وهو فى دراسته وتحليله ، وفى نقده واجتهاده هادئ رصين ، لا يعنف

ولا يثور ، متزن الحكم ، منصف سمح ، صادق النظرة ، واضح العبارة ، عف اللسان ، ولايجرى قلمه بما يسىء ، ولامايشين

وقد خلص من جولاته فى اللغة بآراء وتفسيرات محدثة ، وافق عليها من وافق ، وخالف فيها من خالف . وكان يعلم أن العلم يتطور ويتقدم ، وأن الإنسان يعلم ويجهل ، ويخطىء ويصيب . لذلك كان كلما أعاد طبع كتاب نظر فيه ، فغير وبدل ، وحرر ونسق . ولا يزال شىء مما قدر له الاستقرار يحتاج إلى مراجعة ناقدة . ومن يدرى لعله لو نسأ الله فى عمره لجعله منه على بال ، ولعدل رأيه فيه .

أما مؤلفاته فتشتمل على طائفة قيمة من البحوث والدراسات ، ولا يتهيأ مثلها لغير ذي فكر مستنير وعلم غزير . ولم يتيسر لى أن أرتبها ترتيباً تاريخياً ، لكنها على كل حال تعد سواء فى شرف المنزلة ، وجلال السمت ، واستقامة المنهج ، لايكاد يبدو بينها فى ذلك خلاف ذو بال ، وهى :

١ ــ كتاب الأصوات اللغوية ، وهو كتاب يتناول بالبحث والدراسة الأصوات ومقاييس تصنيفها ومنهج القدماء فيها ، وكذلك موسيقا الكلام وتكون الأصوات عند الأطفال والكبار .

٢ ــ كتاب « من أسرار اللغة العربية » ، وهو كتاب يتناول بالدراسة والنقد عوامل نمو اللغة والإعراب وعلاقته بالمعنى ، والجملة فى أجزائها ونظام تأليفها .

٣ ــ كتاب مستقبل اللغة العربية المشتركة ، وهو بحث يقوم على رؤية كاشفة ، وضح للفقيد على هداها أن اللغة العربية صائرة إلى التوحيد ، لتكون لغة العرب جميعاً ثم يصف الحال التى يتوقع أن تكون عليها صياغة وأداء .

٤ ــ كتاب موسيقا الشعر ، وهو كتاب ييسر العروض ، فيجتزىء من مصطلحاته الكثيرة بما يشيع فى شعر المعاصرين ويعفيهم من مشقة الرجوع فيها إلى الكتب المستوعبة ، ويشتمل مع ذلك على ملاحظات طريفة على بعض آراء القدماء والمستعربين ، اعتمد فيها على علم اللغة الحديث .

٥ ــ كتاب « فى اللهجات العربية » ، وهو دراسة جادة متخصصة ، تتناول بالشرح والتفسير العلمى الحديث حال العربية قبل الإسلام وواقع اللهجات فيها ، وينظر فى القراءات من الناحية الصوتية ، وفى اختلاف الدلالة والبنية فى اللهجات .

٦ ــ كتاب دلالة الألفاظ ، وهو كتاب يفصل البحث فى أنواع الدلالات ، ويبين كيف تكون الدلالة عند الأطفال وعند الكبار ، وكيف تتطور مع الزمن ، ويشرح أثر الدلالة فى الترجمة ، ثم يتحدث عن أشهر

المعجمات العربية بترتيب عصورها . وقد نال الفقيد به جائزة الدولة التشجيعية .

٧ – كتاب اللغة بين القومية والعالمية ، وهو كتاب يبين عمل اللغة فى تكوين القومية، وتوثيق صلة المجتمع بعضه ببعض ،ويبشر باللغة العالمية بفضل هذه السرعة المذهلة التى تؤديها المواصلات الحديثة ، تيسيراً للتخاطب على البعد ، وإذاعة للأنباء أسرع ما تكون ، ويرى ذلك إرهاصاً بظهور اللغة العالمية والقومية الإنسانية .

وللفقيد فوق هذا كثير من المقالات والبحوث ، نشر أكثرها فى مجلة المجمع ، أو ألقى على مؤتمره . وتدور كلها على اللغة فى أصواتها ، واللغة فى تاريخها ، واللغة فى صيغها ، واللغة فى إحصاء بعض مسائلها ، واللغة وحاجتها إلى معجم لألفاظ جاهليتها .

ويستطيع كل من يتحدث عن الفقيد وآثاره الفكرية – أن يقول غير مكذب ولا ظنين – إنه يعد حقاً وصدقاً من المعالم الشاخصة فى تاريخ الثقافة المعاصرة فى الوطن العربى كله ، بما قدم لها وأثرى حياتها من كتب وبحوث . أما علم اللغة الحديث فهو فيه الرائد الملهم ، والسابق المجلى ، بلا نزاع ، ولا خلاف .

وقد لبث نحو عشرين عاماً يشارك مشاركة فعالة فى أعمال المجمع ولجانه ، خبيراً مندوباً ، ثم عضواً منتخباً . شارك فى المعجم الكبير ، والمعجم الوسيط ، والمعجم الوجيز إلى مرحلته الأخيرة . وشارك فى أعمال لجنة الأصول ، ولجنة اللهجات ، ولجنة الألفاظ والأساليب . وكل إليه الاشراف على مجلة المجمع ، فلم يشأ أن يكون إشرافا من غير عمل ،ولا توجيها من بعيد ، بل جعله إشراف المباشر والمشارك فى الكتابة ، فكان يقدم بين يدى كل عدد موضوعاً طريفاً ، أو فكرة موحية .

ولم يفت المجمع أن يرشحه لجائزة الدولة التقديرية ، فكان للفقيد من ذلك وثيقة إكبار ، وشارة عرفان وتقدير ، سعت إليه خالصة له من صفوة منتخبة من أعيان العلم والأدب . وما أراه إلا قد ظفر بالجائزة إقراراً وتسليماً.

فحق له ولأهله ومريديه معه أن يقروا بها عينا . فما الجائزة فى واقعها الحق إلا الإقرار والتسليم . أما ما وراء ذلك فناقله لايضير فوتها ، وليس لأدائها فضل كبير .

وبعد ، فإن الحديث عن الدكتور إبراهيم أنيس متشعب ومستفيض ؛ وهيهات أن يتسع لاستعابه مثل هذا المقام . وقديماً قالت العرب : كفى من القلادة ما حف بالعنق . فلنترك إذن للبحوث الجامعية المتخصصة ، ولمؤرخى الثقافة المعاصرة حقه من الدرس والبحث كاملا غيرمنقوص .

والآن ، لنُقبل نحن على الله تعالى بقلوب خاشعةوألسنة ضارعة ،نسأله سبحانه أن يجمل عزاءنا ، ويربط على قلوبنا ، وأن يتقبل الفقيد الكريم بأحسن القبول ،وأن يثيبه ثواب العاملين المخلصين ، أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين . إنه نعم المثيب ، ونعم المجيب . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الدكتور عبد الله درويش
عميد كلية دار العلوم :

السيد الرئيس :

السادة أعضاء المجمع :

سيداتي وسادتي :

ليس المقام فى هذا المكان المقدس مقام البكاء ولا الأحزان على الفقيد الكريم، وإنما لتدارس آثاره ، وإننى لعلى استحياء أقول شيئاً بعد الكلمة الجامعة الوافية التى سمعناها من أستاذنا الجليل ، الأستاذ على النجدى ، ولكننى سوف أركز على بعض آثار الفقيد وعلى العلاقة التى كانت تربطنا به بصفتنا تلاميذه وطلابه ، فعندما جاء إلى دار العلوم من البعثة ليدرس علم اللغة الحديث ، كانت الظروف مواتية فى ذلك الوقت، نظراً لقلة عدد الطلاب ، فكنا أيامها لا نزيد عن الخمسين ، وكان أول شيء وضعه منهجا للدراسة فى هذا الفرع الجديد فى دار العلوم أن أشرك بعض الطلاب فى البحث ، فكان يكلفنا بعمل إحصاءات من القرآن الكريم ، ومن معجمات اللغة ، ثم بعد ذلك يأخذ النتائج ويضعها فى أبحاثه . وأذكر أن المجمع عندما أصدر الطبعة الأولى من كتاب المعجم الكبير ، ذكر المجمع فى مقدمته أنه يريد من الباحثين والدارسين أن يدرسوا منهج هذا الكتاب ، وكان لى الشرف أن أكون أحد أصفيساء أستاذنا ، فكلفنى أن أحضر إلى المجمع فى الخمسينيات ، وأخذت أربعين نسخة من كتاب المعجم الكبير فى طبعته الأولى ، وأقمنا ندوة فى دار العلوم شارك فيها كثير من الأساتذة ، ثم وضعنا حصاد كل ذلك فى تقرير أودعناه فى هذا المجمع الجليل : وكان أيضاً فى ملاحقته لنور العلم لا يؤثر شيئاً عليها رغم المغريات بالمناصب أو بالمال والجاه ، فكان يكره ذلك كل الكره ، وكان يخصص كل طاقته ووقته لكليته من الصباح المبكر إلى ما بعد الظهر ، وكان يقضى فى الكلية ١١ شهراً كل عام لايبرحها إلا فى شهر أغسطس وهو الإجازة ، ثم كنا نلتقى به فى داره ، وكلنا يعرف معمل الأصوات بالإسكندرية ، ويعرف أنه لبنة من لبنات أستاذنا ، ثم إننى لاأعرج على كتبه ولامؤلفاته بالتفصيل فلذلك ندوة ستقام فى دار العلوم ولكننى ألاحظ أن الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس كان متواضعاً حتى فى اختيار عناوين كتبه فمن كتبه « فى اللهجات العربية » ولم يقل « اللهجات العربية » ، « فى أسرار اللغة »

ولم يقل أسرار اللغة ،وكان دائماً يبحث عن الفكرة الجديدة ويفهمنا إلى أن هذه فكرة جديدة ، وأن علينا نحن أبناءه أن نذكر ما فيها من تفاصيل بعد ذلك ، فكانت توجيهاته توجيهات إجمالية . وكذا العباقرة تختص بالأشياء الكلية تماماً كما كان يفعل الخليل بن أحمد، كان يهتم بهذه الكليات ، ويترك التفاصيل لتلاميذه وكذلك كان أستاذنا الجليل فقبل موته بأسابيع حضر إليه بعض رواد علم العروض العربي واتصلت به وتناقشنا نحو الساعتين، ثم قال له: هذا البحث جدير بأن يبحث على مهل .

وكان دائما يتمهل فى كل آرائه ، وفى كل مباحثه .

وإذا كان المقام فى الرثاء يفجر العاطفة أحياناً ببعض أبيات من الشعر، فقد أملى علىّ الموقف عدة أبيات ولست أقول إننى شاعر ، فإننى تركت هذا الفن منذ زمن طويل، ولكنها العاطفة المتفجرة من أثر الموقف الجليل وها هى :

يعـــز علىّ حين أجيل عينى
أقلب فى مكانك لا أراكا
لقـــد روعت ليلة دق ناع
يسائلنى : أتـــدرى ما أتاكا
هتفت بصاحبى :خطب جليل
أبى وأبوك قـــد لقى الهـــلاكا
على وضح الثرى أرداه غـــر
جبان ، ليتنـــا كنا فـــداكا
لقد حملوك ما عرفوا مـــداكا
ولم يـــدر الأحبـــة ما دهاكا
فزعنـــا نرقب الجسد المسجى
نملى نظـــرة منـــه هنـــاكا
فما كدنا نصـــدق ما نراه
وأن المـــوت قد ألقى الشباكا

* * *

لقد كنت العزوف عن الدنايا
وكنت مسالمـــاً من ذا جفاكا
ولم يبهرك فى الدنيـــا ضيـــاء
وكان صدى الحقيقة مبتغـــاكا
بكاك الخالدون شجى وحزنا
«ودار العلم» أشجى من بكاكا

كلمة الشعر للدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش عضو المجمع

ما للدموع إذا فرحت ترقرقت
وإذا حزنت تفجّرت تفجيرا
هل قدّرت بالعدل دمعة فرحة
قسطاً وقدّرت الأسى تقديرا
أم أخفت السرّ الدفين لفرحة
والحزن أفشت سرّه تشهيرا
خذ عبْرة إن كنت تفرح مرّة
واحفظ دموعك للأسى تعبيرا
قد يمكث الفرح المؤقت لحظة
والحزن يبقى دائماً ومريرا
إنى عجبت لآلة قد صمّمت
من فكرة وتطوّرت تطويرا
ضمّت جماداً لو أتته سقاية
يجرى ويرسل صرخة وزئيرا
لم ترع للإنسان حرمة صنعه
بل دمّرته بقسوة تدميرا
ما أضعف الإنسان لولا أنه
قد علّم الأسماء والتفكيرا
يرديه مكروب وأدغر صدمة
تلقيه مكسور الجناح حسيرا
يا قدرة المخلوق حسبك قدرة
(م)الخلاّق حتى تسجدى تكبيرا
قد كنت تخشى أن تموت بعلّة
عوفيت منها واسترحت قريرا
حتى إذا وفّيت عمرك وانتهى
أجل قضاه الله متّ كسيرا
فالموت لايدع السليم معمرا
لم يدر إنسان له إكسيرا
إن القوىّ مع الضعيف كلاهما
يمضى طويلا عُمرًا وقصيرا
يا من قتلتِ «أنيسنا» فى مجمع
(م)الفصحى قتلتِ البحث والتحريرا
هل لا علمتِ بأن قتلك مؤمناً
خطء نهاه الله كان كبيرا؟
نفس بنفس شرعة لكنّنا
لانستطيع لآلة تكفيرا

قد كان « إبراهيم » حجة قومه
يجلو بآلات الحساب عسيرا
أحصى الحروف ونظمها فى نطقنا
حتى غدا بين الثقاة خبيرا
يا رائد البحث الحديث تحية
فاحت شذى من ذكركم وعبيرا
من يقتف الآثار فى أبحاثكم
يصبح بهديك عالماً نحريرا

أنشأت مدرسة « بدار علومنا »
تعطى على مر الزمان كثيرا
مهما تجاوزت المدى مترحماً
عد الدعاء لفضلكم تقصيرا
يا من رجعت إلى إلهك راضياً
يجزيك ربك جنة وحريرا

كلمة الأسرة – للدكتور عبد العظيم أنيس

شقيق الفقيد :

الأستاذ الدكتور رئيس المجمع / السادة أعضاء المجمع / سيداتى وسادتى :

أرجو أن تسمحوا لى أن أتقدم – باسم الأسرة – بخالص الشكر والامتنان ، إلى مجمع اللغة العربية – رئيسا وأعضاء – على موقف الوفاء النبيل الذى بدا منهم جميعاً إثر فجيعة فقد المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى الحادث الأليم الذى وقع فى شهر يونيه الماضى .

وإذا كانت وفاته خسارة لاتقدر بثمن للمجمع ولجميع الباحثين فى علوم اللغة واللهجات ، وهو الذى وقف حياته للبحوث الجادة وللتجديد فى هذه المجالات . . . فقد كانت وفاته المفاجئة صدمة عنيفة لأسرتنا ، لأنه كان رب هذه العائلة ، المشغول دائما بمشاكلها وهمومها ، المشير دائما بالنصيحة لكل أعضائها ، والساعى إلى الخير من أجل الكبير والصغير فيها .

ولست أستطيع – بعد كل ما قيل هنا اليوم عنه وعن مؤلفاته وبحوثه – أن أتطفل على هذا المجمع الجليل بشىء أعرف أنه لن يكون جديداً فى اهتماماته العلمية . فلم أكن غير واحد من قراء كتبه ، ولست متخصصا فى علوم اللغة حتى أبدى رأيا فى مثل هذا المكان الموقر .

ولكن اسمحوا لى أن أبدى بعض انطباعات عامة ترسبت فى وجدانى من طول معاشرته ، ومن هذه العلاقة الوثيقة التى تجمع عادة بين أكبر الأشقاء وأصغرهم .

[illegible] ـحوم الدكتور إبراهيم فى قلوبنا [illegible] محبة اللغة العربية واحترامها وكان [illegible] يتمتع بالشعر والأدب ، حتى ولو كنا [illegible] تخصصات مختلفة ، وما زلت حتى [illegible] كان أيام شبابه يقرأ علينا [illegible] ينظمها فى المناسبات السياسية [illegible] مسرحياته التاريخية ، فنطرب لها أشد [illegible] ونسعد بها أعظم سعادة . . . حتى [illegible] وصلت إلى المرحلة التوجيهية فى التعليم [illegible] طويلا بين دخول الشعبة الأدبية [illegible] فى آداب اللغة العربية وبين دخول شعبة [illegible] الرياضيات لأتخصص فى فروعها . وكانت نصيحته — رحمه الله — هى الفيصل [illegible] أشار على وهو فى البعثة ببريطانيا [illegible] كلية العلوم للمحافظة على [illegible] الأدبية قدر الامكان .

وقد كانت أشد ما يشد انتباهى فى حياته هو [illegible] لا يحد لعمله الأكاديمى وبحوثه حتى بعد [illegible] إلى التقاعد .

[illegible] أذكر أننى ذهبت مرة لزيارته [illegible] موعد [illegible] لم أجده جالسا إلى مكتبه مكباً [illegible] مراجعه أو مراجعاً لشيء يكتبه . وكنت [illegible] أشفق عليه من هذا الإرهاق الذى كان [illegible] حتى وهو مريض ، وعندما كنت [illegible] فى هذا كان يقول مبتسما: « إن هذا [illegible] هو حياتى الآن » . وعندما أصابه المرض منذ أكثر من عامين ظل يواظب على التردد أسبوعيا على مركز الحساب العلمى بجامعة القاهرة (معهد الإحصاء) على ما فى هذا من مشقة وعناء ، تشوقا إلى معرفة نتائج الجداول اللغوية التى كان يخرجها الحاسب العلمى (الكمبيوتر) له .

أما الأمر الثانى الذى كان يشد انتباهى فهو اتساع أفقه فى ميدان بحوث اللغة واقتناعه العميق بأن الحواجز التقليدية بين فروع المعرفة المختلفة ليست إلا حواجز وهمية فى كثير من الأحيان ، وأن العالم الحقيقى لا يستطيع أن يستغنى فى عمله عن الاستفادة من إمكانات الفروع الأخرى من المعرفة . ولعل دراسته بجامعة لندن سنوات طويلة هى التى غرست فى أعماق نفسه هذا الاقتناع . ومن هنا كان حرصه على الاستفادة من الدراسات اللغوية الأوربية مع اقتناعه بوجود فوارق أساسية بينها وبين اللغة العربية ، واهتمامه بمجالات المعرفة — كالإحصاء والرياضيات — تبدو شديدة البعد عن العلوم اللغوية ، وحرصه على الاستفادة من إمكانات الحاسب العلمى أعظم استفادة ، ومازلت أذكر أننى قرأت منذ أكثر من عامين فى إحدى المجلات العلمية البريطانية بحثا عن نموذج رياضى — احتمالى فى وصف بعض خواص اللغة الإنجليزية . ولما حدثته عن هذا البحث تلفونيا أصر على أن أذهب لزيارته

ومعى المجلة لأخلص له البحث . وعندما دهبت ناقشنى طويلا فى الفروض اللغوية لهذا النموذج رغم جهلى الكامل بكثير من أسرار اللغات التى كان يتحدث عنها .

سيداتى وسادتى :

إذا كانت كتب الدكتور إبراهيم أنيس وبحوثه المنشورة شاهدا واضحا على هذا التفرد والتجديد الذى ميزه فى علوم اللغة ، فإن هناك جانباً آخر من إنتاج شبابه قد لايعلم الكثيرون هنا عنه شيئاً . . . أعنى شعره ومسرحياته التاريخية ورواياته،وإن أملى لكبير أن نستطيع نحن أعضاء أسرته أن ننشر هذا الجانب من مؤلفاته ، وأن يجد هذا العمل من المجمع تشجيعاً ودعماً .

إن علاقة المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس بالمجمع علاقة وثيقة وقديمة ، بدأت قبل انتخابه عضوا به بسنوات طويلة . بل لعلى لا أبالغ إذا قلت أن علاقة أسرتنا بالمجمع وثيقة وقديمة أيضا . وإن أملى لكبير فى أن نظل فى خدمة هذا العمل الجليل الذى تضطلعون به فى ميدان اللغة العربية على طول السنين .

وفى الختام أكرر الشكر – باسم الأسرة – لأسرة المجمع ولأسرة دار العلوم ولجميع من شاركوا فى هذا الاجتماع الجليل بالاعداد أو الحضور .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع:

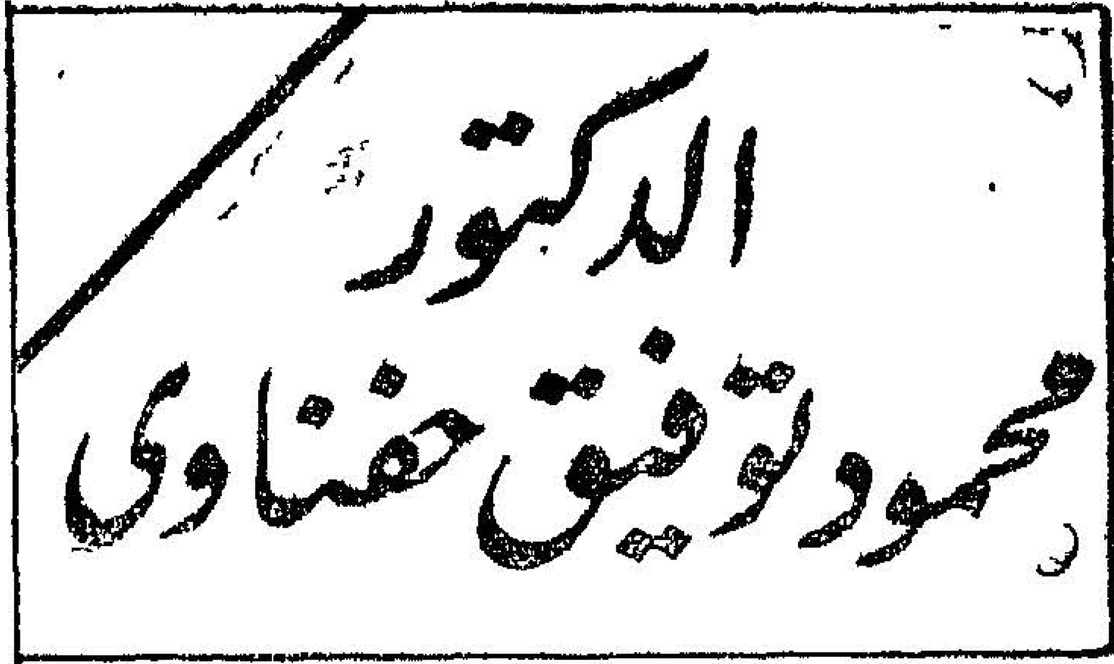
لايسعنى فى ختام هذا الحفل إلا أن أشكر كل من شاركنا فيه وتفضل بالحضور إلى هذا المكان، وإنى لعلى ثقة من أن هذا كله ليس إلا أثراً من آثار فقيدنا الكريم.أسكنه الله فسيح جناته بقدر ماأسدى لوطنه من جليل الخدمات ، وعوضنا عنه خيراً .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٨ من ذى القعدة ١٣٩٧هـ الموافق ٩ من نوفمبر ١٩٧٧ أقام المجمع حفل تأبين المرحوم الدكتور محمود توفيق حفناوى عضو المجمع.

وفيما يلى ما ألقى فى الحفل من كلمات :

كلمة الافتتاح

للدكتور ابراهيم مدكور
رئيس المجمع
فى تأبين المرحوم :



سيداتى ، سادتى :

جرت سنة هذه الدار على أن تستقبل وتودع ، تستقبل الوافدين ، وتودع الراحلين . وكم فى الاستقبال من غبطة وبهجة ، وكم فى الوداع من أسى ولوعة . وفى الثالث من يناير عام ٦٣ ، استقبل المجمع بين ثلاثة من كبار العلماء ، شيخا من شيوخ الزراعيين هو الدكتور محمود توفيق حفناوى ، وحرص على أن يتولى استقباله علم من أعلام المجمعيين والشاعر الأول لعصره وهو المرحوم عزيز أباظة .

وقد وفاه حقه فى كلمة من كلماته الخالدة وقطعة من أدبه الرفيع ، حلل فيها شخصيته ، وعرف بمواهبه وعلمه وخبراته .

ونرجع بصلتى بفقيدنا الكريم إلى ماقبل ذلك بسنين ، فقد عرفته فى مجلسين من مجالسنا العامرة بالأدب والحكمة ، والتوجيه السديد ، والرأى الصائب ، والنقد النزيه ، وأعنى بهما مجلسى لطفى السيد ، وبهى الدين بركات .

وكان لتوفيق حفناوى فى هذين المجلسين نظرة ومكانة ، ولما يبدى فيهما من تعليق أو ملاحظة وزن وقيمة .

وكنا نسعد بلقائه ، ونأنس لحديثه ، ونحس بغيابه ، وليتنا عنينا بتسجيل قدر كثير مما كان يدور فى هذين المجلسين .

وزاملنا الفقيد الكريم فى مجمع الخالدين نحو خمس عشرة سنة ، وما كان أشبهه بالنسمة الهادئة واللفظة العذبة ، وما كان أصدق تعبيره عن النفس الزكية والروح الطيبة :

وقد شاء أن يقف جهوده معنا أساسا على علوم الأحياء والزراعة ، وهو أستاذها وشيخ شيوخها ، فانضم إلى لجنتها وعنى بلغتها ، وحدد مصطلحاتها ، ووضح مدلولاتها ، وأصبح فى هذه اللجنة رئيس مدرسة ، بين تلاميذه وزملائه .ورغب أخيرا - معبرا عن لجنته كلها - فى أن نخرج مما أقره المجمع معجما علميا متخصصا فى علوم الأحياء والزراعة ، ورحبنا جميعا بهذه الرغبة ، ويسرنا لها ماوسعنا وسائل الإنجاز والتحقيق . ولكن أبطأ بها الزمن مع الأسف ، ولم يقدر لمعجم علوم الأحياء أن يرى النور فى حياته .

وها نحن أولاء نودعه اليوم ، ومن واجبنا وفاء له أن نحقق مارغب فيه ،وأن نخرج هذا المعجم على النحو الذى كان ينشده ، ولا أشك فى أن لجنة علوم الأحياء والزراعة ستنهض بهذا العبء ، وستؤدى الأمانه على وجهها .

أما وداعه فأولى به منى أحد تلاميذه وزملائه ، وسيقول كلمة المجمع فيه الدكتور محمود حافظ ، وتليها كلمة الأسرة على لسان السيد خليل محمود توفيق نجل الفقيد .

تغمد الله فقيدنا برحمته ورضوانه ، وجزاه عنا خير الجزاء .

كلمة الدكتور محمود حافظ عضو المجمع :

الأستاذ الجليل رئيس المجمع :

الأساتذة الأجلاء أعضاء المجمع — سيداتى وسادتى :

يشق على أن أقف اليوم لأؤبن فقيدنا العزيز عضو المجمع المغفور له الأستاذ الدكتور محمود توفيق حفناوى، وكان بالأمس القريب بيننا ملء السمع والبصر، عقلا راجحا وفكرا ثاقبا، ولكن هذه سنة الحياة، مانحن إلا ودائع فى هذه الدنيا تسترد فى ميقات يوم معلوم، وتمضى إلى الرفيق الأعلى لتحيا حياة هى خير وأبقى .

وكل حى إلى فناء، وكل نفس ذائقة الموت ، ولكل إنسان أجل محتوم وقدر مقدور « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » صدق الله العظيم .

سيدى الرئيس :

يعلم الله كم أشفقت على نفسي عندما طلبت إلى أن ألقى كلمة التأبين عن الراحل الكريم لأنى استشعرت بالعجز عن الحديث عنه

كما ينبغى أن يكون الحديث عن رجل عظيم ؛ فاست ممن يملكون ناصية اللغة والبيان لأعبر أصدق تعبير عما يعتلج فى الصدور من مشاعر الأسى، على فراق هذا الفقيد العظيم أو أصور لكم قدره الحق كرائد جليل من رواد الحركة العلمية فى مصر، أبلى أحسن البلاء فى ميدان العلوم الزراعية، وأدى لوطنه أجل الأعمال، وأنشأ جيلا بل أجيالا من العلماء والزراعيين تفخر بهم مصر والعالم العربى .

ولكنى صدعت بالأمر وما أحاول قدر استطاعتى ومكنتى أن أقوم بمهمتى، وأستميحكم العذر إن أنا قصرت فى الإحاطة بكل جوانب هذه الشخصية الفذة وأعمالها الخالدة.

وإذا كان هذا المجمع الموقر قد استن هذا السنن الحميد؛ وهو أن يكرم أعضاءه الذين مضوا إلى رحاب الخالدين، وأن ينشر لهم صفحات ناصعة وضاءة من تاريخهم المجيد وإنجازاتهم الرائعة، لنستشف من خلالها الحكمة ونستوحى منها العلم والمعرفة، ونرى فيها المثل الرفيع والقدوة الصالحة. فإن المجمع بذلك يضرب أروع الأمثال فى الوفاء، فى زمن عزّ فيه الوفاء .

سيدى الرئيس — سيداتى وسادتى :

عرفت الفقيد العظيم قرابة عشرين عاما ولكن معرفتى به توطدت، وازدادت آصرة المودة والصداقة بيننا عاما بعد عام، وكان حينذاك قد أوصانى بابنه خيرا، والذى كان فى مستهل حياته طالبا بكليه العلوم يدرس علوم الحياة ، ثم تخصص بعد ذلك فى دراسة علم الحشرات ، وكان لى بمثابة الابن الروحى تعهدته بالرعاية العلمية والتشجيع المتصل لما لمسته فيه من مخايل الذكاء وصفاء الذهن والقريحة الوقادة ، وكأنه صورة مصغرة من والده العظيم ، وحصل ذلك النابغة على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف الأولى، ثم تابع دراسته العليا معى، فحصل على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه فى زمن قياسى، دليلا على نبوغه وتفوقه. ولا يمكن أن أصف فى كلمات كيف كان والده يتابع فى فرحة غامرة فلذة كبده وهو يدرج فى مدارج الرقى مرحلة إثر مرحلة، وكان يسألنى دائما عن مدى تقدمه كلما التقينا فى رحاب هذا المجمع، وكان يقول لى : إن ابنى توفيق هو الوحيد بين أبنائى الذى سلك الطريق العلمى والأكاديمى" نفسه الذى مضيت فيه فى مستهل حياتى. وكان دائم الدعاء له بالتوفيق والسداد . ولم أره قلقا تنتابه الهواجس كما رأيته حين شد ابنه الرحال إلى نيروبى فى كينيا للعمل بالمركز الدولى لبحوث الحشرات وهو مركز يختار الصفوة الممتازة من شباب الباحثين النابغين، للقيام بالبحوث العلمية فيه ؛ لم أره قلقا كما رأيته فى تلك الأيام كأنه كان يقرأ صحف الغيب ويتوجس من شئ يخبئه القدر، وهو الذى امتحنه ربه قبل ذلك بسنوات، حين فقد وحيدته وحبيبته فى كارثة من كوارث الطيران، فكانت

نائبة كبرى من نوائب الدهر هدت من كيانه ، وعصفت بكل أركانه .

وكأن الأقدار لم ترحم هذا الشيخ المكلوم فامتحن مرة أخرى منذ سنة وبضعة أشهر حين فقدقرة عينه،ولده النابغةالدكتور توفيق بعيدا عن الوطن فى نيروبى، فىحادثة أليمة من حوادث السيارات، وهو الذى رحل إليها بغية الاستزادة من العلم والمعرفة — ويعلم الله كم أخذتنا الحيرة ونحن نفكر مع أسرته الكريمة كيف ننقل خبر هذه الفاجعة الأليمة إلى الفقيد، وقلوبنا واجفة، ونحن نعلم شدة وقعها عليه كما نعلم كم كان هذا الابن أثيرا لديه، بل كان أمله المرتقب وأمنيته المبتغاة .

ولا أكون مبالغا إذا قلت: إن هذه النازلة التى نزلت بالفقيد قد عجلت بمنيته؛ فقد حطمت كيانه وقوضت بنيانه وأفقدته الرغبة فى الحياة وكان يردد بين الآن والآخر فى هذا المكان ونحن نتابع عملنا بالمجمع أنه برم بالحياة وسئمها . بعد الذى نزل به من ملمات ولم أكن أدرى وأنا أشد على يده قبيل وفاته أنى أودعه الوداع الأخير وأن هذه الروح الزكية الطاهرة ستمضى إلى بارئها بعدقليل لتصبح فى ذمةالتاريخ ذكرى.

جرت عادة الدنيا بكل الذى نرى
وليس لما صرف لما تتعود
فصبرا وتسليما لكل ملمة
إذا لم يكن يوما عن الخطب مبعد

ولد الفقيد فى الحادى والثلاثين من شهر مارس عام ١٨٩٤ وتلقى أولى تعليمه فى الكتاب شأن الكثيرين فى ذلك الزمان ثم التحق بمدرسة الناصرية ليتلقى تعليمه الابتدائى، ثم بالمدرسة السعيدية ليتابع دراسته فى المرحلة الثانوية، وفى كلا المرحلتين كان شديد الإقبال على درسه جادا فى عمله يزينه عقل راجح ورزانة بادية وكان متفوقا على أقرانه. ثم التحق بعد ذلك بمدرسة الزراعة العليا ، ساقة إليها ميل طبيعى نحو العلوم الزراعية ؛ وتابع دراسته فى جد ومثابرة ومضى يرقى من سنة إلى أخرى ملفتا إليه الأنظار لنبوغة وتفوقه حتى حصل على دبلوم الزراعة العليا عام ١٩١٧ ، وكان ترتيبه الأول بين زملائه من الخريجين فى ذلك العام . وبعد تخرجه عين بوزارة الزراعة، وقضى بها أربع سنوات بالوظائف الفنية بمصلحة البساتين إلى أن أوفد فى بعثة علمية إلى جامعة كمبردج بإنجلترا عام ١٩٢١ وهناك برزت مواهبه وتفتقت قريحته وخلال السنوات الثلاث التى قضاها بتلك الجامعة العريقة بهر أساتذته بتحصيله ، وسعة اطلاعه وخلقه. وحصل فى النهاية على درجة تريبوس فى العلوم البيولوجية بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٢٤؛ وهو العربى الوحيد الذى حصل على هذه المرتبة من هذه الجامعة على أرجح الأقوال .

وقد كتب أحد أساتذته بجامعة كمبردج يقول عنه: « كان طالبا ممتازا متمكنا أعظم تمكن من مادته، ذلك إلى جانب مايملكه من قدرة وسعة تفكير يبلغان أعلى المستويات».

وعاد الفقيد بعد ذلك إلى الوطن فعين عام ١٩٢٤ مدرسا للمواد البيولوجية والوراثية بمدرسة الزراعة العليا، ثم كبيراً للأخصائيين بوزارة الزراعة (مصلحة البساتين) عام ١٩٢٦ ، وفى العام التالى عين أستاذا مساعدا لعلم النبات بكلية العلوم بالجامعة. وفى عام ١٩٣٠ اختير لكفاءته البارزة ناظراً لمدرسة الزراعة العليا ، ولم تكن سنه قد جاوزت السادسة والثلاثين بعد، وعندما انتظمت هذه المدرسة فى عقد الكليات الجامعية عام ١٩٣٥ اختير الفقيد عميدا لها فكان بذلك أول عميد لكلية الزراعة بجامعة القاهرة، ولم تمض سنوات أربع حتى سعت إليه الوزارة فعين وزيراً للزراعة، وفى عام ١٩٤٤ عاد إلى وزارة الزراعة مستشارا فنيا لها، ثم أهلته مكانته العلمية الدولية وذيوع صيته كعالم زراعى من الطراز الأول إلى اختياره بعد ذلك مديرا إقليميا لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة لهيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٦، وظل فى هذا المنصب الكبير أحد عشر عاما يشغله بجدارة واقتدار .

سيدى الرئيس — سيداتى وسادتى :

تمرس الفقيد بالبحث العلمى والزراعى سنين طويلة ، وأبلى فيه بلاء حسنا ونشر الكثير من البحوث القيمة ؛ طرق فى بعضها آفاقا جديدة لم يسبقه إليها أحد فى مصر وكان رائداً فى أكثر من مجال من مجالات العلوم الزراعية، ويمكن القول دون مجاوزة للحقيقة إن أول بحوث علمية زراعية أجريت فى مصر بيد المصريين قد أجراها الفقيد ، إذ لم ينشر أو يكتب قبله فى علوم الزراعة إلا مشاهدات أو مقالات أساسها الخبرة وليس العلم والبحث العلمى المدعم بالأرقام وقد نشر أول بحوثه منذ نحو ستين عاما ولم يمض على تخرجه إلا مدة وجيزة مما يدل على تأصل روح العلم والبحث العلمى فيه .

وبنظرة فاحصة لهذه البحوث يتبين أن الفقيد كان يضع يده على الموضوعات الزراعية البكر، ويتناولها بالدراسة الجادة والتمحيص الدقيق وشق فيها دروبا جديدة للباحثين من بعده، فبحثه عن الفلورا المصرية الذى نشر فى فى عام ١٩٢٢ هو أول ماكتبه مصرى لتعريف النباتات المصرية ، وقد تبعه الكثيرون من الباحثين فى الفلورا المصرية التى لم يكن قد كتب عنها من قبل إلا القليل من الأجانب الزائرين ، أمثال «دليل» إبان الحملة الفرنسية ثم «شوينفورت» «وسترا سبيرجر» منذ عشرات السنين، وقد تبع الفقيد الكثيرون فى تعريف

النباتات المصرية مثل «أوليفر» «وتاكهولم» ودارز ،وحسيب وغيرهم .

كما أن استنباط الفقيد لنوع جديد من اللوبيا المنيعة على مرض الصدأ وهو أخطر الآفات التى كانت تقضى على المحصول فى بلادنا كان أول استنباط لمحصول فى مصر ، منيع لاتصيبه الأمراض،ذى صفات خاصة مطلوبة . وقد مضى الباحثون إثر هذا فى استنباط محاصيل عدة لها صفة المناعة فاستنبطت أنواع القمح المنيعة على الصدأ وأصناف القطن المبكرة التفتح وغير ذلك مما درّ على البلاد فوائد جمة،ووفر ملايين الجنيهات كانت تذهب هباء كل عام ضحية أمراض النبات .

وفى مجال التعليم — تعليم العلوم الزراعية خاصة — كان الفقيدمعلما ورائدا ومجددا من الطراز الأول فقد خص مدرسة الزراعة العليا بعنايته البالغة عند ما ولىأمرها وعمادتها سنة ١٩٣٠، وبذل جهودا متصلة خلال سنين عدة لتطوير برامج الدراسة بها وأحوالها وكانت الدراسة بهذا المعهد تكاد أن تكون مقصورةعلى المواد العلمية الزراعية والتطبيقية التى اكتسبت بالخبرة والتجربة وعلى القليل من العلوم البيولوجية الأصلية لذلك لم يجد الفقيد بدا من تغيير هذا الوضع بأكمله وأدخل من المواد والموضوعات ماهو ضرورى لتفهم العلوم الزراعية وإرسائها على أسس علمية رصينة وحديثة ومن بين هذه المواد والمقروات العلمية التى أدخلها الفقيد فى الدراسة لأول مرة . أو المواد التى عمل على تطويرها : مادة الأراضى والمخصبات ، وكيمياء التغذية والكيمياء الحيوية والوراثة وتربية الحيوان والنحالة والصناعات الزراعية . وإنشاء وتنسيق الحدائق والنباتات الزهرية وتصنيف النبات ، كما أنشا عددا من الأقسام الجديدة لهذه المواد وبذلك تحولت مدرسة الزراعة العليا إلى كلية زراعية حديثة تجرى البحوث العالية وتأخذ بأسباب العلوم الحديثة ، ولها من المقومات ماتواكب به مقتضيات العصر وتؤدى رسالتها نحو المجتمع على خير وجه .

كما عنى الفقيد بتنشئة جيل قوى من العلماء فى شتى العلوم الزراعية بالتنمية الذاتية من ناحية وبإرسال البحوث إلى أوربا وأمريكا للتخصص فى العلوم الزراعية المختلفة، وبذلك أنشأ قاعدة علمية راسخة وسد نقصا كبيرا فى بيئة التدريس والباحثين المؤهلين . ومامن أستاذ من من الأساتذة المرموقين بالكليات الزراعية أو فى معاهد البحوث أو الزراعيين البارزين فى مختلف القطاعات إلاتتلمذ على الفقيد . وقد أسهم هؤلاء بقسط كبير فى النهوض بالتعليم الزراعى، وبالبحوث العلمية الهادفة نحو تدعيم ثروتنا الزراعيةواقتصادنا القومى

وقد بلغ الكثيرون منهم مكان الصدارة بين العلماء والوزراء، وشغلوا مناصبهم بجدارة فائقة .

كما أن الفقيد هو أول من أنشأ قسم الدراسات العليا لدرجتى الماجستير والدكتوراه بكلية الزراعة بجامعة القاهرة ، وقد تخرج فيه الكثيرون من المتخصصين فى مصر والبلاد العربية .

سادتى الأجلاء :

عندما تولى الفقيد وزارة الزراعة منذ ثمانية وثلاثين عاما أخذ يسوس أمورها بحنكة بالغة ، ودراية كبيرة، وقام بأعمال مجيدة وإنجازات رائعة ، كان لها أحسن الأثر فى تنمية ثروتنا الزراعية والحفاظ عليها. ويجدر بى فى هذا المقام أن أذكر بعضا منها :

فقد لاحظ تدهور سلالات المحاصيل الزراعية ، خاصة القطن ، ووجد أن سبب ذلك هو زراعة السلالات المختلفة متجاورة ولذلك قسم الجمهورية إلى مناطق، وخص كل منطقة بصنف من أصناف القطن يزدهر نموه فيها ؛ وصدر تبعا لذلك قانون بتحديد مناطق زراعة أصناف القطن وذلك تفاديا لتدهوره وحفاظا على السلالات نقية دون خلط ميكانيكى أو تلقيح نباتى .

كما عمل الفقيد على تحسين صفات الحيوانات المصرية من حيث كمية الإدرار والدسم واللحم ، وخاصة فى الأبقار والجاموس وذلك بتربية سلالات تحمل هذه الصفات كما شجع البحوث لاستنباط أنواع من المحاصيل منيعة على الإصابة بالأمراض . وكان الفقيد من أوائل المفكرين فى زراعة الفاكهة فى الأرض الرملية فى مصر وإخراج هذه الأفكار إلى حيز التنفيذ، بإنشائه مزارع أنشاص والجبل الأصفر وغيرها ، مما أضاف قدرا كبيرا إلى إنتاج الفاكهة وخاصة الحمضيات .

كما درس الفقيد ما نحتاجه من المحصول الخشبي ووجه الأنظار إلى سد النقص من الأخشاب المحلية، فسن قانون الأشجار الخشبية مما أفاد البلاد فائدة كبيرة ، وشجع البحوث لانتخاب الأصناف الصالحة للتصنيع . وكذلك استقدم الفقيد الكثير من النباتات الاقتصادية والتى لم تكن معروفة فى مصر إبان رحلته الشهيرة إلى أندونيسيا وسيلان عام ١٩٣٣ ، وكتب فى ذلك مع بعض معاونيه تقريرا قيما نشر عام ١٩٣٥ وقد ذيله ببيانات مستفيضة بأسماء النباتات التى استقدمها من هذه البلاد النائية من بلاد الشرق الأقصى ، وقد أحصيت منها بضع مئات بين شجر وبذور، وقد كتب عن كل نوع وصفا موجزا للنبات ، تضمن

فائدته والهدف من استقدامه واسمه باللغة اللاتينية ،والتقرير مرجع علمي يعتد به عن نباتات هذه البقاع ، وقد أفادت مصر منه فائدة علمية وعملية .

وكان الفقيد من أوائل من نادوا باستخدام المياه الجوفية فى رى الحياض ريا صيفيا لاستكمال استغلالها فى زراعة محاصيل صيفية، بالإضافةإلى المحاصيل الشتوية التى تنتجها بالرى الحوضى .

سادتى الأجلاء :

قدّر المجتمع الدولى الفقيد حق قدره لخبراته الزراعية الواسعة وعمله الغزير فانتخب عام ١٩٤٦ مديرا للمركز الإقليمى لدول الشرق الأوسط التابع لمنظمة الأغذية والزراعة ، وهى إحدى المنظمات الدولية لهيئة الأمم المتحدة ، وظل يشغل هذا المنصب أحد عشر عاما طاف خلالها ببلاد الشرق الأوسط وأجرى دراسات رائدة عن نظمها الزراعية، ويسر لها الكثير من أمورها وسرعان ماانضمت هذه البلاد إلى المنظمة الدوليةوحصلت بجهوده على خدمة الأخصائيين لها، وقد فتح الباب على مصراعيه للعلماء والمتخصصين للعمل فى هذه البلاد واكتساب الخبرات بها ، وإفادتها فى الوقت نفسه من تجاربهم وخبراتهم . كما جعل الفقيد مدينة القاهرة مقرا للمركز الإقليمى للمنظمة الدولية ، مما أتاح لها أن تكون الإشعاع الزراعى لمنظمة الشرق الأوسط .

وإبان عمل الفقيد فى هذا المركز الدولى للأغذية والزراعة كان مما يشغل باله الزيادة المضطردة فى عدد السكان ، مع ضيق الرقعة الزراعية فى مصر ؛ فاتجه اهتمامه إلى موضوع تنظيم النسل كأحد الوسائل التى تساعد فى حل هذه المشكلة ، مستهدفا تحقيق مستوى معيشى مناسب لأفراد الشعب ، وكتب فى ذلك كثيرا ، كما ألقى محاضرة فى هذا الموضوع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بدعوة منها فى الثانى من فبراير عام١٩٥١ عنوانها « هل الإصلاح الاجتماعى يحتاج إلى تنظيم النسل فى مصر؟ » وقد نشرت هذه المحاضرة فى كتيب قيم استعرض فيه المحاضر زيادة النسل فى العالم ، والإنتاج العالمى من الغذاء وكفايته ثم تناول الموقف فى مصر والإنتاج المحلى والرقعة الزراعية وكفاية المحصول ، وبعد ذلك عالج الموضوع اقتصاديا واجتماعيا وركز على ضرورة تنظيم النسل ، واقترح الحلول العملية المناسبة لذلك.

سيدى الرئيس — سيداتى — وسادتى :

شرف الفقيد الكريم بعضوية هذا المجمع الموقر — مجمع الخالدين — عام ١٩٦٢ وقد استقبله فى ذلك الحين رائد عظيم من رواد

الأدب والشعر هو المغفور له الأستاذ عزيز أباظة، ويطيب لى أن أنقل هنا سطورا من كلمته الرائعة فى وصف الفقيد؛ إذ قال: «إنه رجل أسنى الله حظه من قوة الحجة ومن سداد المنطق، يلقى بحجته الفاصلة هادئا كأنما هى حجة داحضة، ويصدع بمنطقه المستحصد مخافتا، ويظفر بالدليل من أقرب سبيل، ثم يدفع به إلى صميم مستقره دون ماانشغال بالحواشى أو تحف بالفضول كل ذلك فى غير تظاهر أو دعوى».

ثم بعد ذلك قال مخاطبا الفقيد: «إن المجمع حين آثرك فضمك إليه كان على بينة من أنه يشد أزره منك برجل لغة ونحو وبلاغه وأدب، وكان على بينة أيضا، وذلك على خلاف ما استقر فى أذهان العامة، من أن هذه المجامع ليست مقصورة على خلفاء الأصمعى وأبى عبيدة وسيبويه، ولكنها تقوم على جهود هؤلاء تظاهرها وتظافرها جهود العلماء فى ألوان العلوم كافة. ومن أجل ذلك لن يشق عليك المجمع ولن يكلفك أن تبسط له علمك ديابيج الجاحظ وعبد القاهر؛ ولكنه مقتضيك أن تحيل معارفك إلى معان واضحة؛ وذلك هو أسلوب العلماء».

ومنذ ذلك التاريخ وطوال خمسة عشر عاما إلى أن وافاه الأجل المحتوم ظل الفقيد العزيز يعمل فى لجان المجمع وجلساته ومؤتمراته فى همة لاتعرف الكلل، وقلما تخلف يوما عن اجتماعات لجنة علوم الأحياء والزراعة، التى كان فيها الركن الركين والرأى الصائب والفكر السديد وخاصة فى مصطلحات النبات والزراعة، لخبرته الواسعة وعلمه الغزير فى هذا المجال، وكنا نستعجل لقاء الأربعاء لنسعد بالاستماع إليه والإنصات له فقد كان رحمه الله حلو المعشر كريم الصحبة، نبيلا بكل معنى الكلمة، عالما بكل بكل معنى العلم.

وقد قامت لجنة علوم الأحياء والزراعة التى شرفنا بصحبته فيها — قامت بفضل جهوده وتوجيهاته بإنجاز نحو عشرة آلاف مصطلح فى علوم الحيوان والنبات والوراثة والزراعة، أضيف إلى هذا ماكان يحول للجنة من أسماء النبات والحيوان التى ترد بالمعاجم اللغوية التى يصدرها المجمع كالمعجم الوسيط والمعجم الكبير.

وكان رحمه الله دائم البحث فى القرآن الكريم لتحقيق أسماء النباتات الواردة فيه ويحاول معرفة مدلولها فى العلم الحديث، كما كان كثير الرجوع إلى دوائر المعارف وأعمال المستشرقين للاستزادة من المعرفة فى العلوم البيولوجية وتقصى الحقائق العلمية. وجمع طوال حياته مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العلمية والمعاجم اللغوية، ومنها أمهات الكتب القديمة فى علوم النبات

والزراعة ، وقد تفضل رحمه الله بإهداء بعض هذه الكتب إلى مكتبة المجمع ، كما زخرت مكتبة الفقيد بكتب أخرى كثيرة فى مختلف العلوم والآداب والفنون ، فقد كان قارئا مستوعبا ممتازا ، وكان يطرق فى حديثه معنا أبوابا كثيرة من المعارف الإنسانية.

ومنذ نحو أربع سنوات كتب كتابا عن « مصر والعرب عبر التاريخ » ضمنه لمحات تاريخية وبيولوجية ، وكان يعتقد أن التاريخ كان فى أول أمره سردا لفتوحات الملوك ومغامرات القواد ، ثم أخذ المؤرخون يفسرون التاريخ بالنظريات الاقتصادية وهو اتجاه صحيح ، ولكن هناك عوامل كثيرة أثرت فى التاريخ ، وغيرت من اتجاهاته فهو يقول : يعرف الذين درسوا بإعجاب معاوك الإسكندر الأكبر ونابليون وجنكزخان أن البعوضة أو البرغوث أو القمل بما نقلته من أمراض مميتة من أوبئة فتكت وقتلت من الناس والمحاربين أضعاف ما قتله هؤلاء القواد العظام مجتمعين ، وغيرت مجرى الحروب وبالتالى مجرى التاريخ .

وبالكتاب عرض لما كان للمصريين من فضل فى ابتكار التحليل النفسى والعلاج النفسانى ، قبل ظهور فرويد بمئات السنين ، كما تناول الكتاب موضوع اختلاط المصريين بالعرب ونتائج هذا التهجين ، وبالكتاب لمحات تاريخية أخرى غاية فى الطرافة تعكس اهتمامات الفقيد بمختلف المعارف الإنسانية .

وقبل أن تدركه المنية بنحو عامين ناقش الفقيد معنا فى لجنة علوم الأحياء والزراعة فكرة هو صاحبها ، وهى أن طلابنا فى المعاهد والجامعات فى حاجة ماسة إلى معجم بيولوجى وسيط على غرار معاجم بنجوين ، يتداولونه ويستعملون منه مصطلحات صحيحة أقرها المجمع فى علوم الأحياء والزراعة . ولما عرضت هذه الفكرة — فكرة إنشاء معجم من هذا النوع — على مكتب المجمع وافق عليها ، وقد بدأ العمل لتحقيقها فعلا وتأمل اللجنة أن يتم إنجاز هذا المشروع الذى الذى اقترحه الفقيد فى وقت ليس ببعيد .

ويجدر بى أن أشير هنا فى هذا المقام إلى أن اهتمام الفقيد بترجمة المصطلحات العلمية وتعريبها ووضع المقابلات الصحيحة لها باللغة العربية يرجع إلى أمد بعيد ، فمنذ أكثر من خمسين سنة عندما عاد الفقيد من البعثة عام ١٩٢٤ وبعد تغيير الدراسة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية فى مدرسة الزراعة العليا

قام بترجمة المصطلحات العلمية الإنجليزية ونقلها إلى العربية، وألف كتابين في علم الحيوان وفى علم النبات باللغة العربية؛ فكان رحمه الله من أوائل من كتب عن هذه العلوم باللغة العربية فى معاهدنا العلمية.

وقد امتد نشاط الفقيد إلى بعض الهيئات والجمعيات العلمية فى مصر؛ فكان عضوا بالأكاديمية المصرية للعلوم ورئيسا لها، وعضوا بالمجمع المصرى للثقافة العلمية، كما انتخب رئيسا للجمعية المصرية لعلم الحشرات عام ١٩٤٠، وقد ظل فى رئاسته للجمعية قرابة عشرين عاما، وكان كذلك من الرعيل الأول الذى أسس أول مجلس للبحوث العلمية فى مطلع الثلاثينات، والذى تحول بعد ذلك إلى المركز القومى للبحوث؛ أكبر قلعة للبحث العلمى فى مصر فى الوقت الحاضر، كما اشترك فى الكثير من المؤتمرات العلمية المحلية والدولية، وأسهم فيها بعلمه وخبرته.

وهكذا كان الفقيد ممن أرسوا قواعد النهضة العلمية فى مصر وسار بها شوطا بعيدا نحو التقدم، كما كان له دور كبير فى النهوض بثروتنا النباتية، وجهود رائعة مذكورة فى الميدان الزراعى فى مصر بالفضل والسبق والريادة فهو أبو الزراعيين بحق وعميدهم وإمامهم.

سيدى الرئيس — سيداتى وسادتى:

إذا كان سجل أعمال الراحل الكريم زاخرا هكذا بهذه الصفحات الناصعة الوضاءة، وإذا كان تاريخ الزراعة فى مصر حين يكتب سيكون الفقيد من معالمه الشاخصة ودعائمها الراسخة، فإنه أيضا كان على خلق عظيم.

كان طيب القلب دمث الطبع، رفيع النفس رقيق الحاشية عف اللسان، سمحا فى قوله وعمله، سمحا فى لقائه وحديثه، سمحا فى الشدائد؛ امتحن فى فلذة كبده فصبر وامتثل لقضاء الله، وامتحن حين عصفت به المقادير واستولى على أرضه التى فلحها وأصلحها وسواها وأنفق عليها كل ماله وجل معاشه فصبر، وامتثل لما خبأه له القدر وكان شديد الإيمان بالله وبما قسم له.

أستاذى الفقيد العظيم:

لقد مضيت هادئا إلى الرفيق الأعلى كما كنت هادئا فى حياتك؛ ولا أحسبك ودعت الحياة إلا راضيا، بعد أن قدمت لوطنك جلائل الأعمال، ونشأت أجيالا من أتباعك وحواريّيك يترسمون خطاك ويسيرون على نهجك

ويواصلون رسالتك الخالدة ، ولن ننسى أيها الراحل العزيز أنك كنت لنا فى هذا المحراب إشعاعا وإشراقا ، نتحلق حولك ونستمتع بطلاوة حديثك ، وعمق فكرتك وأصالة علمك ورجاحة عقلك .

لعمرى لئن خطفتك المنايا
وواراتك تحت ظلام الحفر
فمازلت فى كل نفس تعيش
عبيرا زكا وضياء غمر

رحمك الله رحمة واسعة، وأنزلك منازل الأطهار والأبرار ، فقد كنت فى الحياة نورا يهدى الناس سواء السبيل ، وستظل فى الممات ذكرى تنفع المؤمنين :

والسلام عليكم ورحمة الله

كلمة الأسرة للمهندس خليل توفيق حفناوى نجل الفقيد :

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذنا الكبير الدكتور رئيس المجمع :
السادة الأجلاء أعضاء مجمع الخالدين :

سيداتى سادتى :

أرجو أن تسمحوا لى، باسم أسرة المرحوم الدكتور محمود توفيق حفناوى ، أن أعبر عن عميق امتنان الأسرة لفيض اللفتات الكريمة التى أسبغها علينا المجمع رئيسا وأعضاء ، مشاركة فى العزاء ونعيا بالصحف ، ثم ختاما بهذا الحفل المقام اليوم ، ولاغرو فأنتم القدوة خلقا ، وأنتم القادة علما وأدبا .

ورغم ماكان يغلب الوالد من خجل ، وما يحاول أن يبديه من تواضع ، فإن الفخار كان دائما يغلبه بأستاذيته فى كلية الزراعة وعمادته لها ، وفى عضويته وانتمائه إلى مجمعكم الخالد ، تلك العضوية التى كان يرى فيها خير ختام لحياة وهبها قدر مااستطاع للبحث العلمى .

وليس من اليسير على من كان غير متمكن أن يخاطب أعضاء مجمع الخالدين الأجلاء ، أو ضيوفهم الذين تفضلوا بالمشاركة فى حضور هذا الحفل، وعلى رأسهم السادة أعضاء مجلس إدارة نقابة المهن الزراعية، لذلك أرجو أن تغفروا لى عجزى عن تقديم شكرى ، وشكر الأسرة لكم جميعا، فلا أجد مااستطيع أن أعبر به عن اعتزاز الوالد بزمالتكم ، كما أعترف بعجزى

... الدكتور رئيس المجمع

... الدكتور محمود حافظ

... دائما أن يقدم بحثا علميا ، ... قد ... غنيته العاطفة ، ومن العسير ... في ... شكر ، وأجاريه في الثناء .

وأدعو الله لكم جميعا صادقا مخلصا بطول العمر وموفور الصحة ، وأن تظل الشعلة التي تحملونها معلية لشأن لغتنا وعلومنا ، وضاءة متوهجة ، منتقلة من جيل لآخر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الختام للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع:

... هذا الحفل لايسعني إلا أن ... الحاضرين على مشاركتهم ... الكريم ، طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جنته ، بقدر ماقدم للوطن من عظيم الخدمات ، وعوضنا فيه خيرا .

استخدام اللغة العربية فى الحاسبات الالكترونية

مقترحات فى ندوة الخبراء التى عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية

تقرير مقدم من : الأستاذ محمد شوقى أمين – عضو المجمع

١ – استجاب مجلس المجمع لدعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية إلى الاشتراك فى ندوة خبراء استخدام اللغة العربية فى الحاسبات الألكترونية ، التى تعقد بمركز الحساب العلمى بجامعة عين شمس ، وقد تفضل المجلس فعهد إلىّ أن أمثله فى هذه الندوة .

وقد عقدت الندوة ثلاث جلسات موسعة ، أولاها فى صباح يوم الثلاثاء ١٣ من أبريل سنة ١٩٧٧ ، والثانية فى مساء ذلك اليوم ، والثالثة فى صباح يوم الأربعاء التالى ، وشهد هذه الجلسات ممثلون لبعض البلاد العربية ، كما شهدها ممثلون للهيئات والمؤسسات المتصلة بموضوع الندوة .

٢ – وفى هذه الجلسات ألقيت بحوث ومحاضرات ، وجرت مناقشة وحوار ، ويمكن إجمالى ما دار فى هذه الجلسات فيما يأتى :

أولا – عرض مقترحين أحدهما من الجمهورية العراقية ، والآخر من المملكة المغربية ، وكلاهما على تكامل وتوافق ، فى محاولة عملية لتطويع الكتابة ورقومها ورموزها للاستخدام فى الحاسبات الإلكترونية على أساس اختصار صور الحروف الكتابية بأوضاع وأشكال معينة .

ثانيا – عرض إخبارى لآلات طباعية ذات ذاكرة إلكترونية ، يستطاع بها قبول كل ما يعطى من صور الحروف ، فهى تلائم بين الحروف بحسب الصور المرسومة لها فى الكلمة من حيث التداخل أو التراكب ، ومن حيث اشتراك حرفين أو أكثر فى قالب واحد ، وبهذه الآلات وذاكرتها الإلكترونية لا تبقى ضرورة لاختصار صور الحروف فى الكتابة العربية ، بل هناك مجال للاستزادة من هذه الصور ومن تنويعها ، وقد ظهر لهذه الآلات نموذج عربى فى كندا ، وتبذل محاولات لتجريبه .

ثالثا – عرض فكرة ظهرت من نتائج الإحصاءات اللغوية التى أجريت على الحاسب الإلكترونى ، فقد تبين من الإحصاء أن بعض أمهات المعاجم فيها فراغات تزيد على أربعمائة لجذور من الحروف المتتابعة يعبر كل منها عن كلمة كان من المحتمل وجودها. وتهدف الفكرة إلى أن هذه الجذور يمكن

أن تستخدم فى إيجاد كلمات عربية تعبر عن مصطلحات علمية جديدة ، على أساس القيمة التعبيرية أو البيانية لأفراد الحروف أو مثانيها ، من خلال دراسات ابن جنى قديما والعلايلى حديثا .

٣ ـ ولما أعطيت لى الكلمة مرتين فى غضون هذه الجلسات الثلاث أوضحت ما يأتى :

أولا ـ إن مجال الندوة وإطارها لايتيحان بحال من الأحوال أن يبت فى نموذج معين للحروف والرقوم والعلامات التى يراد استخدامها فى الحاسب الإلكترونى على الصعيد العربى الشامل ، وأن من الخير الانتهاء إلى مواصفات دقيقة لأوضاع الحروف المختصرة ، بحيث تحتفظ بجوهر الحرف العربى السائد ، وبحيث تكفل يسر القراءة ، وبحيث يتوافر لها قدر من فنية الخط تسلم به من التشويه والتنكير ، دون التعجل بفرض نموذج خاص .

ثانيا ـ أن الحاجة الواعية إلى اختصار صور الحروف العربية فى الحاسب الإلكترونى فرع من الحاجة الواعية إلى مثل ذلك فى حروف الطباعة العربية بوجه عام ، ومن الخير ألا تكون هناك كتابات متعددة لاستخدام كل منها فى مجال مخصوص ، فلابدمن توحيد أسس الكتابة العربية فى مختلف مجالات استخدامها ، وإن روعى فى كل مجال ما تقتضيه أوضاعه من توسيع أو تضييق ، ومن تنظيم وتنسيق .

ثالثا ـ أن علاج مشكلات الكتابة العربية فى الطباعة العصرية ، قد مر بمراحل وأطوار عديدة من البحث والدرس ، وقدمت فيه مقترحات وآراء اشترك فيها عشرات من العلماء والخبراء باللغة والخط والطباعة ، وانتهى « مجمع اللغة العربية » فى القاهرة بها منذ نحو عشرين سنة إلى أساسين : محاولة اختصار صور الحروف إلى أقل عدد ممكن وذلك بتمثيل الحرف بصورة واحدة على إختلاف مواقعه من الكلمة ما أمكن ، والاحتفاظ بطبيعة الخط العربى ، وفنه ، لتجنب المباعدة بين القديم والجديد . ولم يكتف المجمع بهذا التأسيس ، بل رسم طريقة عملية ، وقدم نموذجا مطبوعا بهذه الطريقة نشره على نطاق واسع ، فلم تلبث دور الآلات الطباعية أن طبقته فى نماذج اجتهادية أو تعسفية ، فكان منها المقبول إلى حد ما ، ومنها غير المقبول لما فيه من عسر أو تشويه . إلا أن العنصر الذى فرض نفسه على الطباعة اليوم فى الصحافة وغيرها هو العنصر الذى نادى به المجمع ، ورسم طريقته ، وعرض نموذجه .

رابعا ـ أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ألفت لجنة فنية اشتركت فيها البلاد العربية لدراسة الأحرف الطباعية منذ سبع سنوات ، فخرجت من دراستها

بتوصيات تضع مواصفات فنية للحروف ، بمراعاة توحيد الصورة فى كل منها ، على نحو ماانتهجه المجمع ، ودعا إليه، وقد كنت ممثل المجمع فى هذه الندوة ومقررها .

خامسا — إن الجهاز العربى لمكافحة الأمية التابع للمنظمة العربية قد دعا لجنة من الخبراء والفنيين إلى دراسة مشكلات الكتابة فى نطاق محو الأمية ، وكان لى شرف الاشتراك فيها ، فاقترحت على اللجنة علاجا عمليا نشرته مجلة « تعليم الجماهير » ، هو الاقتصار على أبسط مظهر كتابى مألوف ، لمحو الأمية فى أقصر وقت بأيسر جهد ، وذلك فى حدود صورة واحدة لكل حرف بحيث تصلح لكل موضع من مواضع الكلمة ، وقد طبقت إدارة الجهاز ذلك فى تجربة ميدانية أسفرت عن نجاح ملحوظ ، فتقررت إعادتها ، مع استدراك ما صادفها من معوقات .

سادسا — إن هذه الجهود والنماذج والتجارب تدل على أن هناك رأيا عربيا عاماً يدنو من الإجماع على أن توحيد صورة الحرف العربى فى الغالب هو الطابع الحتمى للطباعة العصرية، وهو مظهر حروف المستقبل، ومن الواجب أن تتخذ الوسائل الإيجابية وتهيأ الإمكانات الواسعة فى رحاب جامعة الدول العربية ، لوضع ما سبق من الجهود والتجارب والنماذج تحت أنظار دارسيها من العلماء والخبراء الفنيين فى الخط والطباعة، لإخراج نموذج للكتابة العربية يحقق أهداف التيسير المنشود، ويعالج مشكلات الاستخدام فى أجهزة الحاسب الإلكترونى وأجهزة الإبراق بوجه خاص، وفى الطباعة بوجه عام. حتى يتسنى وضع هذا النموذج موضع التطبيق فى العالم العربى أجمع .

سابعا — إن إجراء ذلك كله لا يحول بين العالم العربى وبين حسن استقباله للآلات الطباعية ذات الذاكرة الإلكترونية التى تتسع للمئات من صور الحروف ، ولاشك أنها فى دقتها الفنية وفى مستواها الرفيع ، ليست ميسورة التناول ، ومن ثم لايتاح فيها شمول الاستخدام، بل ينحصر الحصول عليها والانتفاع بها فى مجالات محدودة ، أما الطباعة العربية العامة فى مستوياتها المختلفة فإن الوفاء بحاجاتها يتحقق فى نطاق الآلات الطباعية ذات الحروف المختصرة الميسرة .

٤ — هذا ، وقد أسفرت جلسات الندوة عن أمرين :

الأول — بيان مجمل لرءوس الأفكار والآراء التى عرض لها أصحاب البحوث والمناقشات، وخلاصتها ضرورة تطويع الكتابة

العربية للوفاء بحاجات التطور العصرى في الآلات الطباعية وفى أجهزة الحاسب الإلكترونى وأجهزة الإبراق وسائر أجهزة الإعلام الكتابى .

الثانى — مطالبة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بأن تتخذ الإجراءات فى جدول زمنى محدد لاستيعاب الجهود والنماذج والتجارب والمشروعات التى سبقت فى نطاق تيسير الكتابة العربية ، ووضعها تحت أنظار العلماء والخبراء الفنيين ، ابتغاء الوصول إلى صيغة معينة لهذا التيسير فى مختلف مجالات الاستخدام للغة العربية بكتابة عربية ، وذلك على مراحل من البحث والدرس والتجريب ، تمهيداً للعرض على المجامع والهيئات والمؤسسات المتخصصة ، والإقرار لما ينتهى إليه الرأى فى البلاد العربية عامة .

٥ — وأما فيما يتعلق بفكرة استخدام الفراغات المعجمية فى جذور الحروف المتتابعة للتعبير عن مصطلحات علمية جديدة ، فالذى أراه تعقيبا على هذه الفكرة أن الإحصاء اللغوى على الحاسب الإلكترونى له قيمته العلمية فى دراسة فقه اللغة ، وفى استخلاص ضوابطها الاشتقاقية ، وفى الموازنة بين ما انتهى إليه اللغويون الأقدمون من أحكام وما يسفر عنه الإحصاء الاستقرائى الدقيق من حقائق . وهو إلى جانب فائدته فى معرفة القوانين الصوتية التى تبيح تتابع بعض الحروف أولا تبيحه ، وفى الوقوف على الفراغات فى جداول الجذور الثلاثية — يفيدنا أجل فائدة إذا أحصينا به أبواب الأفعال وتصاريف الصيغ وضروب المشتقات ، للاهتداء بذلك فيما تعالج من توسيع أقيسة اللغة وضوابطها وأوضاعها العامة ، طوعا لمطالب التعبير العصرى واستخداماته .

ولكن الفكرة التى استهدفها البحث ، وهى الانتفاع بالفراغات فى جداول الجذور ، أى الأصول التى تؤدى معنى عاماً ، لتحميلها دلالة اصطلاحية جديدة ، لا أحسبها تقع موقع القبول ، مهما تكن القيمة التعبيرية للجذر حرفا أو أكثر ، بحسب ما قال « ابن جنى » وغيره من علماء اللغة فى قديم أو حديث ، ذلك لأن اختلاق دلالة اصطلاحية لحروف متتابعة لم يسمع تتابعها فى مأثور اللغة إنما هو اقتراف للغة مرتجلة ، ولا حاجة بنا إلى الارتجال فى لغتنا العربية ، ففيها من السعة والغنى ما يصرفنا عن افتعال صيغ لا أصل لها . وحسبنا من التوسع والتيسير إجازة استكمال مادة لم تسمع بقية تصاريفها فى أفعال أو مصادر أو مشتقات ، إذا مست الحاجة إليها ، أو جرى الاستعمال الحديث بها .

٦ – وأنتهز هذه الفرصة – فى ختام التقرير – لأوجه النظر إلى أن جهود المجمع فى تيسير اللغة وقواعدها وكتابتها وضبطها وإملائها تحتاج إلى مزيد من الإعلام بين صفوف الباحثين والدارسين بوجه عام ، فقد أظهر المنتدون حين عرضت عليهم بعضها أنهم يفاجئون بها ، وأنهم يتطلعون إلى الوقوف عليها ، والانتفاع بها ، فى أرجاء العالم العربى :

٢٥–٤–١٩٧٧

محمد شوقى امين

عضو المجمع

وقرر مجلس المجمع بجلسته المنعقدة فى ٢٥–٤–١٩٧٧ إحالة هذا التقرير على لجنة تيسير الكتابة :

